UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190740

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ۴۰۲/۸۹۲۵۴ Accession No. ۱۴۹۴۷

Author

Title

This book should be returned on or before the date last marked below.



مسارح الأذهان

مجموعة أدبية فنية روائية
في حقيقة الحياة

بقلم

خليل بيدس

عني بنشرها

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية بمصر
(سنة ١٩٢٤)

حقوق اعادة الطبع محفوظة للمؤلف
بعد مراجعة ناشر الكتاب

المطبعة العصرية
بشارع علوى رقم ٥ بمصر



حضرة الكاتب البليغ الاستاذ خليل بيدس

مؤلف هذا الكتاب وصاحب مجلة النفائس الغراء

وله مؤلفات عديدة يأمل ناشر هذا الكتاب ان يتحف بها

ابناء الشرق بين حين وآخر

مقدّمة

لا يجهل أحدٌ ما للروايات من الشأن الخطير والمقام الرفيع بين سائر كتب الادب عند جميع الامم

فهي من أعظم أركان المدنيَّة

وفي مقدَّمة المطبوعات انتشاراً وتداولاً

وأشدُّها رسوخًا في النفوس والقلوب

وأثبتُها أثراً في الأخلاق والعادات

وأعظمُها عاملاً في البنآء والهدم

لانَّ فيها تمثيلاً لمظاهر الحياة وصورها — من خير وشرّ ، وفضيلة ورذيلة ، وعدل وجور ، وصدق وكذب ، ووفآءوغدر ، وإخلاص ورياء ، وهنآء وشقآء

وفيها وصف أحوال الامم ، وعِبَر الزمان ، وحوادث الحب والغرام ، والحرب والسلام ؛ وما يتخلَّل ذلك كلَّهُ من عفَّة وأمانة ، وغدر وخيانة

وفيها عرض حياة الانسان في جميع أدواره ، في ربيع حياته وخريفها ، في صعوده وهبوطه ، في آلامه وآماله ، في سرّآئه وضرّآئه ، وفقره وغناه ، وأهوائه وأشواقه ، وسائر أطواره وأحواله

وقد أقبل الكتّاب على تأليف الروايات ، وتهافت القرّاء على مطالعتها ؛ وأجاد من كل فريق فئةٌ ، وضلّت فئات ، والرواية تتقلّب وتتحوّل ، الى أن أصبحت موضوع اهتمام السواد الاعظم من كل امّة ، وسمير كل قارىء وقارئة على الاطلاق ، وأصبحت فنًّا من أجمل فنون الادب ، — موضوعُهُ الانسان في حياته الاجتماعيّة والعمرانيّة والخلقيّة

وظهر في كل امّة جمهورٌ من نوابغ المفكّرين ، لم يكتبوا الاّ الروايات — الروايات الخالدة — التي تناقلتها اللغات ، وكان لها دويٌّ عظيم ، عقبتهُ انفجارات هائلة في النفوس ، وانقلابات خطيرة في أحوال الامم

وقام هؤلآء الروائيون - وهم مصوّرو أحوال النفس البارعون- يَلِجون أعماق هذه النفس ، كما يلجون أعماق القلب ، ويصوّرون العواطف ، ويمثّلون الحقائِق ، وينشرونها على الناس في أثواب اللهو والفكاهة

وظهر جبابرةُ الفنّ ، أمثال كرنيل وراسين وموليير و بلزاك وهوغو وتولستوي وشكسبير وولتر سكوت وتورغينيف ودوستويفسكي وغوته وشلّر وديكنس ومارك توين وايبسن ودوماس الكبير والصغير وزولا وشاتوبريان ودوريه وموباسان وبورجيه وغيرهم وغيرهم . . — فكان من ذلك العِبَر ، وكانت المواعظ ؛ وكان من ذلك غذاءُ النفوس ، وقَبَس البصائر ، وكان التأمل والعلم ، وكانت الحكمة والفلسفة

الروائي يكتب للعامَّة ، وهم السواد الاعظم من كل امَّة

يكتب للنفوس الحائرة ، والقلوب المتألّمة

يكتب للنفوس الجائعة ، والقلوب الظمأى

والعامَّة يميلون إلى الرواية ، لأنها كتابُهم ورفيقُهم وعشيرُهم ، وهي أجمل ما يتلهَّون به في ساعات فراغهم ، وأفضل ما يرتاحون لمناجاته في خلوتهم ، وأنجع ما يُتَوَسَّل به لاصلاح عاداتهم وتثقيف أخلاقهم ، وأعذب مورد يستمدُّون منه البصائر

والروائيّ ، — إن لم يعاشر العامَّة ويدرس أحوالَهم ، أو لم يكن منهم ويعش بينهم ، أو لم تكن فيه قوَّةُ التصوُّر ومهارة التصوير وبراعة الوصف ، ولم يكن فيه النظرةُ الأدبيَّةُ الصادقة

الى كل حادث ، والارتياح التام بل الكَلَف التام ببحثه ، وإن لم يَسِرْ بعمله على الدوام الى الامام ، الى أعلى درجات الكمال ، ولم يكاشفه الالهام والوحي والنبوَّة ، — فليس بروائيّ عبقريّ

وهو ، — إن لم يقرأ مئات الروايات ، ومئات التواريخ ، ولم يطَّلع على حوادث الكون ، ويَلِجْ كلَّ مُجتَمع ، ويدرك معنى الحياة وأسرارها وأساليبها ، وينتزع غرض روايته من حوادث الحياة وطبيعة الانسان ، ويجعلها منطبقة على الحقيقة والواقع ، — فليس بروائيّ متفنّن

وهو ، — إن لم يكن نبيًّا ، يرى ببصيرته ما لا يراه غيرُهُ ؛ وإن لم يكن شاعراً يحلّق في سماء الخيال ، ولم يكن عالمًا اجتماعيًّا يعلم الأحوال ويطَّلع على كل شأن من الشؤون ، — فليس بروائيّ ماهر

فالروائيُّ الحقيقيُّ العبقريُّ المتفنّن الماهر — هو مَن عاش للفنّ ، وكتب للفنّ ، ومات في سبيل الفنّ

والرواية الحقيقية ، الفنّيَّة ، هي التي ترمي الى المغازي الحكميَّة أو الأغراض الأدبيَّة ؛ الى تمجيد الفضائل أو التنديد بالرذائل ؛ الى تهذيب الأخلاق وتنوير العقول وتنقية القلوب وإصلاح السيرة

وهي النقيَّة من كل شائبة ، الخالية من كل وصمة ؛ التي تُبقي أثراً في نفس القارىء ، وتحدوه على التأمُّل ، وتقوده في سبيل الرقيّ الأدبي والحبّ النقي . — هذه هي الرواية الحقيقية ، الرواية الفنيَّة ، الرواية الخالدة

لا الرواية المبتَذَلة المشوَّهة . . ، التي لم يكتبها أديب ، ولم يرسمها قلم روائيٍّ مصوِّرٍ بارع

ولا جرم أن بين الروايات مئات وألوفًا لم تُكتَب للغرض الأسمى ؛ وقد انتشرت أيضًا ، وتهافت القرَّاء عليها كما تتهافت الفراشة على النار ؛ وهي تُعرَض في كل سوق وتُباع بيع السِّلَع وبأبخس الأثمان ، — وإنما يُجلَب إلى كل سوق ما يُنفَق فيها

وهذه الروايات — إذا جاز أن تُسَمَّى أمثالُ هذه السخافات روايات — لم يكتبها أربابُها وينشرها الناشرون إلاَّ لأغراض تجارية محضة ، فلا هم ولا القرَّاء — من العامَّة طبعًا — يعبأون بعبارتها ، وكثرة أغلاطها،وتفاهة موضوعها ، وغير ذلك مما لايتنبَّه له إلاّ الأديب ، ومما لا أراني في حاجة معه إلى البيِّنة والدليل ، وهذه أسواقنا تعجُّ عجيجًا بباعة هذه السلع ، أو هذه السموم ، التي ينفثها ناشروها في كل مكان وزمان ، وقد عمَّت بها البلوى

ان ناشري هـذه « الروايات » قد كدَّروا بعملهم مشرب الرواية ، وأسقطوا منزلتهـا ، وعاثوا في القرَّآء بفسـاد آدابهم وزيغ خطتهم ، وجَنَوا على اللغـة ، والأدب ، والأخلاق ، والعواطف ، والفضيلة . . .

ان روايةً ، ولو صغيرة ، تجلَّى فيها جمالُ الفنّ ، فامتزجت بأجزآء النفس ، لخيرٌ من المئات من أمثال تلك السِّلع التافهة ، التي يتاجر بهـا بعض المشعوذين ، ممَّن ضاقت بهم وسائل الكسب ، فلجأوا إلى هذه الصناعة ، و بئس ما عملوا . .

ولا شـك أن قيمة الرواية ، هي في ما تتضمنهُ من الفائدة ، وتتوخَّاه من العبرة . وقيمة الكاتب الروائي ، هي في ما يمثّـلهُ للقارىء من الحقائق ، بالاسلوب الفنّي الشائق

وقد ظهرت الرواية في الشرق بالصورة التي نعرفها الآن ، منذ عهـد غير طو يل ، وكان اكثر ما ظهر من هـذا النوع منقولاً عن اللغات الغربية ، وأقبل أدباؤنا على الترجمة إقبالاً عجيبًا ، ولم يتصدَّ للتأليف ، وخصوصًا تأليف الروايات الكبيرة ، إلاّ النفر القليـل . وقد أحسن كثيرون باختيار أحاسن روايات نوابغ الافرنج ، ونقلها إلى العر بيـة أحكم نقل . وقد أجادوا وأفادوا ، بقدر ما أساءَ غيرهم

بنقل الروايات الركيكة السخيفة ، التي تقذف بقرّائها في مهاوي الضلال والشرّ وسائر ضروب المعايب والنقائص

غير أن الأمة كلما ارتفع شأنُها الأدبي وتبسّطت في المدنية ، مالت بطبعها إلى الأنفع والأفضل ، وأعرضت عن القبيح والسخيف ، وكثر فيها مَن ينهض لمجاراة أهل الغرب في وضع الروايات الأدبية والوطنية

ولا يخفى أن الفن الروائي في الغرب طافح بالحسنات ، وقد سبقنا الغربُ بذلك مراحل كثيرة ، ففيه من الروائيين المتفنّنين مئاتٌ وألوف ، وهم أساتذة الفنّ بلا جدال . فاذا نقلنا عنهم ، أو نزعنا الى أسلوبهم ، فانما نزيد آدابنا ثروةً وجمالاً ، ونزيد كُتّابنا أسلوباً واطلاعاً وفنّاً . ولكن لِنراقبْ الله في كل ما ننقل أو نؤلّف ، ولنسرْ بالفن الروائي إلى الأمام ، إلى الكمال ، ولا نقدّم إلى الأمة إلاّ أفضل ما يقدَّم من هذا الغِذآء الروحيّ الطيّب

* * *

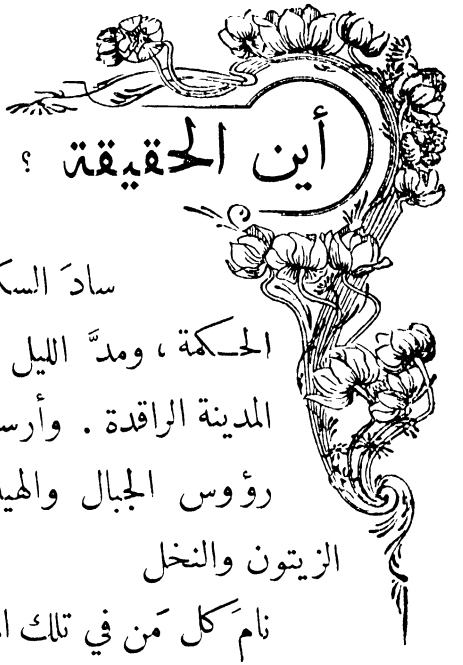
هذا ما أردتُ أن أقوله في تعريف « الرواية » توطئةً للاشارة الى هذا الكتاب – « مسارح الأذهان » – الذي أُقدّمهُ الان إلى الجمهور الكريم ، وكلُّهُ فصول روائيَّة فنيَّة ، ليس منها إلاَّ ما يتضمَّن أدبًا أو عبرةً أو ضربًا من ضروب الحكمة والتثقيف

وقد قدّمته إلى حضرة الأستاذ الفاضل والصديق الكريم الياس افندي أنطون الياس صاحب المطبعة العصرية في مصر، وكان قد نشر هذه الأيام بقلمه وأقلام غيره من الكتّاب والأدباء، طائفةً صالحةً من المطبوعات الجميلة التي لا تجارَى، وأعلن عزمه على متابعة نشر كل ما يتوسّم فيه الفائدة والنفع للجمهور. وهي لعمر الحق خطوة جميلة جدًّا في سبيل خدمة الأدب والفنّ في الشرق، لا يستطيع إتيانها واتقانها، إلاّ مَن أوتي ما أوتيه الأستاذ الياس الياس، من قوّة الارادة والهمّة العالية، وموهبة الاجادة والإبداع، والبذل الكثير في سبيل العلم والعرفان

وفي مأمولي ان الأستاذ بعد أن يطلع عليه، سيبرزه في أجمل شكل فني، شأنه في كل ما يتولى أمره من المطبوعات، التي يُشكَر عليها أجمل شكر. كما أن في مأمولي كذلك أن يكون هذا الكتاب غذاءً نافعًا للنفوس، حريًّا بالاقبال عليه، و بالله التوفيق ما

خليل بيدس

القدس في ١ مايو (ايار) سنة ١٩٢٤



أين الحقيقة ؟

سادَ السكون في أثينا ، مهد الفلسفة ومنشإ الحكمة ، ومدَّ الليل رواقه ، فلم يُسْمَع فيه إلاَّ تنفُّس المدينة الراقدة . وأرسل القمر أشعتهُ الفضيَّة فتوَّجت رؤوس الجبال والهياكل وانبسطت على غابات الزيتون والنخل

نامَ كل مَن في تلك المدينة العظيمة ، حتى الخفراء على الابواب . فوقفت كلُّ حركة وسكن كلُّ ضوضآء ، ولم يبقَ مستيقظاً الاَّ فتىً يسمَّى «دِيوكِلس» . وكان على أعظم جانب من الذكآء والجمال والغنى ، ومن طُلاَّب الحكمة في اكاديمية العلوم ، حيث كان يقضي نهاره و بعض ساعات ليله في الدرس والبحث ، الى ان اشتدَّ فيهِ هذا الميل ، وعاد لا يحلو له الاَّ الانفراد بنفسه والاسترسال الى تأملاتهِ



وكان لأثينا — إلاهةِ الحكمة — تمثالٌ من المرمر النقيّ الجميل ، أُقيم على دكّة مرتفعة في حديقة الاكاديمية. وكان ديوكلِس أكثرَ الطلاّب اختلافاً الى هذا التمثال ، وأشدّهم رغبةً في مناجاته ، حتى انه كان يذهل عن نفسه احياناً وهو واقف لديه ، يتأمّل في محاسنه ويستنزل من لدنه الوحي والالهام

أمام هذا التمثال كان ديوكلس في تلك الليلة ، وقد سكنت كل حركة في المدينة

ومضى عليهِ ذُهلٌ من الليل وهو واقف بخشوع غائص في افكاره .ثم انتفض

بغتةً ، فأكبَّ على قَدَمي التمثال يقبلهما و يغسلهما بدموعه و يقول :
« أيتها الإلهة الجميلة اشفقي عليّ وأصغي إلى توسُّلاتي وتنهُّداتي »

قال ذلك ونظر الى وجه التمثال ، وكان القمر قد أرسل اليهِ أشعتَّهُ ، فازداد تلألُؤًا . واشتدَّت رهبة الهدوء وسكنت حركةُ النسيم ، وانقطع حفيف أوراق الشجر ، فانقبض صدر الفتى وجاشت نفسهُ . ثم زفرَ زفرةً حارَّة وعاد يخاطب التمثالَ قائلاً :« أيتها الإلهة العظيمة ! اليكِ وحدكِ أقدّم احترامي وعبادتي ، لأنك أشربتِ نفسي محبةَ الحكمة والرغبة في بلوغ الكمال والوقوف على الحقيقة . غير ان هذه الرغبة قد اضطرمت في نفسي حتى كادت تحرقني . فإمَّا أن تُخمدي الآن هذا اللهيب أو تكشفي لبصيرتي الحقيقةَ ، هذه الحقيقة العظيمة المقدسة ، حقيقة هذا الوجود ، نفسَ كلِّ شيءٍ وروح كل شيء ، هذه الحقيقة المجرَّدة التي يصبو الى معرفتها الفلاسفة والعلماء وكل حيٍّ عاقل . اكشفي لبصيرتي هذه الحقيقة يا إلهة الحكمة ، لأني أريد أن أعرفها وأُبصرها وأقف نفسي عليها وأبذل في سبيلها حياتي — بكل ما فيها من غنًى وسعادة وجمال وشباب وحب ومجد »

قال ديوكلس هذا وعاد فنظر الى وجه التمثال ، فألفاه كما كان ، جامداً لا يتحرَّك . فضرب بجبينه على قدميهِ المرمريَّتين وعاد الى صلاتهِ وابتهاله . وكانت كلماته تخرج من أعماق نفسه وهي أشبه بدخان

المحرقة ، الى أن جمد كلُّه على قدَمي الإلهة ، وعاد لا يشعر بالوجود

وإذا بأغصان الشجر قد تحرَّكت . وهبَّ النسيم ، فسُمع لهبو به صوت أشبه بصوت بني البشر ، كان ينادي : ديوكلس ! ديوكلس !

فذُعر الفتى وأفاق من غيبوبته وأخذ يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ، وهو يظن ان رفاقه في الاكاديمية يبحثون عنه و ينادونه . فلم يرَ أحداً

وكان الصوت لا يزال يناديه . فحار ديوكلس في أمره وأرسل نظره الى وجه التمثال فرآه يتحرَّك ، وقد نزلت يدُهُ المرمرية فمسَّت كتفَ ديوكلس ، وكأنَّ سلكاً كهربائياً مسَّه ، فانتفض انتفاضاً شديداً وسرَتْ في عروقه الرعدة ، فطأطأ رأسه خوفاً . وانه لكذلك إذا به يسمع الصوت ثانية ، وقد ثَبتَ له هذه المرة ان المتكلم إنما هو التمثال نفسه ، وكان يخاطبه بصوت جليّ قائلاً : « لقد دعوتني يا ديوكلس ، فها أنذا . اني سمعتُ صلاتك واستجبتُ لك. فما الذي تريد أن تسألني إياه ؟ »

وما كاد ديوكلس يسمع هذا الكلام حتى ذُعر وسقط الى الأرض وهو يكاد يفقد شعوره من شدَّة الخوف . ولكنه لم يلبث ان ثاب اليه رشده ، فتجلَّد واختلس نظرة الى وجه الإلهة ثم قال :—

نعم اني دعوتكِ يا إلهة الحكمة لاني أريد ان أعرف الحقيقة ، وليس من يرشدني اليها غيركِ

فقالت الإلهة — فأنت اذاً تريد أن تعرف الحقيقة ، وما هي إلاَّ هـذا الوجود نفسه وجوهر كل شيء . غير ان هـذه الحقيقة ، الحقيقة المجرَّدة ، لم يستطع ان يدركها أحد من الناس . انهم قد رأوا الحقيقة ، ولكنهم لم يروها الاَّ محجوبة بالأستار . وأما الحقيقة المجرَّدة فلم يرَها ولم يطلب أن يراها غيرُك . فاذا كنتَ مصرًّا على عزمك فاعلم ان ذلك يقتضي ثمنًا باهظًا قد تنوء به ؛ لانه يوجِبُ عليك أن تتخلَّى عن الغنى والسلطة والحب والمجد ، وهي أفضل ما اسبغتهُ الآلهة على البشر

فقال ديوكلس — إني بملء المسرة أتَخَلَّى عن ذلك كلّه . حتى عن الشمس أيضًا

فأطرقت الإلهة ، وخيَّم السكون على الحديقة ، وحَنَت الاشجار رؤوسها إجلالاً لابنة « زفس »

ثم رفعت الإلهة رأسها وقالت — حسن ، انك سترى الحقيقة ، ولكن لن تراها كلها في وقت واحد . فسأحملك اليها مرة كل سنة وأدَعُك تمزّق عنها كل مرَّة ستراً من الاستار التي تحجبها . . . وستظلّ حيًّا الى أن ترى أخيراً الحقيقة مجرَّدة من كل حجاب

فطفح وجهُ الفتى سروراً ولم ينبس ببنت شفة انتظاراً لما تريد

الإلهة ان تقوله او تفعله . وما عتّم ان رآها قد خلعت عنها ردآءها المرمريّ فتجلى سناؤها امام عيني ديوكلس . ولكنها أصبحت خفيفة شفّافة كشعاع الشمس . ثم تقدّمت الى ديوكلس فحملته بين يديها وطارت به في الفضآء الى أن بلغت بلاداً مجهولةً فحطّت فيها على جبل شامخ ينطح برأسهِ السمآء

هناك على ذلك الجبل رأى ديوكلس شبحًا ملتفًّا بالحُجُب الكثيفة فلم يستطع ان يدرك هيئته

وكانت الالهة قد أشارت الى ذلك الشبح وقالت لديوكلس — هذه هي الحقيقة . انها ترسل بأشعتها الضئيلة الى الارض فيبصرها الحكمآء والعلمآء .ولولا هذه الاشعةّ لكانت الدنيا في ليل مدلهمّ وظلام دامس . ان البشر لا يبصرون من الحقيقة الاّ هذه الاشعة المنبعثة منها ، وهي ضعيفة ضئيلة كما ترى . واما الحقيقة نفسها فهي هذا الشبح المغطّى بهذه الاستار. فتقدّمْ وأزِحْ عنه ستراً

ففعل ديوكلس كما أمرته الالهة . وما كاد يميط عن شبح الحقيقة أحد أستاره حتى استحال ذلك الستر الى طائرٍ ابيض ، رفرف قليلاً ثم طار محلّقًا في الارجآء السماوية . ووقف ديوكلس هنيهة امام الحقيقة ، فرأى أشعتّها اكثر لمعانًا و إشراقًا من ذي قبل . ثم هبطت به الالهة الى الأرض . فرجع الى الاكاديمية . وعادت هي فارتدَت ثوبها المرمريّ

* * *

بَرَّ ديوكلس في وعده للآلهـة . فهجر لذّاته وطفق يجتهد في اعتزال الناس و يكثر من التأمل والدرس

وعاد لا يميـل الى المآدب التي كان يقيمها ورفاقه . وهجر المراقص والمقاصف او أندية اللهو والطرب ، حيث كان شبانُ أثينا يجتمعون بغاداتها الحسان

ولما كانت السنة الثانية ظهرت له الآلهة أثينا وحملته الى ما ورآء آفاق هذا العالم ، فـكشف الستر الثاني عن شبح الحقيقة . فسطع نورها في بصره وأبصر من ذلك الضياء ما لم يبصره قبلاً . ثم عاد الى الارض وقد اشتدّ زهده في لذّاتها

وكان رفاقه يستغربون هذا الانقلاب في أحواله ويحاولون ان يستميلوه الى حفلاتهم وملاهيهم ، فلم يستطيعوا الى ذلك سبيلاً

وكان له معرفة ببعض فَتيَات أثينا الجميلات ، وكانت احداهُنّ تحبه . فلما رأت فيه هذا التغيُّر تصدّت له مرة وقالت :

— ما بالك يا ديوكلس قد أعرضتَ عني ؟ أُنظر ! ان عيني كالـكواكب اللامعـة ، وشعرِي كالياقوت المضمَّخ ، وجسدي لا يزال غضاً بضّاً ، فعُدْ إليَّ يا حبيبي ولا تزدرِ الحب . ان الآلهة أنفسهم لا يعرفون لذّة تفوقه

فأجابها بقوله — ان الحب قد طار من قلبي أيتها الفتاة كما طار الستر الثاني

وسار في طريقه تاركاً الفتاة التي كانت تحبه ،في ذهول شديد ، لانها لم تفهم من كلامه شيئًا ، ولعلها زعمت أنَّ بهِ مسًّا من الجنون

* * *

وبعد عام آخر أزاح ديوكلس الستر الثالث . فاشتدَّ نفوذ بصره ، وارتفع شأن مقامه بين رفاقه

لم يَعُدْ لديوكلس علاقة بحلقات الفلاسفة ، ولا صوت في الاندية العامة.ولكنه كان اذا وُجد في اجتماع وتكلم يُنصت الجمهور لاستماع أقواله ، يرتشفون كلام الحكمة من فمه ارتشافًا ، حتى قالوا انه فاق أفلاطون وغيرَهُ من الفلاسفة الغابرين ، وصاروا يلحُّون عليه بقبول الرئاسة في الفلسفة والزعامة في الادارة الوطنية ، فأبى ذلك كُلَّهُ . بيدَ انه لما نشبت الحرب بين الاثينيين وأعدائهم انتظم في الحال في صفوف المقاتلين للدفاع عن الوطن . ولم يلبث ان عاد مُثْخَنًا بالجراح. ولما وُزّعت اكاليلُ الفخار على بواسل الجنود لم يكن هو في الحفلة. وأخذوا يفتّشون عنه ، فلم يقف له أحد على أثر

* * *

توالت السنون وديوكلس يرفع عن شبح الحقيقة ستراً بعد آخر. وقد شاب شعر رأسه وانحنت قامته وغارت عيناه وخارت قواه .

ولم يكن يعزّيه إلاَّ أمر واحد ، وهو انه سيشاهد الحقيقة ، ويرى ما لم يرَهُ غيرُه



وجاءت الليلة السرّيَّة الاخيرة . ولم يبقَ على شَبَح الحقيقة إلاَّ سترٌ واحد . وقد حملت الالهة أثينا ديوكلسَ ، فأقامته امام الشبح وقالت — انظر كيف ان الحقيقة تتوقَّد من شدَّة التألّق ! ان تلك الأستار التي أزحتها عنها في السنين الماضية وطارت في الفضاء لم تكن إلاَّ ضلالات حياتك . وقد نبذتها واحدةً واحدةً . فاذا كنتَ نادمًا على ما فعلتَ ، او اذا كان الخوف قد دبّ الى قلبك ، فَعُدْ في الحال الى الدنيا واقضِ فيها ما بقي من نصيبك في هذه الحياة

فصاح ديوكلس — لقد جُدتُ بنفسي لأجل هذه اللحظة الأخيرة ، فاست بعائدٍ الآن عن الحقيقة ، إلاَّ بعد أن أنزع عنها ستارَها الاخير ، وأراها ماثلة امامي ، لا يحجبها عن بصري شيءٌ

قال هذا وتقدَّم الى الشبح وقد اشتدَّ خفقان قلبه وارتعشت يداه . ولكنه خجل من نفسه ، فتجلَّد ومدّ يده وانتزع الستار الاخير عن الحقيقة . . .

ويا لها من ساعة رهيبة !

ان ديوكلس ما كاد يزيح ذلك الستار حتى انطفأت الاضواء وساد الظلام ، فلم يبصر شيئاً

فصاح بصوت كادت تنشقُّ له مرارته — أين الحقيقة ؟ أين الحقيقة أيتها الالهة العظيمة ؟ اني لم أرَ شيئاً تحت الستار الاخير ، وقد أظلم الكون كلُّهُ

فقالت له الالهة — ان عينيك قد عميتا ، وطارت ضلالتك الاخيرة يا ابن البشر ! ان الحقيقة لا يمكن ان يبصرها الناس ، الاَّ وهي مُغطَّاة بالاستار والحُجُب . فقد يدركها البعض من وراء عشرة أستار ، والبعض الآخر بأقل من ذلك ، وغيرهم بأكثر . ولكنَّ الحقيقة المجرَّدة لا يمكن أحداً أن يراها او يعرفها ..

. . . . . .

سمع ديوكلس هذا الكلام ، ثم خرّ مكبّاً على الارض ، وفاضت روحه . . .





نحن وهم

كانت سلمى في السابعة والعشرين من العمر، رشيقة القوام صبيحة الوجه جامعة من المحاسن كل شائقٍ رائقٍ

وهي زوجة رجل من متوسطي الحال يسمَّى أديبًا، كان كاتبًا لاحدى الشركات التجارية المشهورة، وقد مضى عليه بضع سنوات في هذه الخدمة أحرز في أثنائها ثقة رجال الشركة به وارتياحهم اليه، حتى صاروا لا يَبتُّون أمْرًا إلاَّ بعد سؤاله والوقوف على رأيه

وكان أديب يحبُّ زوجته محبـة شديدة ويحرص جهده على راحتها وسرورها، فلا يرفض لها طلبًا ولا يعارضها في أمر، وقد مضى على اقترانه بها سنتان لم تزيداه الاَّ كلَفًا بها وافتتانًا بمحاسنها

* * *

في مساءِ بعض الايام كانت سلمى في مخدعها تنتظر عودة زوجها،

فدخلت عليها خادمتها وناولتها رسالة ، عرفت سلمى كاتبهـا من العنوان ، فصرفت الخادمة وفضّت الرسالة ، فاذا فيها :

« أيتها المفدّاة بالروح !

« مضى هذا الاسبوع كله وهو لم يزدني في كل يوم من أيامهِ إلاَّ شوقًا جديداً اليكِ ، فارفقي بي وَأْذني لي في زيارتكِ هذا المساء ساعة يخرج زوجكِ الى شغله المعتاد في دار الشركة في مثل هـذه الليلة من كل اسبوع . واعلمي أني سأكون بانتظار العـلامة المتفق عليهـا بيننا وأنا على أحرّ من الجمر ، حتى اذا أقبلت الساعة التاسعة ورأيتُ نورَ المصباح في نافذة مخدعكِ طرتُ اليـكِ على أجنحة الشوق والهيام ، وإلاَّ فاني سأظل في موقفي أرنو الى النافذة ، الى أن يجمد الدمُ في عروقي وأموت في دائي

جميل »

قرأت سلمى هـذه الرسالة وعلائم السرور والارتياح تزداد وضوحًا في وجهها . ثم شخصت ببصرها كأنها ترى امامها شبح الحبيب ولا تريد ان تتحوّل عن منظره الجميل

وكان جميل هذا ضابطًا في الجيش يبلغ من العمر نحو الثلاثين . وقد تعرّف بسلمى في بعض حفلات الرقص ، فمالت اليه ومال اليها ، وكانت تجتمع به في منزلها وفي بعض المتنزّهات ، الى ان هامت به وهام بها ، وأصبحا لا يرهبان عذولاً ولا يحذران رقيبًا

وإنها لكذلك إذ قرُع جرس المنزل ، وكان القادم زوجها ، فارتعشت قليلاً ، ولكنها لم تبطىء ان أخفت الرسالة وخرجت من مخدعها لاستقباله ، وهي ترحّب به وتسأله عن صحته وسروره . ثم تأبطت ذراعه ودخلت به الى غرفة المائدة وهي تُظهر له كل حب وكلَف . ولما جيء بالطعام أخذت تباسطه وتفكّهه بأحاديثها وتقدّم اليهِ أطيب ما على المائدة من ألوان الطعام والشراب

وكان أديب ينسى في مثل هذا الوقت كل تعب نهاره ، فيُقبل على زوجته وقد طفح وجهه سروراً وامتلأت نفسه هناءً ، وكان يقول كل مرة في نفسه : ما أرغد عيش الرجل اذا كانت رفيقة حياته مثل هذه المرأة اللطيفة العفيفة . . فهي ليست بشراً ، وإنما هي ملاك هبط من السماء . . هي ملاكي الحارس الامين في هذه الحياة

وكانت سامى في أثناء ذلك تواصل اهتمامها به وتقصُّ عليه أعذب الاحاديث ، ثم قالت له :—

— يظهر لي انك اليوم منزعج الخاطر ، او لعلك تكون منحرف الصحة لأنك لم تأكل كعادتك ، وقد علا وجهك الاصفرارُ ، فيجب أن تُعنى بصحتك يا عزيزي وتستدعي طبيباً لمعالجتك

فضحك أديب وقال — أنتِ واهمة أيتها الحبيبة فأنا لا اشكو شيئاً . وأما ما ظهر لكِ من تغيّر وجهي فقد يكون من تأثير تعب

النهار . ولو أُتيح لي أن أقضي هذا المساء بقربكِ لرأيتِ غداً غير ما ترينه الآن في صحتي

فتكلَّفت سامى الاجفال وقالت بوجل – وهل أنت مزمع ان تغادرني هذا المساء ؟ والى أين ؟

قال – الى الادارة ، لأننا سنجتمع ، كعادتنا في مثل هذه الليلة من كل أسبوع ، للمباحثة في شؤون الشركة

قالت — ولكن ذلك لا يُحْتَمل ! أنت تشتغل النهار كلَّه ، وهذا حسبك ، فما بالهم لا يكتفون به ؟ وهل يزعمون أنك آلة لا تتعب ولا تحتاج الى الراحة ؟ اني لا أدَعك تخرج هذه الليلة

قال — وهل يمكن ذلك ياعزيزتي ؟

قالت — وكيف يمكن اذاً ان يحملوك فوق طاقتك الليل والنهار ؟ ألا يعلمون ان لك زوجةً تحنُّ اليك وتريد ان تراك ؟

قال — هو ما تقولين . . غير أني أَلِفْتُ العمل ، واني اواظب عليه لتتوافر أسباب راحتكِ وراحة طفلتنا وهنائكما . وستكون لي بقية ايام هذا الاسبوع ، فليس لاحد ان يحرمني البقآء بقربكِ في مساء كلّ يوم منها

ثم أخذ يدها بين يديه ونظر الى عينيهـا فرأى الدمع يترقرق فيهما ، فضمَّها الى صدره وقبَّلها في عينيها وخدَّيها

فقالت — ومتى يكون ذهابك ؟

قال — قبيل الساعة التاسعة ، لان الجلسة ستعقد الساعة التاسعة تماماً

فظهر السرور في وجه سامى على رغم ما كانت تبديه من الحذر . . ولما أزف الوقت قامت تشيّع زوجها الى البـاب وقد قالت له : — سأظلُّ مستيقظة الى ان تعود ، فاياك ان تبطيء عليّ بعد نهاية الاجتماع

قال — قد يطول هذا الاجتماع الى منتصف الليل او بعد ذلك بساعة ، فنامي أيتها العزيزة ولا تزعجي نفسك بطول الانتظار

ثم قبّلها وقبّلته وخرج وهو يقول في نفسـه : حقاً انها آية الاخلاص وعنوان الحب الصحيح الطاهر .

وعادت سامى فأضجعتْ طفلتهـا في سريرها ، ثم وقفت امام المرآة فأصلحت شعرها وزينتها . وكانت الساعة التاسعة قد أقبلت فوضعت مصباحاً على نافذة مخدعها وخرجت الى فناء الدار . وما هي الاَّ بضع دقائق حتى قُرع الباب قرعاً خفيفاً لم يسمعه سواها ، ففتحته بسرعة . ولم يكن القادم الا حبيبها جميلاً . فعطف عليها يقبّلها . فدفعته عنها بلطف ، ثم دخلت به الى المنزل وهي تحاذر ان يراهما احد



وكان لسلمى خادمة صبية تُدْعى مرثا ، وكانت مملوءة عافيةً ونشاطاً ، وقد منحتها الطبيعة فوق ذلك جمالاً باهراً . وكان احد فتيان الحيّ قد أحبها وخطبها من اهلها ، فرضوا به كما رضيت به مرثا ايضاً ، فرأى منها قلباً صافياً ووداداً حقيقياً ولطفاً ورقة شعور ، فازداد تعلقاً بها . وكان ينتظرها اكثر الاحيان في الطريق حينما كانت تخرج بابنة مولاتها للنزهة ، فيراها وتراه او يسير الى جانبها يتحادثان . وكان الحبُّ بينهما قد اشتدَّ حتى صار أحدهما لا يطيق صبراً على فراق الآخر

واتفق ان هذا الفتى جاء لزيارة خطيبته في تلك الليلة ، ولم يكن ذلك مباحاً له ، ولكنه جاء مدفوعاً بعوامل لا تُقاوَم ، فاستقبلته مرثا سرّاً وادخلته الى غرفتها وجلست اليه تحادثه ، وهي في خوف شديد من ان تأتي سيدتها فتراه عندها

وطال الحديث بين الاثنين الى منتصف الليل وهما لاهيان عن كل امر

وهكذا بينما كانت سلمى جالسة الى عشيقها جميل في مخدعها يتطارحان أحاديث الغرام ، كانت مرثا أيضاً جالسة في غرفتها الى حبيبها وخطيبها يتشاكيان ويتغازلان . . .

* * *

ولم تشعر سلمى الاّ والساعة تؤْذن بانتصاف الليل ، فذعرت

وقالت لجميل — يكفي الآن ، فيجب ان تخرج قبل ان يعود زوجي من عمله

فتنهَّد جميل وقال — وكيف استطيع ان افارقكِ ايتها الحبيبة ، بل كيف أستطيع أن أظلَّ اسبوعًا كاملاً في انتظار مثل هذا الموعد؟

قالت — أخرج الآن وسنتحدث في فرصة أخرى

فتنهَّد ونهض فضمَّها الى صدره وعانقها طويلا ، ثم خرج وخرجت سلمى تشيّعه . وقد أقفلت وراءه الباب وعادت فأبصرت غرفة الخادمة والنور يسطع من خلال بابها ، فتعجبت ودنت من الغرفة فسمعت صوت الخادمة ، فلم تشك في أنها تخاطب أحداً في الغرفة ، فازداد تعجبها ودنت من باب الغرفة فدفعته برجلها ودخلت ، فرأت خادمتها مستغرقة في السَّمَر مع خطيبها ، وهو مطوّق خصرها بذراعيه . فانتفضت غضباً وعادت الى مخدعها دون أن تكلمها شيئًا

وكانت مرثا المسكينة قد وقفت كالصنم حين رأت مولاتها ، وعادت لا تدري ماذا تقول وكيف تبرّىء نفسها وقد هلع قلبها وخانها الجلَد

* * *

ولما عاد أديب قصَّت عليه سلمى الخبَر ، وهي لا تزال ثائرة النفس . فقال لها ، وهو يحاول ملاطفتها وتسكين غضبها : — هوّني

عليكِ يا عزيزتي ولا يزعجك مثل هذا الامر . ان مرثا فتاة جميلة ومن حقها ان تحب وتهوى كباقي الناس ، وليس الفتى الذي رأيتهِ عندها الاَّ خطيبها ،وهو لا يلبث ان يقترن بها بعد شهرين او ثلاثة . فلا أرى في عملها والحالة هذه ما يستدعي كل هذا الحنق

فقالت سلمى — قلْ ما شئت وتفنَّنْ في الدفاع عنها ما شئت. أما أنا فلا أرضى ان يكون منزلي مجتمع الخلاَّن والعشَّاق ، كما اني لا أرضى أن تظلَّ هذه الخادمة عندي يومًا واحداً بعد الآن

قال — إفعلي ما يلهمكِ قلبكِ أيتها العزيزة . ولكني أعود فأقول لكِ ان مرثا لم تجنِ في عملها اثمًا تُعاقَب عليه ، واذا كان القدَرُ قد جعلها خادمة ، غير انه لم يحرمها عواطف الحب ، فهي بشر ايضًا، ومن حقها ان تحب وتهوى

و بذل اديب جهده في اقناع زوجتـه وحملها على العدول عن عزمها ، فلم يُفلح . وكان اول شيءٍ عملته في الصباح انها طردت مرثا من منزلها ، ولكنَّ غضبها ظلّ اياماً في حموٍّ واتقاد ، وكانت كلما اجتمعت بزوجها تتطرّق الى ذكر هذه الحادثة ، ولا تستطيع ان تفهم كيف خَلَت مرثا بخطيبها وجَنَت مثل هذه الجناية الغريبة !!!

أيتها الشمس!



لله أنتِ أيتها الشمس!
ما أجملكِ وما أبهاكِ!

أنظر اليكِ، وأنتِ تحملين الى لجج البحار سيولَ التبر الذائب وتنثرين الزمرُّدَ واللؤلؤ

في طرفة عين، وأنتِ تسبحين في البحر، تبنين من الامواج الفيروزية قصوراً عجيبة غريبة، ولكنكِ لا تلبثين أن تهدميها لتبني غيرها أغرب وأعجب وأجمل، إذ لا حدَّ لتفنُّنكِ ولا نهاية لإبداعكِ

أنظر اليكِ ، والنفس توّاقة الى الخروج الى حيث ترقص أشعتّكِ الذهبية ، لأمرح معها وأرقص وأعدو من جهة الى أخرى ، ومن قصر باهٍ باهر الى آخر خالب ساحر

وما أجمل الغابة وقد كسوتها حلّةً أرجوانية فأصبحت كالحكايات الغريبة بحوادثها ، المدهشة بعجائبها

أيتها الشمس المشرقة ! إني أحبكِ وأهواكِ ، لانكِ أحسنتِ إليّ وأحييتِ قلبي وملأتِ نفسي أملاً يومَ كنت شاباً ، ويومَ كان قلبي منجذباً الى السماء

فقد أحببتُ وقتئذٍ فتاةً ، جميلة كأنها أحد أشعتكِ ، ورشيقةً ولطيفةً كالزهرة الغضّة ، وكنتُ حين أسمع صوتها كأني أسمع نغمات الملائكة

وكنّا كلانا نستقبلكِ كل يومٍ صباحاً ، وأنتِ مُطلّة من وراء الجبال ، ترسلين شعاع ابتسامكِ الى وجه الحبيبة ، فتصبح كلُّها شفّافةً وخفيفة كأشعتّك ، ونقيّة كألماسكِ ولآلئكِ

وكنت — إذ ذاك — أدنو الى وجه الحبيبة فأقرأ في عينيها تلك الحكايات الحلوة التي كانت والدتي تقصّها عليّ لأنام ، وأرى فيهما الأحلام التي كنتُ أراها وأنا طفل . .

وفي أحد الأيام — وقد أصبحتُ رجلاً — كنت واقفاً على شاطىء البحر والى جانبي امرأة بارعة الحسن والجمال ، وقد ذهبنا الى

ذلك الشاطىء لنستقبلكِ أيتها الشمس ، وننظم لكِ آيات التسبيح،



وكأنك أوحيتِ الى تلك المرأة الجميلة فمدت يدها البيضآء الى كتفي، وشعرتُ بأنفاسها المنعشة تهبّ على وجهي . وقمنا بعد ذلك نعيد لشروقك وقد أشرق في نفسي الحبُّ ، كما أشرق في نفس المرأة

التي كانت الى جانبي . وأشفقتُ وقتئذٍ أن تغيبي ، فتغيب شمسُ حُبي . وخفت أن تطمو عليك أمواج البحر فتغرقكِ

ومرضتُ بعد ذلك وأحْسَسْتُ في أحد الايام بثقل في رأسي، كأنه حُشي بالرصاص حشواً . وكان المطر يتساقط على نافذة غرفتي ، فيروعني ، ويرتدُّ نظري عنها لأنكِ لم تكوني فيها أيتها الشمس ، وقد خُيّل إليّ ان غولاً هائلاً قد ابتلع العالمَ بجملته

وخُيّل إليّ أيضاً أني لن أسمع بعدُ أغاريد الفتاة الحسناء في المرج وعلى ضفاف النهر ، ولن أرى أشرعة المركب وهو يسبح على مرآة الامواج الزمرُّدية مسرعاً بمن على ظهره من الركاب الى حيث تتدفق أشعتكِ العجيبة أيتها الشمس

ونمت وأنا حليف الهم وقد ملأ اليأس قلبي ، لأني خشيتُ أن لا أرى تلك العيون التي فيها سعادتي . وخفت أن أموت فلا يسمع أحد نشيد حبي

ولبثتُ على فراش المرض مدّة ، وقد ودَّعت الحياة وأخذ شبح الموت يدنو مني

ثم فُتحت عيناي فجأةً ، فشعرت بدبيب الحياة في جسمي ، وشعرتُ بأن الرصاص الثقيل قد خرج من رأسي

هذهِ أنتِ أيتها الشمس الجميلة ، قد زرتني ثانيةً فكبحتِ جماح الموت وأبعدتِ شبحه عني . وقد دخلتْ أشعتُكِ الى غرفتي

وسطعت على الجـدار وفي المرآة ، وأشرقت على صورة محبوبتي ، وكانت على منضدة بازآء سريري، فرأيتها كأنها تبتسم لي وتناديني ..

وكنتُ مرةً في الغابة ، فرأيت صياداً يحمل طائراً لا يزال حيّاً ، وهو ينتفض بين يدَي قانصه والدم يسيل منـه . وكان الصيادُ قد أخذه الى النهر فغمسه في الماء ثم وضعه في جرابه . وعاد فغسل يديه من آثار دماء الفريسة .. وكنتِ أيتها الشمس طالعةً وقد رأيتِ ذلك الصياد وشهدتِ فعـله ... ولكنك أشرقتِ على يديه الملطَّختين بالدم

ورأيتُ في أحد الاكواخ الحقيرة عجوزاً طريحة الفراش، وقد اشتدّت عليها وطأة المرض ولم يعد لها رجاء في الحياة الاَّ اذا أرسلتِ اليها أيتها الشمس ببعض أشعتّكِ المحيية ، ولـكنكِ لم تسمعي نداء هذه المسكينة ، بل أعرضتِ عنها ورحتِ تسطعينَ على قصور القتَلَة والسفاحين ...

رأيتُ كل ذلك منك أيتها الشمس ، وقد هالني ما رأيتُ ، وصرتُ أخشاكِ وأرهبكِ

فاذا متُّ غداً وطُويتُ في حفرتي واجتمع أهلي وأصدقائي يبكوني ويندبوني — فانك ستشرقين ايضًا فوق قبري ضاحكةً مسرورةً ، كما كنتِ تفعلين يوم كنتُ أُسَبّح لكِ .. وسترسلين بأشعتكِ — تلك الاشعة التى سطعتْ على يدَي الصياد الملطختين

بالدم ، والتي كانت العجوز المائتة في أشد الحاجة اليها لحياتها — ولا فرق عندكِ بين البريء والمجرم

كنت أودّ أيتها الشمس أن تضحكي لمن يكون أهلاً لضحككِ ، وتعبسي في وجه من يستحقون عبوسكِ

إنّ من البشر أيتها الشمس آبالسة لا يستحقون أن تشرقي عليهم ، فأنتِ انما تزيدينهم ضلالاً واسترسالاً في الجرائم والموبقات . .



الثور المقدس



في بلاد الفراعنة ، حيث كان كلُّ شيءٍ مقـدَّسًا ، ما عدا طبقة العمال ، — وكلُّ شيءٍ ثمينًا ، ما عدا عرَق الجبـين ودم المسكين ، حدث منذ أربعة آلاف سنة ما يأتي :

في بقعة من بقاع تلك البلاد ، على ضفاف النيل ، وقف في أحد الايام فتىً من الفلاَّحين والى جانبه ثور له يرعى العشب الأخضر ، وكان الفتى يحب ثوره لأنه كان الأداة الوحيدة لمعيشته

وإنهُ لكذلك اذ أبصرَ عن بُعـدٍ رَكْباً يحثُّون رواحلهم الى جهته . وما عتَّم ان تبيَّنهم ، فاذا هم جماعة من الكُهَّان ، سَدَنَةِ الآله أوزيرس . فتهيَّبَ الموقف ولبث في مكانه خاشعًا

وكان الكُهَّان قد رأوا الثور يرعى ، فبادروا اليـه وأخذوا

يفحصونه من رأسه الى أسفل قوائمه . وقد فتحوا فاه وداروا حوله من كل جهـة ، ثم خرّوا كلهم على وجوههم الى الارض يُصلُّون وينشدون أناشيد السرور والحبور ، والفتى ينظر اليهم شاخصاً مبهوتًا ، لا يدري ما الذي حملهم على هذا الصنيع . ولكنه لم يطل تعجبه ، لان الكهان نهضوا بعد ذلك على أقدامهم وقالوا له — انك لَسعيد أيهـا الفتى ، لان الشمس قد آثرتك بنعمها التي لا تحصى ، فخصّتك بوجود الثور « أبيس » بين يديك ، وهو الالف والستون من تجسُّد الآله أوزيرس

فقال الفتى ، وقد ازداد حيرةً وذهولاً — وهمتم ياسادتي ، لان اسم ثوري هذا « داسو » وليس « أبيس »

— إخرس ، فما أنت الاَّ حشرة حقيرة ! أفلا ترى على جبهته صورة القمر ؟ فهذا إذاً ابن الشمس

— كلا أيها السادة ، بل هو مولود كما يولد كل عجل من جنسه ، وأبوه من ثيران قريتنا وهو لا يزال حيًّا يعرفه الجميع

فاستشاط الكهَّان غضبًا وصاحوا بالفتى قائلين — وهل بلغتْ منك القحة ، وأنت دودة خبيثة ، أن تعارض سَدَنة الآله في أقوالهم ؟ ان هذا الثور لم يبقَ لك بعد الآن . هكذا قضت شرائع ممفيس

— ولكنه سبب معيشتي أيهـا السادة . وهو حيوان بسيط كسائر الحيوانات . فكيف تؤلّهونه ؟

— لا يجديك هـذا الـكلام نفعًا ، لان ثورك هو ضالَّتُنا التي ننشدها منذ أيام ، فيجب أن تسكت ولا تذكر بعد الآن شيئًا عن نسبه لئلا تحلَّ بك المصائب من حيث لا تدري

قالوا ذلك وساقوا الثور أمامهم وساروا في طريقهم ، والفتى واقف ينظر آسفًا حزينًا ، وقد شعر بضعفه عن الدفاع عن حقه المغتَصب

* * *

أصبح الناس في اليوم التالي ، وهيكل « الآله أبيس » في أحسن زينة ، وقد أشرقت عليه شمس الصباح فزادته بهاء . وكان سدَنة الهيكل قد شرعوا في خدمة الثيران والعجول ، يقدمون اليها الطعام والشراب ويعتنون بتنظيفها وخدمتهـا ، والثور « داسو » واقف بينها ينظر ذات اليمين وذات الشمال ، كأنه يتأمل في حالته الجديدة ، ثم يعود الى المعلف فيأكل . وقد دنا منه أحد السدَنة يحمل قصعةً من اللبن ، فشرب الثور حتى ارتوى

فقال السَّادن — تبًّا لهذا الثور ما أشرهه ! انه قد عبَّ اللبن كله ولم يُبقِ على شيء من العلف

فأجابه أحد الرفاق ضاحكاً — لا عجب في ذلك ، لانه لايزال قويًّا نشيطًا ، قضى حياته خارج هـذا السجن يسرح في الغياض والرياض

فقال آخر — ولكنه قد أصبح الآن إلهاً ، تعبده الامة كلها

وقال غيره وهو يهزّ رأسه — ما أضلّ الامة التي تجوز عليها أمثال هذه الخزعبلات

— لا تقل هـذا القول يا أخي ، لئلاّ يشيع وتتناقله الألسنة فتكون عاقبته وبالاً علينا

— ولكن أليس حراماً علينا أن نمثّل هذه الشعوذة ونموّه على الامة بمثل هذه الاكاذيب ؟

— خلّ عنك ولا تعلق على الامر هذا الاهتمام كله ، فستفيق الامة يوماً ويرتفع حجاب الضلال عن أبصارها

— انها أخذت تبصر وتدرك . وقد سمعتُ أقوالاً تدل على تزعزع عقيدة قائليها ووقوفهم على بعض السرّ

— وهنا الطامّة الكبرى والبلاء الاعظم.لان الأمة اذا استنارت بنور المعرفة ومزّقت عن أبصارها حُجُب الاوهام والاضاليل ينقطع رزقنا ونصبح كالسوقة لا يفصلنا عنهم شيء

— اننا الآن قوة عظيمة ولنا سلطان حتى على الملوك ، وفي أيدينا ثلث أرض مصر ، فيجب أن نسعى جهـدنا لتظل الامة في دَرَكات ضلالها ، ونظل نحن في أوج مجدنا وصولتنا

— لا أظن ذلك يطول ، بل يُخيَّل إليَّ أن رئيس كهَّاننا نفسه قد سُمَّت افكاره ببعض الآراء العصرية ، فلم يف كعادته من حيث التديّن والتعبد للثيران وعنايته بها

— اذا كان الامر كما تقول فلا أسهل علينا من أن نستبدل به غيرهُ من ذوي الدهاء والفطنة ، أو ان نمزّقه إرْبًا إرْبًا ليكون عبرة للآخرين

— غداً عيد الآله أبيس ، فيجب أن يكون المهرجان عظيماً جدًّا ، لتشتدّ العزائمُ الخائرة وتتجدّد القوى الضعيفة

* * *

واحتفل الكهَّانُ في اليوم التالي بعيد « الآله أبيس » ، فزينوا « الثورَ سادو » بطاقات الازهار والرياحين وألقوا عليه الاردية الثمينة من أنفس المنسوجات الحريرية ، وخرجوا به من الهيكل يطوفون شوارع المدينة ، وهم يقرعون الطبول والصنوج و يعزفون بالمزامير و يتراطنون بكلمات وصلوات لم يفهمها احد ، وقد احتشدت حولهم خلائق لا يحصيها العدّ ، وكان السرور عامًّا والهناء شاملاً

واتفق ان الفتى الفلاَّح صاحب الثور « سادو » كان وقتئذٍ في الطريق يسوق بقرةً له جاء يبيعها ليدفع ما عليه من الضرائب و يستعين بالباقي من الثمن على معيشته . فلما رأى الموكب وقف

خاشعَ الطَّرْف ، حاسرَ الرأس . وحدث ان الثور رأى رفيقةَ حياته البقرة فحنَّ اليهـا وسار الى جهتها دون ان يقوى سائقهُ على كبح جماحه . فلمـا أبصره الفتى هشَّ له وبشَّ وقال : ما أتعسَ حظك يا « سادو » ! انهم اختطفوك مني ليجعلوك إلهـاً ، ولكنك لاتزال تحبني وتؤثر ان تعود إليَّ ، إلى حياتك الطبيعية ، على أن تمثّل دوراً لا يليق بك ولا تحتمله نفسك

وما كاد الكهّان يسمعون هـذا الكلام حتى صاحوا بأعلى الاصوات — ان هذا الفتى يستحق الموت لانه جدَّف على الآلهة

فهجم عليه بعضهم يريدون تمزيقه ، لو لم يسرع رجالُ الشرطة وينتشلوه من بينهم . وقد حملوه اخيراً الى دار القضاء لمحاكمته وهو لا يعي شيئاً من كثرة ما نزف منه من الدم . فعالجوه بالمنبهات حتى عاد الى رشده ووقف للمحاكمة

فقال له القاضي — انهم يتّهمونك بالزندقة ، لأنك أهنتَ الثور المقدَّس ودعوتهُ « سادو »

— وأي زندقة في هذا يا سيدي ؟ ان الثورَ ثوري ، واسمه سادو ، وقد اختطفوه مني بالامس . .

— انك لا تزال على ضلالك

— ولكنها الحقيقة يا سيدي

— ليس كل ما يُعلم يقال

— اذاً يجب ان اكذب

— لا تكذب . . بل احترم آراء الآخرين وعقائدهم

— ومن هم هؤلاء الآخرون الذين يجب ان احترم آراءهم ؟

— هم أبناء جيلك ، الناس كلهم

— اوَ لستُ انا ايضاً من هؤلاء الناس ؟

— بَلى

— اذاً ردَّ عليَّ ثوري وأطلق سبيلي

— اذا قلنا « الناس » و « آراء الناس » فنحن انما نَعني ، ايها الاحمق ، طبقةً معلومة من الناس ، لا الناسَ كلهم . ولستَ أنتَ من تلك الطبقة . وسيحكم الكهان عليك بما شاؤوا لانك اجترأت على مقاومتهم

* * *

ثم أُخذ الفتى الى الهيكل يحرسه نفرٌ من الشرطة . ولما مثل بين يدي الكاهن الاعظم ، وسمع هذا بعض كلامه ، قال لهُ — اعلم يابني انك مخطىء كل الخطأ لانك لا تريد ان تسكت وتعتقد ما يعتقده الآخرون

— أي ان اكذب على نفسي ايضاً واكون أعمى البصر والبصيرة ؟

— لا هذا ولا ذاك أيها الفتى ، فأنت على حق فيما تقول . ان الحياة كلها ألغاز واوهام ومغالطات وأضاليل ، وقد أُلِفَ الناس ذلك كله منذ آلاف من السنين ، وستظلُّ هذه حالتهم أدهاراً أخرى ، والويل لمن يتصدّى لتمزيق براقع هـذه الاوهام وكشف هذه الاضاليل والتمويهات . اقول ذلك لاني سئمتُ هذه الحياة وصرت اكره هذه المظاهر الكاذبة واريد ان أبرئك وأنقذك مما أُعدَّ لك

فدهش الفتى وقال — ولكني أخشى عليك يا سيدي . فدعني وحدي أتحمل عاقبة جرأتي

— لم يبق في امكاني أن أتحمَّل هذه الاكاذيب اكثر مما تحملت ، فقد ضاق صدري وصرتُ أشتهي الموت لأنجو مما أنا فيه من توبيخ الضمير

قال هذا ودخل الهيكل وكان غاصّا بالجماهير من جميع الطبقات وقد سجدوا كلهم للثور يصلون ويبتهلون

فوقف كبير الكهان على دكة هنـاك وقد خلع حلته الرسميـة وخاطب الناس قائلا — قد حان الوقت يا أولادي لاكاشفكم بما في صدري من الاسرار ، فلا تخافوا ولا تجزعوا . انكم تحتفلون اليوم بعبادة الثور المقدس ، رمز الشمس المتجسدة

قال هذا والتفت الى الكهنة قائلاً — ارفعوا الاستار !

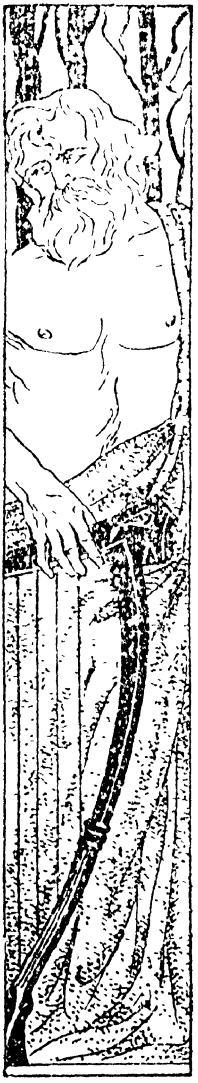
وكانت هذه الاستار تحجب الثيران عن أبصار الشعب فلم يكن أحد يبصر شيئًا مما وراءها . فلما أُزيحت رأى الناس اسطبلاً قامت فيه المعالف ووقفت اليها الثيران و بينها « سادو » يأكل بشراهة لامزيد عليها

وتابع كبير الكهان كلامه مخاطبًا الناس ، وكانوا في أشدّ حالات الاستغراب والذهول ، فقال — هذا هو الثور المقدس الذي كان بالأمس كغيره من الحيوانات ، وأصبح اليوم معبوداً نتقرّب اليه ونسجد له . .

وما كادَ الكاهن ينطق بهذا الكلام على مسامعهم حتى اهتزَّ المكان بضجيج الغيظ والحنق فانقضّوا عليه ومزّقوه بأيديهم ، ثم طرحوه خارجًا . وكادوا يفعلون مثل ذلك بالفتى الفلاّح لو لم يختفِ عن الابصار و يأخذْ بالفرار

وقد أُرخيت في الحال الاستار وعادت « الآلهة » فحُجبت عن الابصار ، ونسي اجميع هذه الحادثة أو تناسوها . وظلوا في عقائدهم وعباداتهم التي ألِفوها ، يُطرّس الخَلَفُ على آثار السَّلَف ، و ينشأُ الابناء على آسال الآباء قرونًا كثيرة ، وهم كلما مات ثور وجدوا آخر ، يتخذونه معبوداً ، يسجدون له ويُصلّون . . .

الفيلسوف



التقى في فندقٍ كبيرٍ في احدى العواصم الكبرى شابّان في مقتبل العمر . وقد قدماها ليُتمّاً فيها دروسهما . وكان احدهما طالب فلسفة والآخر مصوّراً . ولما كانا من وطن واحد و بلد واحد ، رأيا أن يعيشا معًا . فنزلا في ذلك الفندق في غرفة واحدة . وكانت رابطة الصداقة والوطنية تزداد على الأيام توثقًا بينهما ، حتى باتا لا يطيق أحدهما فراق الآخر الاَّ بضع ساعات كل يوم يقضيها كلٌّ منهما في الجامعة التي انضمَّ اليها

وكان طالب الفلسفة نحيف الجسم لطيف العشرة حلو الحديث واسمهُ فيليب ، وكان المصوّر بدينًا مفتول العضل واسمه لبيب

قال فيليب :

جلسنا في أحد أيام الربيع الجميلة في

حديقة الفندق وكان بين يديَّ كتاب ابن رشد الفيلسوف المشهور ، ولكني لم أشعر بميل الى الدرس والمطالعة فأمعنتُ في الخيال . وكان كل شيء في الطبيعة جميلاً ، وقد عبقت الحديقة بشذا الازهار الطيبة الرائحة فزاد ذلك جمال الكون بهاءً وزادني ارتياحًا الى التأمل في الجمال والحب

وكنتُ قد تعرَّفتُ اتفاقًا بغادة ذات جمال رائع وحسن باهر ، واسمها أنيسة . وقد كلفتُ بها وشعرتُ بميلها اليَّ . ولكني أخفيت ذلك عن لبيب لانه كان مذياعًا لا يكتم سرًّا

قضينا ساعة ونحن جالسان في ظل أشجار الحديقة وكلٌّ منا لاهٍ بأفكاره وتأملاته وقد طال السكوت . ولم يكن من عادة صديقي أن يطيق الصمت الى هذا الحد ، فالتفت اليَّ وقال — أراك اليوم قليل الاكتراث لابن رشد وارسطو وغيرهما من الفلاسفة ، فماذا جرى ؟

قلت — لم يجر شيء ، ولكني مسرور جدًّا الآن بهذه المشاهد الطبيعية الفتَّانة

قال — وأظنك لا تلبث أن تهجر هذه الكتب المملَّة

قلت — ولمَ ذاك ؟

قال — لأن انيسة هنا ، في هذا الفندق ، وهي أجمل من الازهار وغيرها من المشاهد التي تُمتّع عينيك برؤيتها

سمعتُ هذا الكلام ودهشت ، لأني لم أكن أعلم أن لبيباً مطلع على علاقتي بأنيسة ، أما وقد عرف ذلك فلم يبقَ للكتمان من سبيل ، فتبسمتُ وقلت — نعم انها في الفندق وقد نزلت مع عمتها في الغرفة الحادية عشرة

فقهقه لبيب وقال — ولكن الحب شيء والفلسفة شيء آخر يا فيليب ، ولا يمكن أن يجتمعا . فإما ان تهجر ابن رشد وامثالَه وتحرق كتبهم وتتفرَّغ للحب والغرام ، او تهجر أنيسة وتدعني وحدي هنا

فنظرتُ اليه نظرة توبيخ ولم أفه ببنت شفة

ثم عاد لبيب الى الحديث فقال — وقد علمت ان انيسة وصيفة احدى الاميرات ، ولكنها لا تقضي عندها الاَّ ساعات النهار ، لأن منزل الأميرة صغير ، فتأتي أنيسة الى هنا للمبيت مع عمتها

قلت — أراك مهتماً بأمرها كثيراً حتى تكاد تعلم عنها اكثر مما اعلم أنا

قال — وهل من حرَج عليَّ في ذلك ؟ ان انيسة فتاة جميلة

لطيفة وهي كالشمس المشرقة . أفلا يحقُّ لي أن أتمتع بشعاع من أشعتها المنيرة ؟ وما رأي صاحبك ابن رشد في ذلك ؟

قلت ، وأنا لا أملك نفسي من الضحك — وما شأن ابن رشد فيما نحن فيه ؟ انه لا يبحث في هذه المواضيع ، فدعه وشأنه ، وهات اخبرني هل رأيت انيسة او كلَّمتها ؟

قال — لقيتُها مرة على درج الفندق ، فحيَّيتُها وعرضتُ لها على أمل أن تجاذبني الحديث ، فنفرَتْ مني وراحت تعدو كالظبي وقد أصابه سهم الصياد

قلت — انك غليظ لا تُحسن مقابلة الحسان . أفلا تعلم أن انيسة مثال اللطف والرقَّة وعنوان العفة والطهارة ، وانها بهذه الصفات كأحسن الفَتَيات واخفهنَّ روحًا واكثرهنَّ حياءً ؟ نعم يا لبيب ان انيسة هي أبهى من الفجر وأنقى من الزنبق وألطف من نسيم الصباح

* * *

وفي مساء ذلك النهار لقيتُ انيسة في بعض دهاليز الفندق وكانت قد وثقت بي وعادت لا تتجنَّبني . ورأيت انها تريد الخروج للنزهة في الحديقة ، فسرتُ الى جانبها اقصّ عليها بعض النوادر وأسمع حديثها العذب ، وأنا لا أرى بين جميع الأزهار والرياحين

التي مررتُ بها سوى انيسة . ثم دعوتها الى زيارتي في غرفتي فقالت — يستحيل عليَّ ذلك ما دُمْت أنتَ ورفيقك المصوّر في غرفة واحدة

قلت — وما الذي تخشينه منه ؟

فمسحت دمعة انحدرت على وجنتها وقالت — أخشى منه كل شيء . فهو فظٌّ ثقيل غليظ ، وقد اهانني مرة . .

قلت — ولكنه صالح القلب وغير شرير

قالت — قد يكون ذلك . ولكني أخشى كل حركة من حركاته وأرهب كل كلمة من كلامه . فهو اذا تكلم فكأن الرعد يقصف ، واذا مشى فكأن الفندق كله يهتزّ ويميد تحت قدميه

وشعرتُ لأول مرة في حياتي بالارتياح الشديد الى سماع انتقاد صديقي على هذا الوجه ، فقلت — واذا كنتُ وحدي في غرفتي فهل يمكنني أن أُعلّل النفس بزيارتكِ ؟

قالت — لا أحبّ اليَّ من ذلك ، فانتظرني غداً الساعة التاسعة صباحًا ، لأني غير مقيَّدة بعمل في منزل الأميرة نهار غدٍ كلَّهُ

ولما كان اليوم التالي اخذتُ احاول اقناع لبيب بأن يبرح الفندق ويخرج الى المدينة . فقال — ولِمَ كل هذا الالحاح الغريب؟

قلت — قرأتُ في جرائد أمس أن أحد زعماء الاشتراكيين سيخطب اليوم في النادي الاشتراكي العام في أحوال العمّال وسيكون الحفل عظيماً

قال — ولماذا لا تبادر أنت أيضاً الى حضور الاجتماع وسماع هذه الخطبة المهمة ؟

قلت — لأني . . . لأن عليَّ . . .

فضحك وقال — لأنك هجرتَ ابنَ رشد امس ، فأحببتَ أن تخلو بنفسك اليوم لتعوّض ما فات

قلت — ولـكن . . .

قال — دعنا من كل هذا وقل لي لماذا بكرتَ اليوم في نهوضك واجتهدتَ في ترتيب سريرك ومكتبتك خلافاً لعادتك ، وارتديتَ احسنَ ملابسك ؟ . . لا . لا تقل شيئاً . فأنا منصرف عنك الآن ، فافعل ما أنت فاعل

قال هذا وخرج وهو يضحك ويكثر من الاشارات . أما أنا فشعرتُ بسرور لا يوصف وجلست أنتظر قدوم الحبيبة

ولم يطلْ انتظاري . فانها جاءت مع عمتها . وكانت هذه كهلة مسنَّة درداء نحيفة الجسم قبيحة المنظر . وقد أثرت فيَّ تأثيراً سيئاً

١٦٩٤٦

ولمتُ في نفسي أنيسة لانها اصطحبت عمَّتها . ولكنني لم ألبث ان استصوبت رأيها وأثنيت على أدبها وحشمتها . ولعلها كانت تخشى أن تلقى لبيبًا في الغرفة فجاءت بعمتها لتدافع عنها . ومهما يكن الباعث على اصطحاب العمَّة فقد كان ذلك غاية الصواب

و بعد تبادل التحية والتعارف جلسنا الى مائدة صَفَفتُ عليها كل ما كان عندي من انواع الشراب واخذنا في الحديث والشرب، وكنتُ مضطرًّا الى مفاكهة عمة انيسة ومباسطتها قيامًا بواجب الضيافة واستجلابًا لارتياحها اليَّ ورضاها عني ، وقد نجحتُ في مهمَّتي لأنها سُرَّتْ كثيراً وشربتْ كثيراً حتى برقتْ عيناها ودبَّتْ الحياة فيهما

وعرضتُ على انيسة في اثناء الحديث أن أريها شيئًا من الصور الجميلة التي رسمها رفيقي لبيب ، فذُعرتْ كمن لدغته عقرب وقالت — لا . لا . . لا اريد ، لأني اكره هذا الرجل وأخشاه وأخشى صوَرَهُ ايضًا

فقالت العمَّة — الحق معها لأن لبيبًا لا يُحْتَمل ، وقد أهانها فلا تريد أن تراه او تسمع به

وقالت انيسة — وتراني بكل شوق أسمع ما تريد أن تحدثني

به أنت عن نفسك واعمالك . . وهات اخبرني اولاً عن الفلسفة التي قدمتَ الى الجامعة لتحصيلها

وما كادت تفرغ من كلامها حتى فُتحَ الباب بعنفٍ ووثب منه لبيب الى داخل الغرفة فجأة كأنهُ الزوبعة في سرعتها وهولها ، وقد وقف أمام أنيسة وقال لها — الفلسفة يا سيدتي هي أن يتجرَّد الانسان عن هذا العالم الجميل الذي يزينه أمثالُك ويتوغل في تيه الاسفار الضخمة التي وضعها ابن رشد وارسطو وأفلاطون وسقراط وابيلارُ وباكون وسبينوزا وكنْتْ وشوبنهاور و . . و . . وغيرهم من اصحاب هذه الأسماء الغريبة التي يُرْهبْ ذكرُها كلَّ نفس تحب أن تتمتع بلذات الحياة

سمعنا كلام لبيب ونحن في حالة الذهول الشديد . ونظرتُ الى أنيسة فرأيتها ترتجف وقد امتقع لونها . فقلتْ للبيب .

— ولكنك ذهبت لحضور اجتماع الاشتراكيين ، فلماذا عدتَ بهذه السرعة ؟

قال — عدتُ لاخبرك بأن تلاميذ أفلاطون ونيتون وكنتون . . . وسائر رفاقك في درس فلسفة ابن رشد وسقراط وأرسطو وأمثالهم قد عزموا على أن يذهبوا كلهم لحضور اجتماع الاشتراكيين ، وهم في انتظارك . . . فجئت لانوب عنك في استقبال ضيفتينا العزيزتين

وكانت أنيسة وعمتها قد نهضتا تريدان الانصراف ، وهما ترتعدان وتوجسان شرًّا . فأخذت أقنعهما بالبقآء ، وساعدني لبيب وهو يعتذر الى أنيسة عما مضى و يعدُها ان يظهر أمامها في المستقبل بمظهر ألطف عضو من أعضآء البرلمان . . . أما اذا أصرَّت على الخروج فانه يلقي بنفسه في الحال من نافذة الغرفة

قال هذا وأسرع الى إحدى نوافذ الغرفة يريد أن يفتحها . فصاحت أنيسة — لا . لا . . لا تفعل بنفسك هذا كله

وعادت فجلست ، وجاستْ عمتها . ولم يمضِ إلا وقت قصير حتى خضنا كلنا عباب الحديث . وقد جلس لبيب الى جانب انيسة وأخذ يقصُّ عليها نوادر غريبة مضحكة لم تكترث لها في بدءِ الامر ولكنها لم تلبث ان ارتاحتْ اليها وطفقتْ تضحك بملء فيها

وكانت عمتها قد جلستْ الى جانبي تحدثني وتسألني وقد ضايقتني بحديثها ، وأنا أظهر لها اللطف والاهتمام برضاتها ، وهي تزداد اقبالاً عليَّ ، حتى عيل صبري وضاق صدري ولعنتُ الساعة التي جاءت فيها لزيارتي . ومما زادني كمداً ان هذه الغولة قد توهمتْ انها أعجبتني بقدّها واعتدالها ، فأخذتْ تغازلني ، وهي تُظهر ولَهها بي ، وهيامها بي ، ولا ترفع نظرها عني

وكان لبيب بلا شك أسعد حالاً مني . وقد بدا لي من إقبال أنيسة عليه انه لم يبق في نظرها فظًا وقبيحًا . فأذهلني منها هذا الانقلاب ولم أصدّق عينيّ

ولما تناصف النهار قامت أنيسة وعمتها فودّعتانا ودَعتانا لزيارتهما مساءً ، وقد ضغطتْ العمةُ على يدي حين ودّعتني ضغطة شديدةً كدتُ أصيح منها ألمًا . وشعرتْ بعد انصرافهما بكراهتي للبيب ورغبتي في اعتزاله وحلّ عرى الصداقة التي بيننا . وهذه كانت المرة الأولى التي شعرتْ فيها بمثل ذلك ، بعد ان عشتُ ولبيبًا مدة طويلة متلازمَين لايصبر أحدنا على فراق الآخر . ولعلّ لبيبًا أيضًا شعر بمثل ما شعرتْ أنا ، فخرج وتركني في حيرة لا أدري ماذا أفعل

وكانت كُتُب الفلسفة مركومة أمامي بعضها فوق بعض ، فشعرتُ بانقباض شديد لدى وقوع نظري عليها وخيّل إليّ أن أنيسة انما أصبحت ترهبني وتؤثر لبيبًا بكل سماجته وغلاظته عليّ

لبثتُ في هذه الحالة بضع ساعات وقد ضاق صدري . فخرجت الى الحديقة لعلّي أُسَرّي بعض ما بي . وخطر لي آن أمرّ بغرفة أنيسة ، وكانت الغرفة موصدَة ، ولكني سمعتْ حديثًا فيها ، فأصغيتُ قليلاً سهواً على غير تعمُّدٍ ، فسمعتْ صوت لبيب ، وكان يتكلم و يضحك ، وأنيسة وعمتها تقهقهان طربًا وابتهاجاً . فطار صوابي ولم أشأ أن أدخل ،

لان نار الغيرة كانت تنهش صدري . وواصلتُ سيري وأنا على غير هدًى ، وقد خرجتُ من الفندق ولم أدخل الحديقة كما كنت عازمًا، وسرتُ في شوارع المدينة وأنا كالمأخوذ لا أعلم الى أين تقودني قدماي . ولم أعد الى الفندق الاَّ الساعة الحادية عشرة ليلاً ، فدخلتُ غرفتي وكانت خالية ، واستلقيتُ على سريري والنار تستعر في صدري ، لاني أيقنتُ أن لبيبًا لا يزال في غرفة أنيسة وعمتها ، ولعلهم لم يسألوا عني

وبقيتُ أتقلب في فراشي الى ما بعد منتصف الليل ، وقد عاد لبيب وهو يتهادى في مشيه، فرقد في سريره ولم يبال بي ، ولم أسأله أنا شيئًا . ولبثتُ أرقًا كأني على فراش من قتاد ، أسمع غطيط لبيب وأشعر بأحلامه اللذيذة الى الصباح

* * *

وعلمتُ في اليوم التالي أن لبيبًا قد أصبح خطيبًا لأنيسة . فرزمتُ كتبي وأوراقي وخرجتُ الى فندق آخر ، وأنا أردّد كلام أنيسة لي في وصف غلاظة لبيب وسماجته وخوفها منه ، ولا أستطيع أن أتصوَّر تحوُّلها مني اليه ... فعزمتُ على أن أقضي حياتي كلها عزَبًا ، أقفها على درس فلسفة الحب وغرائب الطبائع في بعض بنات حوَّاء ، وأضع في ذلك كتابًا أضمنهُ ما غفل عنه الفلاسفة المتقدمون والمتأخرون ...

الاهة الجمال



في احد ايام الصيف وقد اشتدَّ الحرُّ وجفَّ الهواء ولجأت الأطيار إلى وكناتها والناس الى منازلهم فراراً من وقدة القيظ — رنَّ في المسامع صوت عزف مطربٍ وغناء رخيم من الغابة

وكان في وسط تلك الغابة شجرة سنديان كبيرة وقد جلس على احد فروعها إلّه الحقول وأخذ نَايَهُ (شبَّابته) وجعل يُوْقع عليه ألحانه المطربة

وظلَّ يعزف ويغنّي وهو يزداد حماسةً ويزداد صوتُهُ جلاءً ، الى أن سمع حفيفًا ، فتوقف بغتةً عن الغناء ، وأرهف اذنيه ليعلم مَن القادم . وقد ظنَّ اوَّل وهلة ان ذلك الحفيف انما هو صوت مشي نعجة من النعاج السارحة في الغابة ، او دبيب حيَّة بين الهشيم . غير انه لم يلبث أن رأى أمامه إلاهة الجمال ، فذهل وجحظت عيناهُ واخذت منه الحيرة كلَّ مأخذ

وانتصبت امامه الإلاهة عارية الجسم ، وقد سدلت شعرها الذهبي الطويل على كتفيها ، وغطّت وجهها بيديها ، ثم وقفت مطرقة بلا حراك

فنظر اليها نظرة المعجب بجمالها ، ولكنه ذُعر لانه رآها حزينة ، فما ابطأ أن وثب اليها ورفع يديها عن وجهها ، فراعه جمالها الباهر ، وشاهد الدموع تنهلّ من عينيها المحمرّتين من شدّة البكاء فهاج بلباله وصاح بأعلى صوته — أقسم بالإلٰه زفس انكِ كنتِ تبكين ! فما هذا أيتها الإلاهة الجميلة ؟ وهل يليق البكاء بالآلهة ؟ فاتركي الدموع للناس ولا تبكي

فتنهّدت الإلاهة وقالت — سمعتُ صوت غنائك عن بعد فجئتُ لاشنّف اذنيّ بسماع ما يبدّد سحب الحزن من سماء فؤادي

وكان الإلٰه يسمع صوتها العذب ويرشف سلسال كلامها الرخيم ، وقد أحسّ بقشعريرة سَرَتْ في كل بدنه ، فتنهّد وهو شاخصٌ في ذلك الجمال الفتّان ، ثم قال — اني أُقسم بجوبيتر انكِ كاسفة البال ، ولا بُدّ ان يكون قد أحزنكِ إلٰه الحب أو أساءت اليكِ إلاهة الصيد .... قولي لي ايتها المفدّاة لأني مستعدٌّ أن أعمل ما يسرّكِ ويستأصل شأفة الحزن من نفسكِ

ثم طوّق خصرها وأجلسها على جذع شجرة كانت مطروحة على الارض وجلس عند قدميها

فقالت — لم يُسىء اليَّ احدٌ من الآلهة . . . وأرادت أن تواصل حديثها فخنقتها العبرات

فصاح الإله — كفكفي دموعكِ يا سيدة الجمال ، واذكري لي اسم الذي اجترأ على تكدير صفاء عيشكِ حتى أصعقه برعود السماء وأصُبَّ عليه قذائف الجحيم

فتنهَّدت الإلاهة ولم تُحِر جوابًا

فقال وقد بلغ الغيظ منه كل مبلغ — اذا كانت الآلهة لم تحزنكِ ولم تُثر شجونكِ ، فلم يبقَ الاّ الانسان . فاذا صحَّ ذلك ، فكيف استطاع هذا المخلوق الترابي ان يرفع نظره اليكِ ويجعل للحزن سبيلاً الى قلبكِ ؟

فقالت وهي تتنهَّد — إسمع فأحكي لك . خرجتُ في يوم شديد الهجير كهذا اليوم الى الغابة ألتمس جدولاً أغتسل فيه تخفيفًا لوطأة الحرّ . وفيما أنا سائرة رأيتُ فتًى نائمًا على الكلإ الاخضر الناعم . فدنوتُ منه وأخذتُ أتأمل فيه ، فاذا هو في ريعان الشباب ومنتهى الجمال ، فشعرتُ بارتياح الى الوقوف بازائه والتمتع

بمشاهدة محيَّاهُ الوسيم . ثم حانت مني التفاتة الى ما حوله ، فرأيتُ الى جانبه علبة صغيرة وحقيبـــة من جلد لحفظ الاوراق . وفيما أنا مشغولة بالتأمُّل فيه ، فتح عينيه ونظر اليَّ . فاختلج جسمي وخفق قلبي . وقبل ان أملك روعي جلس وقال لي بصوت لم أسمع ارقَّ منه : « أيتها الإلاهة الجميلة ! اني قد ضلتُ السبيل في هذه الغابة الكثيفة ، وأنا أبحث عن الجمال ، إلى أن كدتُ أموت جوعًا وعطشًا ، فأشفقي عليَّ واغيثيني بقليل من الماء أنضح به جوفي الملتهب . . »

وكان بالقرب مني غدير ماء ، فأسرعتُ اليه ولم ألبث أن عُدتُ الى الشاب وسقيتُهُ بيدي . ولما ارتوى ذهبتُ فقطفتُ لهُ بعض الاثمار الطيبـة ، فأكلها وهو يرنو اليَّ بعين المحبّ الولهان . ثم خاطبني قائلاً : « أسألكِ يا إلاهتي الجميـلة ان توليني نعمةً واحدة ، ولا أظنكِ تضنّين عليَّ بها »

وكنتُ حالما وقع بصري عليه قد تعلَّقتُ بهواه ، فأجبتهُ — قل ما بدا لك ، فأفعل لك ما تريد

قال — اسمحي لي ان أتملَّى مشاهدة جمالكِ الفتَّان ساعةً أو بعض الساعة كل يوم . واعلمي يا سيدتي اني من طُلاَّب الجمال والمجد ، وقد جُبْتُ الأمصار وطفتُ في الأقطار ناشداً ضالَّتي الى

أن رأيتكِ ، فان أنتِ سمحتِ لي بهذه النعمة كنتُ أسعد رجل على وجه الأرض

فلم أفهم كلامه ، ولكني أجبتهُ الى ما طلب ، وقد شعرتُ اني قد أُخذتُ بباهر جماله وأصبحتُ رهينة امره

فقال — قفي الآن قليلاً يا سيدتي على شاطىء هذا الغدير القريب ودعيني أنظر اليكِ وأتأمَّل في جمال قدّكِ ورائع حسنكِ

ثم رأيته قد أخرج ورقًا من حقيبتهِ وأخذ ينظر اليَّ من قمة رأسي الى أخمص قدميَّ ويرسم على الورق ، وأنا لا أعلم ما بُغيتهُ من كل ذلك

ولما فرغ من عمله قام فجمع اوراقه ودنا مني فرسم على يدي قبلةً حارَّة وانصرف لشأنه على أن يعود في اليوم التالي

وفي الوقت المضروب كنت واقفة في الغابة أنتظر قدومه وقد هاجني الشوق اليه . ولم ألبث أن رأيتهُ قادمًا وعلى وجهه ابتسامة الحب والسعادة . فتلقيتهُ بمزيد السرور ورجوتُ أن يجلس اليَّ فيطارحني حديث الغرام . غير انه سألني أن أقف مرة اخرى على شاطىء الغدير ، ففعلتُ . وأخذ هو أوراقه وأقلامه وجلس يرسم وينظر اليَّ ، وأنا أشعر لدى كل نظرة بنار الحب تزيد ضرامًا في

صدري . . . ولما فرغ من عمله دعاني وقال — انظري الى هذا الرسم يا ربة الجمال . فنظرتُ واذا صورتي بعينها وقد رسمها هذا الفتى بمهارة لا مزيد عليها . فدهشتُ لبراعته وعظم شأنُهُ في عينيَّ ووددتُ أن لا افارقه طرفة عين . أما هو فقال — ان هذا الرسم سيفتح لي طريق الشهرة والمجد ، وسأكون أشهر رسَّام على وجه البسيطة . ثم غادرني فغاب ، ولم أرهُ من ذلك الحين . وكنتُ أجيء كل يوم الى الغابة فأقضي الساعات الطوال في انتظاره وأنا آمُلُ أن تعود عليَّ الايام بما أتمنَّى ، الى أن عيل صبري وسئمتُ الحياة

فقال إلهُ الحقول — الآن علمتُ أن الناس يقدرون أن يقضوا الحياة مرتين وانهم بذلك يفوقوننا

فتنهدت الإلاهة وقالت — واعلم أيها الصديق أن هذا الحادث قد أثَّر في نفسي تأثيراً شديداً ، لأني تائقة الى هذا الحبيب بكل جوارحي ، واني افضّل أن أجتمع به وأنا لستُ إلاهة على أن أكون إلاهة بدونه ، لأن حبه قد شغل قلبي وأخذ بمجامع حواسّي ونغَّص حياتي وكدَّر صفاء راحتي ، فأصبحتُ ضعيفةً هزيلةً ، لا يلذُّ لي الا الحزن والبكاء ، وعدت لا أطيق صبراً على هذه الحال . ولما سمعتُ إنشادك الشجي أسرعتُ اليك على رجاء أن أُسرّي شيئًا من همومي واسكّن اضطراب قلبي ، فزادتني الذكرى ألمًا على ألم

فصاح إله الحقول — أيها الناس ! انكم حمقى وجهلاء ! لانكم تطلبون الجمال في الصناعة ، فلن تدركوا السعادة لانها والصناعة على طرفي نقيض . فلو التمستم الجمال الحقيقي المجرَّد من كل فنّ وصناعة لأدركتم السعادة الحقيقية ، ولكنكم جُهَّال وحماق

ولبث إله الحقول يزدري الناس وينعتهم بمثل هذه النعوت ويحمل عليهم بهذا العنف ، وهو ينظر الى وجه الإلاهة فيراه حزينًا مقطبًا . ولما فرغ من كلامه دنا اليها فطوَّقها بذراعه وقال — كفى الآن ! خلّي عنك الاهتمام بهذا الانسان الصعلوك ، ولا تذكريه بعد



ثم أخذها وأوغل بها في الغابة

الرسائل



كان وليم شابّاً كثير التأنق في ملابسه لا يعرف حدًّا للتبذير والاسراف . ولم يكن أحدٌ من أصدقائه ومعارفه يعلم الطرق التي كان يسلكها لكسب المال ، لانه لم يكن ذا حرفة يتعاطاها ولا صاحب ثروة يعتمد عليها . وكان يقطن منزلاً فخماً وله مركبة يجرُّها فَرَسان من جياد الخيل وعنده نَفَرٌ من الخدَم . وكان ينفق من سعة و يظهر بين الناس بمظهر اهل النعيم الوافر والجاه العريض . وقد حاول كثيرون من أصدقائه أن يطَّلعوا على سرّ ثروته ومورد رزقهِ ، فلم يفوزوا بطائل ، وظلَّت حياته لغزاً من الالغاز . الى أن كان ذات يوم جالساً في منزله يطالع ما جاءه به البريد من الجرائد والرسائل ، واذا به قد امتُقِعَ وانتفض انتفاضًا شديداً ، لأنه قرأ في إحدى تلك الرسائل الكلام التالي : « بعد غدٍ ينتهي أجل دينٍ عليك قدرهُ الف جنيه ولا بدَّ من دفعه على الفور لئلا تقام عليك الدعوى من صاحب الدين . وليس لك سبيل الى التأجيل . . . »

الف جنيه ! مبلغ كبير باهظ ! وليس في حوزته الآن شيء منه ! ولكنه مضطرٌّ ان يدفعه لئلا تناله يدُ القضآء و يفتضح أمره . .

جلس وليم وأخذ يضرب اخماساً لاسداس ، وقد أمعن في التأملات والافكار ، لعله يهتدي الى طريقة يتخلص بها من هذا المأزق . وقد عرضت له فيما مضى من السنين حوادث كثيرة من هذا النوع ، ولكن السعد خدمه فتلافاها كلها وخرج منتصراً على خصومه ومداينيه . أما الآن فلم يوفقه الحظ ولم يفتح عليه بشيء من تلك الوسائل . وكان يتوقع ورود هذا الطلب منذ أيام ، ولكنه كان يتناسى أمره و يترك الحكم فيه الى حينه ، وها قد جاءه الانذار الآن فأُسقط في يده ولم يبقَ له ما يتسلح به لدفع هذه الغائلة

وانه في هذه الافكار اذ دخل عليه خادمه فقال — في الباب سيدة تروم مواجهتك ياسيدي لأمرٍ ذي بال . فارتعش وليم كمن أفاق من حلم وقال لخادمه — سيدة تروم مواجهتي ؟ فمن هي ، وما اسمها ؟ قال — لا أعلم ، لانها مقنَّعة وقد أبت ان تذكر اسمها أو تعطيني بطاقتها . قال — دعها تدخل

وما كادت السيدة تجتاز باب الغرفة وترفع النقاب عن وجهها حتى صاح وليم مسروراً — ماري ؟ ماذا جرى ؟ وكيف ذكرتنا بعد كل هذه السنين الطوال ؟

وكانت الزائرة فتاة ممشوقة القدّ بارعة الحسن يتدفق ماء الجمال من وجهها الوسيم . فلما سمعت كلام وليم نظرت اليه بلطف وقالت برزانة — هكذا قضت الاحوال

وكان وليم يتفرّس فيها من رأسها الى أخمص قدميها فقال — أهلاً وسهلاً بكِ . . ويعلم الله اني كدتُ أوقن انكِ نسيتِني الى الابد . . فعسى قدومُكِ ان يكون الآن لخير

قالت — هو لخير ان شاءَ الله

ثم نزعت قفّازَيها من يديها ،فرأى وليم في إحدى أصابعها خاتماً جميلاً ، فلم يشك في أنها مخطوبة ، فأبرقت أسرّتهُ وقال — ولقد ذكرتكِ منذ يومين ولم يكن لديَّ ما أسلو به عنكِ الاَّ رسائلكِ اللطيفة ، فراجعتها وكرّرتُ تلاوتها بما لا مزيد عليه من الارتياح والغبطة

قالت — وأنا لأجل هذه الرسائل انما جئتُ اليك الآن وأرجو أن لا أعود خائبة

فازداد وليم استبشاراً وقال وهو يتنهد تنهُّد المتيم الولهان — انها بالحقيقة درٌّ يتيمة ، وأنا أوثر ان أفقد حياتي على أن أفقد واحدةً منها ، لأنها موضوع تسليتي وذكرى سعادتي

قالت — ولكنها كُتبت منذ سبع سنوات

قال — ومع هذا فهي عزيزة جدًّا لديَّ وأنا أفتخر بها و بكِ على جميع أقراني ، لانها السحر الحلال ، كما أنكِ زينة ربّات الحجال وملكات الحسن والجمال

فانقبضت ماري من هذا الكلام وقالت — ولكني كتبتُها وأنا صغيرة السن طائشة الحلم ، وليست تلك الاوقات في نظري الاَّ حلمًا عبر

قال — لتكن كذلك في نظركِ ، أما أنا فلا أحسبها الاّ أحسن أيام حياتي

قالت — ولكني الآن . . .

قال — لعلكِ تريدين أن تقولي انكِ مخطوبة

قالت — نعم

قال — فانا اذاً أهنئكِ وأرجو أن تكوني سعيدة

قالت — نعم ، فأنا سعيدة بخطيبي

قال — وأنا أحسده وأسألكِ أن تعرّفيني باسمه

قالت — انك ستعرفه . . ولكني أرجو الآن أن تعيد إليَّ رسائلي

وكان وليم يتوقّع ان يسمع هذه الكلمات ، فتبسم وقال — وأنا أرجو ان تذكري لي اسم خطيبكِ العزيز

قالت — رسائلي ! أرجو أن تردَّ إليّ رسائلي

قال — اسم خطيبكِ ! أريد أن أعرف مَن هو

فتنهدت ماري وجالت دمعة في مآقيها ، فمسحتها بطرف منديلها وقالت — اني أسألك باسم المروءة ان تعطيني رسائلي

قال — عجبًا يا ماري ! وكيف لم أركِ هذه المدَّة كلها ؟ فأين كنتِ ؟

قالت — كنتُ في سياحة مع عمتي في بعض جهات سويسرا ولم أعد الاَّ أمس

قال — فانا سعيد اذاً لانكِ زرتِني قبل كل معارفكِ

قالت — وهمتَ يا سيدي ، فقد زُرتُ غيرك قبلك .. ولكن ما لنا ولهذا . أعطِني رسائلي

قال — عفواً يا سيدتي ، فليس لكِ حق في طلبها لانها الآن لي وليست لكِ

قالت — حسنٌ .. ولكن لا تنسَ اني كتبتها وأنا بنت صغيرة حمقآء .. فأيةُ فائدة لك منها الآن ؟

فقهقه وليم ضاحكاً وقال — ان فائدتي منها اكبر جدًّا مما تتصوَّرين

قالت — فاذاً أنتَ تأبى ان تعيد إليَّ رسائلي !

قال — وأنتِ اذاً لا تريدين ان تذكري لي اسم خطيبكِ

قالت — ان اسمه لا يفيدك شيئًا

قال — بل يفيدني كثيراً

قالت — ولكني لا أدري ماذا تريد من ذلك

قال — انكِ تطلبين رسائل غرامية كتبتِها إليَّ لانكِ مخطوبة الآن ، وتخشين ان يطَّلع خطيبكِ عليها ، فيتكدّر صفاء عيشكما ، وربما آل الامر الى فسخ عقد الخطبة بينكما . ولذلك جئتِ تطلبين الرسائل بما لا مزيد عليه من الالحاح لتتخلصي مما يمكن أن يصيبكِ من المحَن بسببها . وقد قلتِ انكِ كتبتِها في عهد الحداثة . . واما أنا فأقول لكِ انها وان كانت كذلك فثمنها غالٍ جدًّا

قالت — انت اذاً تطلب مالاً !

قال — نعم . وهي مهنتي التي أعيش منهـا ، ولولاها لكنتُ الآن في أحطّ دركات المذلة والفقر

قالت — وكم تطلب ثمنها ؟

قال — الفًا وخمسمئة جنيه فقط

فأجفلت ماري وقالت — انه ثمنٌ باهظ جدًّا

قال — ولـكنكِ لا تثمنين مستقبلكِ السعيد بأقلّ منه

قالت — واذا لم يكن في طاقتي ان أدفع اليك مثل هذا المبلغ ، فماذا يكون حينئذٍ ؟

قال — حينئذٍ تُسَلَّم هذه الرسائل الى خطيبكِ

قالت — ولـكنك لا تعلم مَن هو

قال — لا يصعب عليَّ ان أعرفه

قالت — ولـكني لا أصدّق أنك تُقْدِم على مثل هذه الدناءة.. فأنا أذكر لك اسم خطيبي ولا أرتاب في كمال آدابك وحسن خلالك، فاسمه « الاخطل الصغير »

قال — اني أشكر لكِ يا سيدتي ثقتك بي ، وآسف على أنها لم تصادف محلها . وكذلك أشكركِ لانكِ بذكرك اسم خطيبك قد مهدتِ أمامي السبيل اليـه دون تحمُّل أقلّ عناء أو نفقة . وأهنئكِ لان خطيبكِ من الكتبة المشهورين في البلاد ، اذ ما من أحد يجهل اسم « الاخطل الصغير » وقد سارت بذكره الركبان وأصبح موضوع الاعجاب عند قرّاء الصحف والروايات . وبما أنه في هذه الدرجة الرفيعة من الشهرة ، فهو اذاً من الاغنياء الكبار . . لان كاتبًا مثـله له هذه الشهرة المستطيرة في الفن الادبي الروائي يتدفق عليه المال كالسيل من أرباب الصحف وأصحاب المطابع والمكاتب . . . فاذا

لم يكن في وسعكِ أنتِ ان تدفعي المبلغ المطلوب فهو يدفعه بطيبة خاطر

فاضطربت ماري وصعد الدم الى وجهها وقالت — ولكني أعود فأسألك باسم المروءة ، أن لا تعكر كأس صفائي ، ولا تلقي بي الى مثل هذه التهلكة . . . خلِّ عنك المزح واعطني رسائلي

قال — لستُ مازحًا في شيء . . وهذا المبلغ أقل ما يُنْتَظَر من مثل الاخطل الصغير

قالت — يالك من دنيء سافل ولئيم محتال ! !

قال — قد اكون كذلك اذا لم أعرف كيف أنتفع من مثل هذه الفرصة السانحة

قالت — ولكنك تجرّد سلاحك على فتاة ضعيفة لا حول لها على الوقوف في وجهك

قال — ولكنها تستطيع ان تكمّ فمي بألف وخمسمئة جنيه ، وهي لا تُذكر اذا قوبلت بالسعادة التي تنتظرها متى صارت الى الاخطل الصغير

قالت — وكيف تريد أن أنقدك مثل هذا المبلغ وليس في حوزة يدي شيء منه ؟

قال — هذا لا يعنيني . . ولا شيء يحوّلني عن عزمي الا اذا نلتُ المطلوب

قال هذا وضغط زرًّا كهربائيًّا فأقبل الخادم فقال له — سلْ بالتليفون عن اسم صاحب المكتبة الذي طبع آخر روايات الاخطل الصغير

ولما خرج الخادم عمد وليم الى مائدة ففتح فيها درجًا وأخرج منه رزمة ملفوفةً مكتوبًا عليها اسم ماري . . فأراها اياها من بعيد وقال — هذه رسائلكِ . ففي هذه الرزمة احدى وأربعون رسالة . . ولعلها تكون موضوعًا مهمًّا لرواية جديدة يؤلفها خطيبكِ الكريم

فاتقدت عينا ماري بنار الغضب وقالت — إفعل ما أنت فاعل أيها النذل فلم تبق لي رغبةٌ في السعادة اذا كانت الارض تحمل أمثالك

ثم نهضت تريد الخروج ،فقال لها وليم — رويدكِ يا سيدتي فانتظري ريثما يعود خادمي من مهمته . . اناكِ لا تستطيعين أن تخرجي من هنا قبل نصف ساعة لئلاَّ تهدمي ما بنيتُ . وقد أشرتُ الى الخادم ان يقفل الباب بالمفتاح ، فلا تخشي سوءًا

فزفرت ماري زفرةً حارَّة وجلست وقد أطرقت الى الارض ولم يلبث الخادم أن عاد وبيده العنوان المطلوب فأخذه وليم

ثم لفَّ رزمة الرسائل وعنونها باسم صاحب المكتبة وكتب عليها انها « أوراق مهمة جدًّا ويجب ان تسلم حالاً الى الاخطل الصغير يداً بيد » وأمر الخادم ان يأخذها الى ادارة البريد

وفعل الخادم ما أمره سيده . وكانت ماري لاتزال جالسةً مشرَّدة الافكار منقبضة النفس . . ولما انقضت نصف الساعة قام وليم ففتح الباب وقال لها — تستطيعين الآن أن تذهبي بالسلامة أيتها الآنسة اللطيفة ، فقد قُضي الأمر ولا لوم عليَّ ولا تثريب

فقالت — أنا لا ألوم أمثالك ولكني نادمة على التعرُّف بك أيها الوغد الساقط . وحقًّا انك لستَ من البشر بل من العقارب والافاعي

ثم خرجت لا تلوي على شيء . . ولما فصلت عن المنزل تنفَّست كمن سُرّي عنه وسارت في طريقها الى فندق مشهور كانت تختلف اليه . وفي طريقها ولجت ادارة التليفون ، ولم تلبث أن خرجت والسرور يطفح على محيَّاها

* * *

كان في ردهة الجلوس في الفندق الذي قصدته ماري جمهور من الرجال والسيدات من أُسَر مختلفة واما كن شتى واكثرهم من أهل اليسار والوجاهة والأدب . وما كادت تظهر في باب الردهة حتى اشرأبَّت اليها الأعناق ، وقام من بين الجمع شابٌّ جميل الوجه

عليه سيماء الثروة والنبل ، فدنا منها وقبَّل يدها ، وعاد فدخل بها بين الجمهور

فقال أحد الجلوس لسيدة كانت الى جانبه – هذا هو «الأخطل الصغير » الكاتب الاجتماعي الشهير

فأجابت السيدة — كلاَّ بل هو الكونت راعول . .

فقال الرجل – نعم ان الشابَّ هو الكونت راعول . . ولكني اريد بكلامي رفيقتَهُ أو خطيبتَهُ ماري التي قبَّل يدها ، فهي كاتبة من الطبقة الاولى ولكنها مشهورة باسم « الاخطل الصغير » ولا تكتب الاَّ متنكّرةً بهذا الاسم المستعار

فدهشت السيدة وقالت — لقد قرأتُ كثيراً من كتابات هذه الفتاة البارعة فهل هي « الاخطل الصغير » بنفسه ؟

قال — هي هي بعينها . وبعد اسبوعين موعد زفافها الى الكونت راعول . . وهي كاتبة بارعة لا يُشَقُّ لها غبار ، فيحق للنسآء أن يفتخرنَ بها على الرجال

قالت — وأنا أعرف خطيبها جيداً ، فهو من الأُسَر العريقة في الحسب والغنيَّة بالمال ، وهو اذاً يليق بها كما انها تليق به

* * *

وبعد اسبوعين زُفَّت ماري الى الكونت راعول . . في احتفال شائِق ، وقضيا معًا حياة سعيدة لم يشب صفاءها كدر ما

الصدى



حدث ما يأتي في سيراقوسه

وكانت سيراقوسه عاصمة جزيرة صقليـــة (سيسيليا) وهي مدينة قديمة مصَّرها اناس رحلوا اليها من كورنثوس سنة ٧٣٤ ق . م . وعند وقوع الحادثة التالية كان على الجزيرة ملك يقال له ديونيسيوس ، وهو طاغية شديد الوطأة سفَّاك للدماء لم تأخذه في أحد رحمة ولا شفقة

وفي ايامه نشبت حرب بين السيراقوسيين والأثينيين . وحاصر الأثينيون مدينة سيراقوسه سنةً كاملة ،وفي آخر الامر قُتل قائدهم ، ففشـــلوا وتضعضعت قواهم ولاذوا بالفرار . فتتبَّعهم السيراقوسيون وقتلوا منهم خلقًا كثيراً وأسروا سبعة آلاف جندي ، عادوا بهم وهتافهم يملأ الفضآء وأقاموا في المدينـــة معالم الزينة وقضوا أيامًا بعد ذلك في الملاهي والمسرات

وكان الملك ديونيسيوس اكثر الناس افتخاراً واستبشاراً بهذا

الانتصار ، وقد اشتدَّ ساعده وقويت شوكته وزادت هيبتـه في قلوب رعيته . ولبث مدة يقيم لاكابر دولته الولائم والملاهي والالعاب حتى أنسـاهم جوره وعسفه وأطلق السنتهم بالدعآء له والثنآء عليه

اما الاسرى فأحبَّ ديونيسيوس ارواءَ لغليل انتقامه ان يُنزل بهم عقابًا لم يسمع به احد منذ تكوين العالم. وكان في سيراقوسه دياميس [1] هائلة تحت الارض على عمق مئة وخمسين قدمًا ، تحدق بها من كل جهة صخور شاهقة منيعة . فطرحوا جميع اسرى اليونان في هذه الدياميس ليموتوا فيها بعد ما يعانون اشد انواع العذاب جوعًا ويأسًا وجنونًا . ثم امر الملك فسدَّت منافذ الدياميس بالحجارة الضخمة وبات الاسرى في ظلام دامس وقد دُفنوا احياءً في بطن الارض ولا امل لاحد منهم بالنجاة او الحياة

وكان ديونيسيوس قد اكتشف في سطح بعض الصخور الهائلة شقًّا يؤدي الى اعمق حفرة في تلك الدياميس ، فكان يأتي كل يوم فيجلس قرب هذا الشق ويمتع سمعه بصدى انين الاسرى واصوات عويلهم ونحيبهم ، ويعود بعـد ذلك الى قصره وقلبـه طافح بالمسرة والهنآء

وفي احد الايام أولم هذا الطاغية وليمة فاخرة في قصره لرجال

---

(١) جمع دياس وهو الهوَّة العميقة

مملكته، وجلس بينهم يشاركهم في الشراب واللهو، وقامت الراقصات والعازفات بآلات الموسيقى والمغنيات يطربن الحضور بالرقص الفتّان وأطايب الانغام والألحان . وفيما الملك جالس يمتع نفسه بهذه اللذات رأى ديونيسيوس فتاةً رائعة الجمال كانت ترقص فتحيّر الابصار وتنفخ في الناي فتخلب الالباب ، فاستدعاها ونظر اليها باشًّا وقال — من أنتِ ، وما اسمكِ أيتها الفتّانة ؟

فأطرقت الفتاة وقد صبغ الاحمرار وجنتيها وقالت بصوت يرتعش — اسمي مليتا أيها الملك

قال — ومن علمكِ أن تنفخي في الناي بمثل هذه المهارة العجيبة ، وتنشدي هذه الانغام الساحرة ؟

قالت — النجوم . . . النجوم يا سيدي قد علمتني ذلك

فبهت ديونيسيوس وقال — النجوم ؟ وكيف ذلك أيتها الجميلة بين العذارى ؟

فقالت وقد انتعشت نفسها وزال اضطرابها — اعتدتُ يا سيدي الملك أن أخرج كل مساء الى الحقول والرياض لاشاهد توقُّد النجوم الزُّهر في القبة الزرقاء ، فأمتع بصري برؤيتها ونفسي بمناجاتها . وما زلتُ كذلك الى أن أوحت إليَّ بأسرارها وكاشفتني بأنغامها وألحانها.

فما تسمعه مني الآن من الاغاني الشجية والالحان المطربة انما هو صدى ما أفضت به إليَّ تلك النجوم اللوامع

فدهش الملك وزاد اعجابًا بالفتاة وارتياحًا اليها ، ثم قال -- انكِ قد نلتِ حظوةً في عينيَّ · فتعلَّمي أيتها المليحة ما شئتِ من علوم النجوم وأنغامها ، واذا كنتِ في حاجة الى شيء فاعلمي ان ديونيسيوس مستعد ان ينيلكِ ما تبغين

فعادت الفتاة الى رفيقاتها وهي تختال طربًا وامتلأ المكان في الحال بضجيج الاستحسان والهتاف واستؤنف الرقص والعزف الى الصباح



وبعد أيام خرجت مليتا من منزلها تطوف على عادتها في الحقول والرياض ، وكانت الليلة قمراء وقد سطع البدر وتلألأت النجوم في القبة الزرقاء ، فوقفت على ضفاف نهر انابوس الجميل تسمع خرير مائه في سكون ذلك الليل ، وقد هبَّ على وجهها النسيم اللطيف فأنعش نفسها وجدَّد قواها ، فطاب لها التطواف فسارت في طريق الملهى البلدي ، ولم تشعر الا وقدقادتها قدماها الى الصخور الهائلة القائمة عند مدخل الديناميس ، فاتخذت لها مجلسًا على صخر

هناك ، وأخذت نايها وجعلت تنفخ فيه وتنشد أنغامًا شجية تتصاعد الى الجو وتنتشر في الأفق فتملأه عذوبةً

وانها لكذلك اذا بها قد استوقفها سماع صوت ضعيف صادر من بين تلك الصخور يقول — شفقةً ورحمة أيها النافخ في الناي !

فذعرت مليتا وقد اعترتها الدهشة ، فتركت الغناء وأخذت تجيل بصرها في ما حولها لتعلم جهة الصوت ، واذا به قد عاد الى الاستغاثة ثانيةً ، وهو يقول — أشْفِق عليَّ أيها الجالس عند مدخل الديناميس وارثِ لحالي فاني اكاد أموت ألمًا في جوف هذه الارض

فعلمت مليتا ان الصوت الذي تسمعه خارج من احد تلك الديناميس وحارت في أمرها وشعرت بأشدّ عواطف الشفقة تدفعها الى البحث عن مصدر الصوت بين تلك الصخور الضخمة ، ولم تلبث ان اهتدت الى شقٍّ هناك استجلت منه كلام المستغيث ، فوقفت عند حافتهِ وقالت — من أنتَ يا هذا وما الذي تريده مني ؟

فقال صاحب الصوت — أنا أثينوي ، واسمي افتيل ، ولا أزال في زهرة شبابي لأني في الربيع الثامن عشر من عمري ، فأريد الحياة ، أريد أن أخرج من جوف هذه الارض لأعود فأرى نور الشمس .. وقد قضيتُ في هذا المدفن خمسة أيام بلياليها أقتات بالاعشاب

والجذوع حتى خارت قواي وأصبح الموت يتهدَّدني في كل ثانية . . فأشفق عليَّ . ان الآلهة قد حبتك الكمال في الفن وهي لا تمنح مواهبها الا ذوي النفوس الشريفة والقلوب الرقيقة . . قل لي مَن أنتَ، وهل في استطاعتك أن تغيثني ؟

فقالت مليتا — أنا فتاة ضعيفة فكيف يمكنني أن أنقذك مما أنت فيه ؟

قال — حبلاً ، أيتها الحسناء !

قالت — حبلاً ؟ ومن أين لي الحبل في هذا القفر ! وهبني وجدتهُ ، فكيف استطيع ان أنتشلك من هذه الهوة العميقة ؟

فزفر الشاب زفرة اليأس وقال بصوت يذيب الجماد — اذاً قد قُضي الامر وأنا هالك لا محالة ! . . وهذا الصوت الجميل الذي سمعته وأحيا فيَّ الرجاء سيكون آخر صوت حي أسمعه ، بل هو صوت الرثاء الذي تندبني به الحياة وتختم به قبري

فشعرت مليتا بحزنٍ يمزق صدرها عندما سمعت هذا الكلام . وعلى الفور خطر لها خاطر أشرق له وجهها فقالت — لا تستسلم لليأس أيها الاثينوي الغريب ، فاني سأنقذك مما أنت فيه . . وستسمع غداً صوتي ثانية فتعود الى الحياة

قال — لتكن الآلهة عونًا لكِ أيتها الحسناء !

* * *

وفي صباح اليوم التـالي جاءت مليتا فمثلت امام ديونيسيوس ، خُسُرَّ لقدومها عليه وسألهـا حاجتها . فقالت — جئتُ يا مولاي أنشدك ما تعلمتُهُ أمس من النجوم

ثم أخذت نايهـا وجعلت تنشد بصوتهـا الرائق ألحانًا أسالت دموع الملك تأثراً . فقال لها — وعدتك أن أقضي لكِ كل ما أنت راغبة فيه ، فهل في نفسكِ حاجة ترومين قضاءها ؟

قالت — نعم يا سيدي

قال — وما هي ؟

فارتمت على قدمي الملك وقالت — أسألك يا مولاي الرحمة والشفقة ! . . أسألك أن تهب الحياة لمن لا يزال حيًّا في الديماميس من أسرى اليونان ، ولا أظنك الا ملبيًا سؤلي !

فبهت الملك وقال — وهل هذا كل ما أنتِ راغبة فيه أيتها الحسناء ؟ كنتُ أظن انك ستطلبين ما تتوق اليه نفس أمثالكِ من الجواهر الكريمة والحلل الفاخرة ونفائس الزينة الجميلة !

قالت — حسبي اذا أنت قضيت لي هذه الحاجة ، فهي عندي أجمل زينة تزدان بها نفسي

قال — بورك فيكِ أيتها الحسناء الشريفة ، لأنكِ استطعتِ بعذوبة صوتكِ ورقة نفسكِ ان تستولي على قيادي وتتصرفي في كما تشائين . . فأنا أهب لكِ كل من لايزال حياً من أولئك الاسرى ، ليعلم جميع سكان الارض مقام الفنون الجميلة في سيراقوسه . . .

وفي الحال أمر فدُحرجت الصخور عن مدخل الديناميس ، وانتشل مئة رجل أثينوي كانوا لا يزالون أحياءً ، وقد جثوا كانهم أمام مليتا يشكرون لها فضلها ومعروفها بكلمات تخنقها العبرات الحارّة. ولم يلبثوا ان تركوا سيراقوسه وعادوا الى أوطانهم يذيعون فضل من أحسنت اليهم بالحياة

ولم يبقَ منهم في سيراقوسه الا افتيل ، وكان من أجمل شبان عصره وأرغبهم في الفنون الجميلة ، وقد تعلم منذ حداثة سنه صناعة النقش والنحت ، فأقام في منزل مليتا واقفاً حياته على خدمتها وعبادتها . ولم يلبث ان أصبح أمهر نحّات في سيراقوسه ، وكانت التماثيل التي يصنعها موضوع اعجاب الأهلين عموماً . وكان اكثرها اتقاناً وجمالاً تمثال من المرمر النقي مثّل به مليتا الجميلة جالسة على صخر عند مدخل الديناميس والناي في يدها

وكانت مليتا لا تجد سروراً ولا هناءً الا بجانب افتيل ، وقد شغفها حبه . ثم اشتدّ هيام كلٍّ من الحبيبين بالآخر ، فاقترنا وعاشا في رغدٍ ورفاء وسرورٍ وصفاء

الحديث ذو شجون



تناول السيد شمس الدين النحاس طعام الغداء في فندق فخم في المدينة، وركب القطار قاصداً مدينة أخرى لبعض الشؤون. ولم يكن في مركبة الدرجة الاولى التي دخل اليها الاَّ رجل واحد تدل هيئتهُ على انهُ في الخامسة والخمسين من العمر. فحيَّاه النحاس، وجلس تجاهه. ثم أخذ لفافة فأشعلها وراح ينفخ الدخان من فيه وهو ينظر تارة إلى الرجل وطوراً إلى المحطة التي كان القطار يبتعد عنها شيئًا فشيئًا. ثم عاد فالتفت إلى جليسه وقال — اعتاد المرحوم والدي أن يستلقي على ظهره كل يوم بعد طعام الظهر، فتأتي إحدى جواريه فتحكّ له قدميه. وقد اقتبستُ أنا هذه العادة عنه ولكني لا أحكّ

قدميَّ بل لساني ودماغي . . . ولما كانت المسافة امامنا طويلة ، وقد امتلأت معدتي كما امتلأت معدتك من الطعام على أنواعه ، وربما شربتَ شيئًا من الخمور المعتَّقة كما فعلتُ أنا ، فأرجو أن لا يكون جهلُ كلٍّ منا للآخر حائلاً دون خوض عباب الحديث ، فأحملك وتحملني ، ونقطع هذه المسافة بلا سآمة وبلا ضجر . فهل من جهتك ما يمنع ذلك ؟

فابتسم الرجل وقال — وهذا لسان حالي . لأن في الحديث تفكهة للالباب وتسلية للخواطر

قال — ولا أكتمك أن للطعام الجيد أفضل منبّه لدماغي ولساني ، وأحسن تأثير في مخيلتي . فاذا رأيتُ شيئًا أو حركة أو سمعتُ صوتًا أو نغماً فلا تلبث أفكاري أن تطوف به تدرس دقائقه وتستجلي حقائقه وتعلّق عليه ما شاءت المخيلة . . . وقد رأيتُ الآن ، كما رأيتَ أنت ، فَتَيين من فتيان هذا العصر وقد بادر احدهما إلى الآخر يهنئهُ بالشهرة التي أصابها وبالنجاح الذي أدركه . ولا شك أنهما من رجال التمثيل أو من الأدباء المبتدئين . . غير أن النكتة ليست هنا ، ولا هذا الذي شغلني من أمرهما . وانما الذي همَّني وكان موضوع تأملي هو هذه الشهرة التي يسعى وراءها البشر بكل ما أوتوا من العزم والقوة ، ويبذلون في سبيلها الأرواح والمهج . وأنت لو

سألتَ كلاًّ منهم أن يعطيك تعريفًا للشهرة كما يفهمها هو لسمعتَ تعريفات وحدوداً كثيرة متباينة كل التباين ، وقد تضحك من كلامهم وهذرهم ضحكاً عاليًا . ويحضرني الآن ما قاله في تعريف الشهرة أحد أدبائنا الكبار ، فقد قال — « ما الشهرة إلا رقعة زاهية في ثوب عتيق » وقال غيره غير ذلك من التعريفات التي لا ينطبق شيءٌ منها على الحقيقة

قال — ولكن ماذا يهمك أنت من كل هذا ؟

قال — ان ذلك يهمني ويهمك ويهم كل انسان . لأننا متى عرفنا ما هي الشهرة ، اجتهدنا أن نبحث عن السبل التي تؤدي اليها . وقد كنتُ من طلاَّب هذه الشهرة فيما مضى من حياتي ، يوم كنتُ في شرخ الشباب وقد شُغفتُ بها وكنتُ لا أعملُ شيئًا إلاَّ لأجلها ، ولم أتعلَّم إلا رغبة فيها ، وطالما أحييتُ الليالي سهراً وحرمت نفسي الأكل والراحة في سبيلها . وكانت الاسباب متوافرة لديَّ ولكني لم أنل ما كنتُ أصبو اليه . . ولا أكتمك أني مهندس ، وقد بنيتُ عشرات من البيوت الجميلة ، وعشرات من الجسور المشهورة في هذه البلاد وفي غيرها . وكتبتُ عدة مقالات وكتب صغيرة في الهندسة ، وكنتُ ميَّالاً الى الكيمياء ولي فيها بعض اكتشافات جديرة بالاهتمام . ودخلتُ في خدمة الحكومة واصبتُ حظوى في

عيون كبار الحكام ونلتُ الأوسمة والرتب ، — إلى أن طعنتُ في السن وأصبحَتْ أيامي الباقية معدودةً ، والشهرة التي كنتُ أجدّ في أثرها لم أُصب منها إلاَّ قدر ما أصابه ذلك الكلبُ الاسود الذي نراه من هذه النافذة يجري امامنا بجانب الطريق

قال — ولكن كيف عرفتَ انك لم تنل شهرة بكل ذلك ؟

قال — لا أسهل من امتحان الامر . . فهل عرفت رجلاً يدعى شمس الدين النحاس ؟

فأطرق الرجل هنيهةً ثم قال — لا . لم أسمع بهذا الاسم

قال — هو اسمي . . انك يا سيدي من أهل الطبقة الراقية من الامة ، وقد وخط الشيب رأسك ، ومع ذلك لم تسمع باسمي . فالظاهر اني في سعيي ورآء الشهرة لم أسلك السبل الحقيقية التي تؤدّي اليها

قال — وما هي هذه السبل في نظرك الآن ؟

قال — لا أدري والله ما أقول . . وقد يخطر في بالك انها الموهبة ، والعقل ، والذكاء ، والبراعة ، واغتنام الفرص ، واللطف في المعاشرة ، وذلاقة اللسان ، وحسن الهندام ، وارتياد أماكن اللهو ، والنزول في أفخم الفنادق . . لا هذا ولا ذاك ، ولا شيء من

كل ذلك . . وقد اشتغل معي كثيرون من الرصفآء ولم يكونوا ذوي حنكة وذكآء وعلم . . اشتغلوا قليلاً وساروا بطيئاً ولم يطلبوا شيئاً من الشهرة ولم يمتازوا بشيء من المواهب . . . ولكني لم البث أن رأيتهم قد أدركوا شأواً بعيداً من الشهرة ، وبلغ بعضهم قمة المجد ، ونشرت الصحف أسماءهم ورسومهم وتراجمهم ، وعزت اليهم الاعمال المجيدة ، ولقبتهم بالالقاب الضخمة ، وأصبحوا موضوع الحديث والاعجاب في المجالس والاندية . . واسمعْ أحدّثك على سبيل المثال بشيء جرى لي فعلاً . فقد بنيتُ من بضع سنوات جسراً كبيراً في المدينة التي ترآني مسافراً اليها الآن ، وقد تولاني فيها في اثنآء العمل ضجر شديد كدتُ أفقد معه عقلي لولا النسآء وورق اللعب . إلى أن تعرّفتُ أخيراً بغانية كانت مغنيّة في بعض المسارح وليس لها من المواهب الاّ رخامة الصوت والتفنّن في الرقص المبتذل ، وكانت جاهلة حمقآء شديدة الطمع إلى ما لا حدّ له ، فكانت تأكل كأربعة وتشرب كستة وتنام النهار كلّه . ولكنّ الناس قد أحبوها لجمال وجهها وعذوبة غنائها وأثوابها القصيرة الشفّافة وحركات يديها ورجليها في الرقص وهي في تلك الاثواب . . وقد دعاها الناس ممثّلة ، ونعتوها بالأديبة ونسبوا اليها الفن ، — وهي ليست على شيء من كل هذا . . تعرفتُ بهذه الغانية ، ثم توثّقت العلاقة بيني وبينها إلى أن أصبحت رفيقتي وخليلتي وهي لا تزال

تذهب كل مساء إلى المسرح للرقص والغناء . . ولما فرغتُ من بناء الجسر أعلنت الحكومة عزمها على الاحتفال به وأقامت لذلك حفلة شائقة دعت اليها عظماء البلاد وأعيانها . فتُليت الخطب وأُنشدت القصائد وتبودلت رسائل التهنئة بالبرق . . وكنتُ أنا واقفًا بين الجمهور مطرقًا خجلاً واستحياءً ، لاني ظننتُ أن الناس كلهم ينظرون إليَّ ويشيرون بأيديهم ويذكرون اسمي بالإطراء والتعظيم . . غير أن الامر لم يكن كما توهمت ، ولم يكن يعرفني في تلك الحفلة إلاَّ بعض رجال الحكومة ، فلم ينتبه إليَّ أحدٌ من الحضور ، بل كانوا كلهم ينظرون إلى الجسر ويعجبون بجماله ومتانتهِ دون أن يخطر ببال أحدٍ منهم أن يعرف اسم المهندس الذي شاده أو يبحث عنه بين ذلك الجمهور . . . وكان الحنق قد أخذ مني كل مأخذ ولكني كظمتُ الغيظ ولبثتُ في مكاني وقد كرهتُ الفن وأبغضتُ الناس ووددتُ لو أتيح لي أن أهجر المدن وأقضي بقية حياتي في القفار . . . وبينا أنا لاهٍ بمثل ذلك شعرتُ بحركة في الجمهور ، فنظرت واذا جميع الواقفين قد تحولت أبصارهم إلى جهة واحدة والسرور يهزُّهم هزًّا . فنظرتُ أنا أيضًا فرأيتُ رفيقتي المغنية جاءت تخترق الجماهير وفي أثرها شرذمة من الفتيان المولعين بها . وما كنتَ تسمع وقتئذٍ إلا اسمها على الافواه والاثناء عليها من كل فج . وقد سمعتُ باذني رجلاً يهمس في اذن رفيق له كان

إلى جانبه وقد أشار إليَّ — « يقولون ان هذا الرجل هو رفيقها ، وانهُ ينفق عليها بلا حساب » . ثم دنا مني رجل آخر وقال « هل تدري من هذه الحسناء ؟ انها شمس المسارح وجمال الفن » فقلت له « وأنتَ هل تدري مَن بنى هذا الجسر ؟ » . فهزَّ كتفيه وقال « لا أدري ولعله أحد المهندسين » . قلت « ومَن بنى في مدينتكم مستشفاها المشهور ، ومدرستها العالية ، ومعبدها الفخم ؟ » قال « لا أدري » قلت « وهل تعرف أفضل الاساتذة والمهذبين . . وأشهر العلماء والكتاب ؟ » قال « لا أدري » . قلت « وهل تعرف اسم الرجل الذي تعيش معه هذه المغنية ؟ » . قال « سمعت أنها تعيش مع رجل يُقال له شمس الدين النحاس . . »

فلما سمعتُ هذا أصابني شبه نوبة عصبية . فارتجفتُ شديداً واكفهرَّ لوني . وما لبثتُ أن تركتُ الحفلة وارتابها وعدتُ إلى منزلي وأنا في همّ وغمّ . ولما ثاب إليَّ روعي أخذتُ أُعلّل نفسي بأن هذه الحادثة لن تمر من غير أن يُذكَر اسمي بالاطراء والثناء ، فأنال الشهرة التي أستحقها ، وأصبح من رجال الوطن المعدودين . .

ولما كان صباح اليوم التالي خرجت إلى السوق فابتعتُ نسخة من كل جريدة من جرائد أمس وعدتُ إلى منزلي وأخذت أتصفح تلك الجرائد واحدةً واحدةً ، فرأيت في اكثرها وصفاً للحفلة

وذكرَ أسماء طائفة كبيرة من الحكام والعظماء الذين شهدوها . . وذكر المغنية الحسناء التي حضرت فجأة فكسفت شمس النهار بضيائها ، وسبت العقول بجمال طلعتها وسنائها . . وكانت مرتدية . . الخ . الخ . »

نشرت الجرائد ذلك كله وطوت كشحاً عن ذكري ولم تهتم بمعرفة الرجل الذي بنى ذلك الجسر ، وهو أعجوبة الزمان وغاية الفن . ملأت هذه الجرائد عموداً وعمودين من أعمدتها بما لا فائدة منه ، ولم تُجرِ لعملي — وهو موضوع تلك الحفلة — ذكراً . . نعم يا سيدي هذه هي حالة جرائدنا أيضاً ، — تهتم بالتافه من الأخبار وتكتم الحقائق أو لا تُعنَى بها . وذلك فضلاً عن اختلاق الاخبار المكذوبة وتمويه الحقائق وتبديل صور الواقع ، وغير ذلك مما لا يسعني بيانه . وقد قلتُ في نفسي : لا بأس ، فامامي وسيلة أخرى للشهرة لا بُدَّ أن يكون فيها النجاح . وذلك أن المجلس البلدي في العاصمة قد طلب من المهندسين رسوماً لبناء كبير كان المجلس عازماً على تشييده ، ووعد أن يكافىء المجيد منهم أحسن مكافأة . وقد أرسلتُ أنا برسمٍ لهذا البناء كما ارسل غيري ، وكنت واثقاً بأن المجلس سيحكم لي بالجائزة فأنال الشهرة التي أنشدها . ولما حلَّ موعد النظر في هذه الرسوم ركبتُ القطار

وسافرتُ إلى العاصمة ومعي المغنّية « الشهيرة » ولم يكن لنا من عمل في الطريق إلاَّ الاكل وشرب الشمبانيا ، إلى أن بلغنا العاصمة ، فنزلنا في أحسن فنادقها . وفي اليوم التالي اجتمع المجلس البلدي وحكم للرسم الذي قدَّمتُه بالجائزة الاولى كما كنتُ أتوقع . فطرتُ فرحًا وأخذتُ انتظر بفارغ الصبر صدور الجرائد في اليوم التالي لاقرأ الخبر. وكنتُ لا اشك في الانتصار وادراك أسمى مراتب الفخر والشهرة

وأخذتُ الجرائد في اليوم التالي وخلوتُ بها في غرفتي في الفندق وشرعت في مطالعتها شيئًا فشيئًا . فقرأت في الاولى منها : « وصلت الى العاصمة أمس بقطار المساء الممثلة الشهيرة (وذكرت اسمها) فنرحب بها ونتمنى أن تقضي عندنا في العاصمة مدة طويلة ليتمكن الجمهور من اغتنام أحسن الفرص لحضور أرقى مشاهد التمثيل وسماع أطرب أنغام الغناء . . » وقرأت في الثانية والثالثة والرابعة ما يشبه ذلك، غير ان هذه استرسلت في وصف جمال الممثلة الفتان والفن الذي أدركته بمواهبها وذكائها . ولم أرَ اسمي الاَّ في جريدة واحدة في هذا الخبر المقتضب : حكم المجلس البلدي بالجائزة الاولى (لفلان) ... ولكنها بدلاً من ان تكتب « شمس الدين النحاس » كتبت « قمر الدين النقاش »

فرغت من مطالعة تلك الجرائد وأنا كشبح بلا روح . . ولكني

نهضت في الحال الى زجاجة الشمبانيا وكانت أمامي على المائدة فوضعتها على فمي واحتسيتها كلها . ثم أسرعت فاستلقيت على سريري ونمت نومًا ثقيلاً . . .

ولما غدنا من العاصمة كتبت الجرائد فصولاً كثيرة في سفر الممثلة . . وأسفت كل الاسف لفراقها ، وتمنَّت لها سفراً سعيداً وعيشاً رغيداً وعمراً طويلاً مديداً ليظلَّ « الفن » بوجودها في تقدم مستمرّ ونجاح مطَّرد . . . .

ودُعيتُ بعد شهر من عودتنا من العاصمة الى احدى المدن الكبرى في البلاد للنظر في بعض متاحفها . وقد قمتُ بعملي أحسن قيام وألقيتُ عدة خطب في الموضوع ، وكانت الجرائد هناك تكتب على عادتها اخبار الزواج والوفيات والولادة والحرائق والغناء . . وتذكر اسم كلِّ مُطرب ودجَّال ومشعوذ ولص وسفَّاك وراقصة ومفلس وسكّير ، ولم تذكر شيئًا عني وعن خطبي واصلاحي للمتاحف . . وركبتُ مرة الترام وكانت المركبة مزدحمة بالركاب بين رجال ونساء وطلاَّب علم وتجار ، فقلتُ لرجل منهم كان الى جانبي ، بصوت سمعه كثيرون غيره — : سمعتُ بأن المجلس البلدي هنا استدعى مهندسًا لاصلاح بعض المتاحف فهل عرفتَ اسمه ؟ فقال — لا . . . وقرأتُ مثل ذلك على وجوه الباقين . قلتُ — وقد سمعتُ ان

هذا المهندس يُلقي كل يوم خطبًا مفيدة جدًّا في بعض المتاحف ! — فهزَّ الجميع اكتافهم ولم يحيروا جوابًا

فأخلدت أنا أيضًا الى السكوت . واذا بالرجل الذي كان الى جانبي يدفعني بيده ويقول — انظر انظر الى ذلك الرجل الذي استوقف تلك المركبة يريد ان يركبها ، فهل تعرفه ؟ قلت — لا . قال — كيف لا ؟ وهو أبو القاسم المصارع المشهور ! . . وما قال هذا حتى تطالَّت الاعناق وشخصت الابصار لترى كلها المصارع . وما عدتَ تسمع في الترام الاَّ حديث المصارعين

ولولا خوفي ان تستولي عليك السآمة لسردتُ لك أمثلة كثيرة من هذا النوع ، وكلها تؤيد جهل الأمة بالشهرة الحقيقية وأربابها ، وانصرافها الى استسمان كل ذي ورم . فكم من مشاهير العلم والادب والفنون على أنواعها يعيشون ويموتون ولا يعرف أحد عنهم شيئًا ، بينما نرى بعض صغار الاحلام اذا كتب أحدهم شيئًا ، ولو تافهًا ، او قام بعمل ولو صغيراً ضئيلاً ، قامت قيامة الجرائد تقرّظه وتكيل له المدح والثناء بلا حساب

وبينما كان السيد شمس الدين النحاس يتكلم ، وقف القطار في احدى المحطات وخرج الناس يتراكضون من المركبات ووقف جمهور

كبير منهم في النوافذ وقد شخصت الابصار الى رجل كان واقفاً في المحطة والخفراء من حوله . فسأل شمس الدين عنه رجلاً كان بقربه فقال — ألا تعرف أبا الفرج المارديني ، اللص الشهير ، الذي سرق منذ بضعة أسابيع مصرف العاصمة ؟ فهذا هو . .

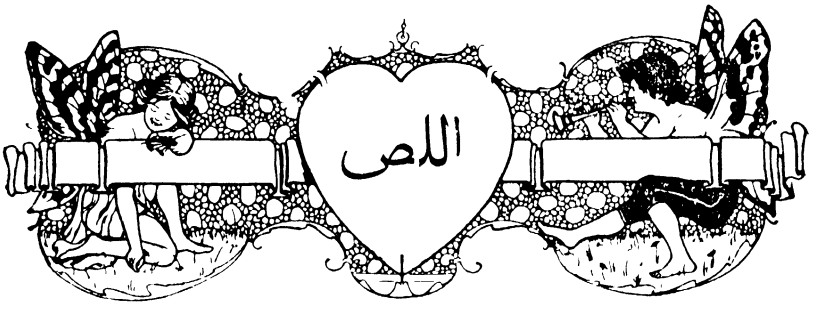
فهزّ شمس الدين كتفيه وعاد الى جليسه فقال — انهم يعرفون أسماء جميع اللصوص والقتلة والمغنّيات والراقصات . . ولكن هل يعرفون أسماء نوابغ الامة وعلماءها وأدباءها ؟ ؟ هـذا هو الجهل المطبق يا سيدي ، ولا حيلة لنا الى دفعه

فابتسم الرجل وقال — لقد سمعتُ كل حديثك بتمام الاصغاء واللذة . فاسمح لي أن أسألك الآن — هل سمعت أنت باسم عليّ ابن العباس ؟

قال — لا

قال — هو اسمي . وقد أقمتُ خمسًا وثلاثين سنة استاذاً للعلوم الطبيعية في أعلى جامعات بلادنا ، وعضواً في بعض المجامع العلمية في البلاد الاخرى . .

فعض شمس الدين شفتيه وتململ . ثم أطرق هنيهةً وعاد فنظر الى جليسه ، ونظر هذا اليه — ثم أخذا يضحكان ويقهقهان . . .



روى أحدهم عن نفسه الحديث التالي . قال :

كنتُ منذ ثلاث سنوات مديراً لمالية احدى الادارات العامة. ولم يكن لي من العمر اكثر من خمس وعشرين سنة . وكان لي منزل صغير أقيم فيه وحدي . وكان من واجباتي ان أطوف من وقت الى آخر في القرى المجاورة للمحاسبة . فكنت أعود منها ولديَّ مقادير غير قليلة من المال أبقيها في منزلي الى الصباح

وكنتُ في أول عهدي بهذا المنصب كثير الحذر كثير القلق ، أخشى أن يدهمني طارق فيسلبني ما لديَّ ، فلا أصدّق أن يبدو الصباح حتى أبادر الى محل الادارة بما اكون قد جمعتهُ

غير ان ذلك القلق لم يلبث مع الايام ان أصبح بلا معنىً ، فعدتُ لا أحاذر شيئًا ولا أخشى عاقبةً ، وصار المال يبقى في منزلي يومًا ويومين ، وأحيانًا اكثر من ذلك ، دون أن أحسب حسابًا لأحد

وبلغتْ مني الجرأة انى صرتُ أغادر المنزل فى كثير من

الليالي لقضآء السهرات وحضور المآدب في بيوت بعض الأُسَر ولا أعود منهـا قبل منتصف الليل ، فأدخل منزلي خليَّ البال غير مكترث لشيء

ولم يكن لديَّ من وسائل الدفاع الاَّ مسدَّس صغير لم يكن في أول الامر يفارقني دقيقـةً ، فكنتُ أحمله وأنا خارج المنزل في جيبي ، وأضعه على مائدة صغيرة بإزاء سريري عند ما أعود . غير اني لم البث بعد مدة ان هجرت المسدس ايضًا وعدت لا أبالي بوجوده ، وكان يبقى على المائدة أيامًا ولا أعبأ به

وحدث اني بصرتُ في احدى المآدب بحسناآء يقال لها حوآء ، سلبت رشدي وكانت ذات بعـل . ولكنها كانت من نسآءِ العصر اللاتي يحببنَ المخالطة والظهور ، مسوقةً اليه على الخصوص بجمالها الرائع وحسنها الفتان

وشعرت حوآء بميلي اليهـا ثم بحبي لها وافتتاني بهـا ، فكانت تظهر لي عطفها ولا تبخل عليَّ ببضع دقائق أجلس فيهـا الى جانبها أطارحها الحديث وأمتّع النفس بكلماتها الساحرة

واتصل بي الامر ان صرتُ أزورها في منزلها واحضر اكثر المآدب وليالي الطرب التي كانت تحييها لمعارفها

واتفق ان عدتُ في إحدى الليالي الى منزلي متأخراً بعد ان قضيتُ النهار بطوله في احدى القرى ، وكنتُ أحمل مقداراً كبيراً

من المال . فما بلغت منزلي حتى طرحت المال جانباً وانطرحت على سريري وأنا في أشد حالات التعب والاعياء . وكدتُ أطبق عينيّ وأستسلم لسلطان الكرى ، ولكن بدت لمخيلتي صورة حواء ، فتنبه فكري وأمعنتُ في عالم الخيال

وأدركتُ اني لم أقفل باب غرفتي حينما دخلت فلم أعبأ بذلك ، لأني لم أشأ ان أغيّر مجرى أفكاري

ومضت الساعات عليّ وأنا في تلك الحالة . وكانت الغرفة مظلمة لأني لم أوقد مصباحاً ، اذ لم تكن لي حاجة اليه . وكنتُ أوثر الظلمة لانها أدعى الى التأمل والخيال

وبينا أنا كذلك إذ فُتح الباب قليلاً ، وانسلّ منه الى الغرفة شبح لم أتبيّنه لشدة الظلام . فمددتُ يدي الى المسدّس وكان لا يزال في مكانه بإزاء سريري . فتناولته وجمدت في مكاني أنتظر ما سيكون

والظاهر ان الشبح لم يكن يشك في خلو الغرفة ، فأخذ من جيبه فانوساً وأشعله ، فانبعث منه نور ضئيل أبصرت عليه رجلاً ضخم الجثة هرم الهيئة . فصوّبت المسدّس الى صدره وقلت بثبات جأش – مكانك أيها الرجل ! واياك أن تخالف أمري أو تحاول الفرار !

ولم يكن الرجل يتوقع مثل هذه المفاجأة ، فوقف في مكانه مذعوراً وهو ينظر الى المسدس ولا يدري ماذا يفعل

وكان بإزائي مائدة صغيرة عليها شمعتان ، فأشعلتهما حالاً باحدى يديَّ وأنا مسـدّد المسدس باليد الاخرى الى صدره . وما كدتُ اتفرس في وجهه بعد ان انتشر النور في الغرفة حتى عرفته لم يكن هذا الرجل الاَّ متسوّلاً معروفًا في المدينة باسم النعسان . وقد عرفته منذ حين فكنت أرثي لحاله وأرتاح الى مساعدته

وقد أهرمتهُ الحوادث فخنت ظهره وأشعلت رأسه شيبًا وكادت تذهب ببصره

وكنت أنا قد استويتُ في سريري وعدتُ الى سكينتي فقلت للرجل — لم اكن أتوقع ان أراك تتعاطى هذه المهنة يا عماه ! فهل قلَّ موردك من التسوُّل حتى آثرتَ استبدال اللصوصية به وأنت في هذه السن من الحياة ؟

فزفر النعسان زفرة حارَّة ونظر الى ما حوله فرأى كرسيًّا فجلس عليه ، وقال وهو غير مبالٍ بالمسدس الذي كان لا يزال مصوَّبًا الى صدره :

— وأي غرابة في ذلك ؟ فقـد سئمت التسوُّل ، وليس في استطاعتي أن أشتغل لأواصل هذه الحياة التعسة الى النهاية ، وليس لي من يعولني

قلت — أفلا تخشى أن أنبىء رجال الشرطة بأمرك ليسوقوك الى حيث ينالك العقاب على هذه الجريمة ؟

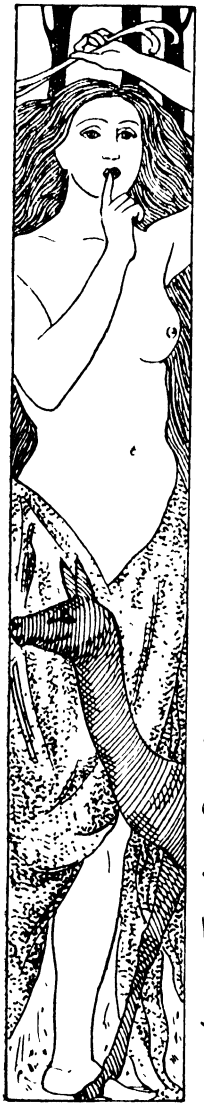
فهزَّ رأسه وقال — أنا لا أخشى منك ذلك ولو قبضتَ عليَّ وأنا متلبّس بهذه الجريمة . . أنت تدعو عملي جريمة ، وهو كذلك في نظر القانون والعادة . ولكنك لو نظرتَ اليه بعين الحقيقة ، وقابلتَهُ بغيره من أعمال الخلق لما دعوته كذلك . سهلٌ أن تدعوني سارقًا وتدعو عملي لصوصية . ولكن بالله قل لي مَن مِن الناس في هذا العصر لا يسرق ولا يتعاطى اللصوصية ؟ أأنتَ وقد أحببت زوجة قريبك ؟أم التاجر الذي يغشُّ في تجارته وسلعه ويخادع عملاءه ؟ أم الحاكم الذي يتظاهر بصيانة العدل وهو يختلس ثقة الرعية وينتهز كل فرصة للايقاع بها ؟ أم القائد الذي يسرق ابناء الناس ليزجّ بهم في أتون الحرب المضطرم بدعوى الذود عن حياض الوطن او الجهاد في سبيل الامة ، وأمثال ذلك من الكلام المزوَّق الذي لا يُراد به في الحقيقة الاَّ خداع الأمة والتمويه عليها ؟ . . . ان العالَم أيها الصديق طافح باللصوصية ، ولكن البراعة هي أن يكون الانسان لصًّا ماهراً لا يشعر به أحد . . اني مطلع على سرّك وأعلم انك تحب السيدة حواء ولكنها تحب سواك ، وزوجها يحب سواها ، فأنت لصٌّ ، وهي لصة ، وزوجها لصّ أيضًا . وأمثالكم جماهير لا تحصى من الخلائق . هذا في حلقة الحب فقط . فانظر الآن الى كل حلقة من حلقات الحياة وفي كل مظهر من مظاهرها

سمعتُ هذا الكلام فبهتُّ ووضعتُ المسدس على المائدة في مكانه . وكان النعسان يراقب حركاتي فضحك وقال — أراك قد ركنتَ إليَّ وعدتَ لا تخشى بأسًا من جهتي ، لاني أظهرتُ لك الحقيقة ولم تكن تنتظر ان يقولها مثلي وأنا في هذه الاطمار البالية . ولعلك تظن أني من زمرة المتسوّلين الذين قضوا دهرهم في هذه المهنة ! لا ، لم اكن متسوّلاً وانما اضطررتُ الى ذلك اضطراراً في هذه الايام السود . فقد كنتُ في أحد المعامل أحصل قوتي بكدّ يميني ، وكان لي زوجة وابنان شابان وابنة صبية . فلما شهرت الدولةُ الحرب وجاء جمال باشا على رأس الجيش أخذ ولديَّ فأرسل أحدهما الى الترعة في جملة الجيش ، وعيّن الآخر في فرقة السوّاق ، ثم عين البنت ممرّضة في أحد المستشفيات ، ووعدني ، كما وعد غيري من الآباء العاجزين ، بمرتّب شهري أتقاضاه ما دام اولادي في الخدمة . غير ان ذلك لم يكن الاَّ وعداً ، او أمراً لم يكن من سبيل الى تحقيقه ، لاني لم آخذ شيئًا . وقد بعتُ كل ما في منزلي من الحطام ، حتى خشب الابواب والنوافذ بعته واستعنتُ بثمنه على معيشتي وأنا أنتظر الفرج . وقد طال انتظاري وفرغ صبري ولم يبقَ ما اقتات به . وكانت زوجتي قد مرضت وليس في يدي ما أعالجها به وأدفع عنها المكروه ، فقضت نحبها بعد أيام من مرضها وهي تتحرّق حزنًا على أولادها . و ياليتني متُّ معها لأنجو مما وقعتُ فيه . فقد صُرع كبير أولادي في حومة

الوغى في معارك غزة ، وتبعه الثاني فمات بعد أيام قليلة من شدّة ما عاناه من الحرّ والبرد والمشاق الكثيرة وهو يسوق الجمال في الصحراء ، وماتت البنت من العدوى بالتيفوس في المستشفى ، و بقيت وحدي في هذه الدنيا أُقارع الخطوب وأندب الأحبة . وطفقتُ أجول من مكان الى آخر ، أقرع الابواب وأتسوّل ، ونفسي مُرَّة وقلبي منصدع . فسوّلت لي نفسي ان ألج منزلك لعلي أظفر فيه بشيء يساعدني على قضاء الايام الباقية من حياتي . ولو نجحتُ في عملي لَما عددتُ ذلك اختلاسًا لمالك الخاص بل لمال الدولة ، وهو كما تعلم مال الامة التي أنا أحد أبنائها والتي جدتُ عليها بأولادي الثلاثة وهم سبب حياتي وأعضادي في هذه الدنيا . . .

وكان لكلام النعسان أعظم تأثير في نفسي . فكنت أُصغي اليه وأنا أودُّ أن لا يفرغ وقد نسيتُ أنه دخل عليَّ بتلك الحالة وفي هذا الهزيع من الليل ، فنهضت وأخرجت من جيبي قبضة من المال ناولته اياها وقلت له — استعن بها على معيشتك وعد إليَّ في كل وقت تحرجك فيه الحالة تجدني مستعدًّا لاغاثتك

فشكرني وخرج وعدتُ بعد خروجه الى عالم التأمل والخيال ، وقد غابت من مخيلتي صورة حوّاء ، وتجلت مكانها صورة أخرى ، صورة المصائب الفادحة التي نزلت بالبلاد والعباد بسبب هذه الحرب الشعواء التي أضرمت الدول نارها فكانت لها أُكُلاً . . .



القناع

كانت الساعة السادسة صباحًا . وكان راعول لا يزال مستغرقًا في النوم ، لأنه لم يرقد هذه الليلة إلا الساعة الثانية عشرة . فقد دُعي إلى مأدبة أعدها بعض اصدقائه ، فلم يعُد إلى منزله إلاَّ في منتصف الليل

وكانت زوجتهُ « سوسنة » قد افاقت باكراً . فنهضت من سريرها وعمدت إلى ثياب زوجها تبحث في جيوبه . وكان هذا البحث من أحبّ الامور اليها ، فكانت كلما انتهزت فرصة اشتغال زوجها او نومه تأخذ في التحرّي والتفتيش في جيوبه بما لا مزيد عليه من المهارة والحذر . وقد تمكّنت منها هذه العادة حتى اصبحت شغلها الشاغل وموضوع تسليتها وسرورها . ولم يكن راعول يضع شيئًا في جيوبه من الرسائل او الاوراق إلاَّ وتقرأه سوسنة وتطلع على كل علاقة لزوجها بمراسليه

وبينا كانت تبحث وتفتش هذه المرة وهي تقلب الجيوب، أخرجت من جيب المعطف قناعًا طويلاً من الحرير الاسود، فوقفت مبهوتة، وقد ارتاعت وتصبَّب العرق من جبينها

وكان زوجها قد تنبَّه من نومه، فرأى زوجته واقفة امام ثيابه والاضطراب آخذ منها كل مأخذ. وكان القناع لا يزال في يدها وهي تتأمل فيه وتهزُّ رأسها، فقال — ماذا تفعلين؟ وما هذا الذي في يدِك؟

فنظرت سوسنة اليه وقالت واعصابها ترتعش غضبًا — هذا قِناع عثرتُ عليه في جيوبك . . . وهو بلا شك لعشيقة لك لم أدرِ بها حتى الآن

ففرك راعول عينيه وقال وهو يتهاءب — انت واهمه يا سيدتي، فلا قناع في جيوبي ولا عشيقة لي

قالت — ولكني وجدتُهُ في جيوبك كما ترى، فلا سبيل لك إلى الإنكار. وهو، كما يجب ان يكون، لعانية تهواك وتهواها. . فهل يليق بك مثل ذلك وانت في هذه السنّ؟

فضحك راعول وقال — لكن ليس لي من العمر اكثر من خمس واربعين سنة وثلاثة اشهر . . .

قالت — فأنت إذاً تظن أنك لا تزال في شرخ الشباب . . ولعلك نسيتَ أن لك زوجةً أمينةً أقسمتَ لها على الامانة كما أقسمتْ هي لك . فهل من الأمانة أن تخونها إلى هذا الحد وتكافيها على حبها واخلاصها بمثل هذا الغدر الشنيع ؟

قال — ولكني لم أفقه شيئًا مما تقولين إذ لا علاقة لي بسوالكِ

قالت — وهذا القناع ؟ فهل تنكر وجوده في جيوبك ؟ أم تظن اني أنا دسسته لأحمل عليك هذه الحملة العنيفة ؟

قال — لا . فمعاذ الله أن أعزو اليكِ ما أنتِ بريئة منه

قالت — وهو ليس لي ، لأني لم أرَه إلاَّ الآن ولم أستعمل مثله في حياتي . فأنا إن خَرجتُ من منزلي أخرج سافرة الوجه غير متخفية ولا متسترة . . فهو إذاً لغيري ، من النساء المتهتكات اللاتي تكلفون بحبهنَّ أنتم معشر الرجال وتدوسون لأجلهنَّ كل حقوق الزوجية المقدسة

قال — مهلاً يا سوسنة ، فأين وجدتِ هذا القناع ؟

قالت — هنا . . في جيب معطفك أيها الظالم !

قال — ولكن انظري جيداً . فهل هذا المعطف لي ؟

فانتبهت سوسنة كمن حلم ونظرَت إلى المعطف قليلاً ثم قالت — حقًّا ان المعطف ليس لك . . فأين معطفك اذاً ، ولمن هذا ؟

قال — أظنُّهُ لصديقي فيليب . . وقد كنت واياه الليلة الفائتة في المأدبة ، فالظاهر أن كلاًّ منا قد أخذ معطف رفيقه ونحن خارجان منها دون أن ينتبه

قالت — فهو إذاً لصديقك فيليب الذي يزورنا من وقت إلى آخر وندعوه أحيانًا الى الطعام ؟

قال — هو بعينه

قالت — اذا كان الامر كما تقول ففيليب إذاً من اولئك الرجال الذين يهيمون في كل واد ولا يَزَعُهم شيء عن اتّباع اهوائهم

قال — ما لنا وله ، فهو عَزَب وغير مرتبط بزوجة أو أهل

وكانت سوسنة واقفة تسمع والشرر يتطاير من عينيها . وكان القناع لا يزال في يدها فمزّقته إرْبًا إرْبًا وهي لا تدري ماذا تفعل أو تقول

فقال لها راعول — ماذا تفعلين ؟ ان هذا القناع ليس لنا وسيأتي صاحبه اليوم في طلبه

فقالت وهي تزداد حنقًا وغيظًا — ليأتِ متى شآء ، فقد فعلتُ ما يجب أن أفعل لتعليمه وتأديبه واظهار ازدرائي له

ثم خرجت من الغرفة وهي تقول في نفسها : سيأتي فيليب اليوم الى هنا فأنتقم منه شر انتقام

و بقي راعول وحده متأملاً ، وقد اكبر عمل زوجته ، وأثنى على غيرتها عليه واخلاصها له . . .

* * *

وما كاد راعول يخرج إلى شغله في ذلك النهار حتى جاء فيليب صاحب المعطف ، وكانت سوسنة تنتظر قدومه وصدرها ملتهب بالنار . وما رأته حتى قطبت وعبست ولم ترحب به على عادتها . فقال لها

— ما بالكِ أيتها الحبيبة ؟ اني أراكِ كاسفة البال وقد احمرَّت عيناكِ من شدَّة البكاء ، فما الذي جرى ؟

قالت — لا تسألني شيئًا . . لاني علمتُ كل شيء

قال — وما عسى أن يكون ذلك ؟ اني لا أفهم شيئًا من هذه المعميَّات . فقولي بر بك ماذا جرى ؟

قالت — لم يجرِ شيء . ولكني اريد أن أقطع كل علاقة لي بك ، فاخرج من هنا ولا تحاول أن تراني أو تجتمع بي بعد الآن

قال — رحماكِ يا سوسنة . . فماذا فعلتُ حتى أستحق منك مثلَ هذا ؟

فأشارت سوسنة الى معطفه ، وكان معلّقاً ، وقالت — لمن هذا ؟

قال — هذا معطفي ، وقد أخذه زوجك أمس خطأً كما أخذتُ أنا معطفه ، وجئتُ الآن اردُّ اليه معطفه واستردُّ معطفي

فنظرت سوسنة اليه شزراً ، ثم أخذت قِطع القناع وقالت — وهذا لمَن ؟

قال — هذا لكِ يا سيدتي . . وأنتِ صاحبته

فبهتت سوسنة وقالت — أنا صاحبته ؟ ومتى كان ذلك ؟

قال — كان ذلك منذ خمس سنوات . وقد جئتِ لزيارتي في أحد الأيام وكنتِ مقنَّعة بهذا القناع إخفاءً لنفسكِ عن الرقباء . . وقد نسيتهِ عندي فبقي أثراً جميلاً لكِ منذ ذلك الحين حتى الان

قالت — نعم . نعم . . وقد ذكرتُ ذلك الآن ، فسامحني على سوء ظني بك أيها الحبيب . . .

قالت ذلك وقبّلته . . . وكانا من أسعد المحبين حالاً . . . .

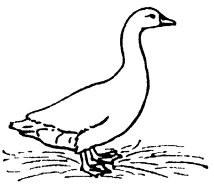


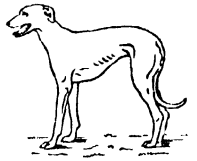
وعاد راعول الى منزله في المساء ومعه فيليب وكان قد دعاه للعشآء والسهرة . وقد قال له في اثنآء الحديث — أنصح لك أن تنتبه مرة أخرى لجيو بك . . نعم انك لا تزال عَزَبًا . . ولـكنك لا تعرف أيها الصديق شدة غيرة النسآء ولا سيما المتزوّجات منهن !!!





مؤتمر الحيوانات







عقدت الحيواناتُ مرة مؤتمراً عاماً لتبحث فيه عن غاية حياتها على الأرض ، وفي أي شيء تنحصر السعادة . فاحتشد اليه جميع المخلوقات غير العاقلة ، من وحوش وطيور وأسماك وزحّافات وهوامّ . فكان المؤتمر على هذه الصورة مؤلفًا من كلّ ما يدبّ على الارض ويسبح في الماء ويطير في الهواء . ولما استقرّ كُلٌّ في مكانه ، وسكنت الحركة ، شُرع في العمل . فانتُخب الدُبُّ رئيساً للمؤتمر والإِوَزُّ كاتبًا ، والهرُّ والكلبُ لحفظ النظام

فقام الدبُّ وأجال نظره في الحشد وقال بصوت جهوري : ان الغاية التي لأجلها اجتمعنا أيها الاخوان هي لكي نعرف ما هي

غاية الحياة ، وفي أي شيءٍ تكون السَّعادة . فليُبدِ كلٌّ منكم رَأْيهُ في هذا الامر . وليكن الكلام محصوراً في الموضوع ، فلا يجوز لأحدٍ أن يتعدَّاه . وليوجز كلُّ واحد في مقالتــه بقدر الامكان ، لئلا يطول بنا الاجتماع على غير جدوى ، فخير الكلام ما قلَّ ودلّ

ولما سكت الدب ، أطرقت الحيوانات غائصة في افكارها وتأملاتها



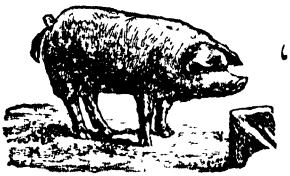
وبعد قليل قام الحمار ونهق قائلاً

— ان غاية الحياة هي التعب والصبر

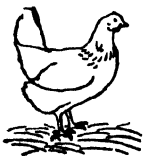
فسأله الدب — وما هي السعادة ؟

فأجاب — هي أن يعرف كلُّ واحد عن نفسه انه اكثر احتمالاً من الجميع

فكتب الاوزّ رأي الحمار



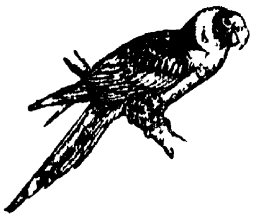
ثم قام الخنزير وقبع قائلاً — غاية الحياة اللذة ، والسعادة هي أن لا تعرف شيئًا سوى اللذة



وتلته الدجاجة فقرقت — غاية الحياة التوليد والتربية . والسعادة هي خيلاء الام بأولادها



فقاطعها الزرزور هازئًا — تبًّا لهذا الرأي . أمَّا الخيلاء فهي عيبٌ كبير ياسيدتي، وعار عليك أن تجملي ذلك . وأما التربية فهي أيضًا من أوهامكِ الخاصة ، لأنها لا تليق بأهل هذا العصر المتمدن



فابتدره الببغاء فقال — وأنت مالك ولها أيها الأحمق ؟ فهي قد أفصحت عن رأيها فلماذا قمتَ تناقضها ، وتهرف بما لا تعرف ؟

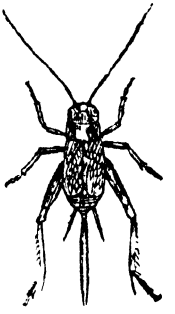


وكادَ يحتدم الجدال بين الزرزور والببغاء ، الا أن الدب أمرهما بالصمت ، فصمتا

ثم نهض الذئب فقال — ان غاية الحياة هي الحرية ، والسعادة هي أن لا تموت جوعًا



وتلاه القرد فقال — غاية الحياة هي الترقي في الكمال ، والسعادة صيانة الحياة وعدم التفريط فيها لئلا تنقضي سدى



وعقبه الجدجد [١] فقال — غاية الحياة الفنون والصنائع ، إذ ليس في الاعمال ما يفوقها. واما السعادة فهي أن تتيقن ان الصناعة أبدية وكل ما سواها فساد وقتام . — قال هذا وهو يتيه عجرفةً وتفاخراً

فتبسم الدب لكلامه وقال : هو صغير ولكنه شجاع . . . فحنى الجدجد رأسه علامة الشكر

ثم قالت الدودة — غاية الحياة التخريب ، والسعادة هي أن تحيا لنفسك منقطعاً عن العالم . ونحن جماعة الديدان قد خُلق كل شيء لنا ، كما هو مشهور عند الجميع



وقالت الضفدعة — غاية الحياة التضحية بالنفس ، والسعادة القيام بالدعوة ، فيكون الواحد للجميع

فابتدرها الصَّرْصَارُ [٢] بقوله — ما هذا الرأي السخيف ؟ وأين اللذة في أن تكوني طعاماً للغير ؟ فقُبِّحتِ من مختلة . . . فأسكته الدب ، وحرمهُ ابداءَ رأيهِ عقاباً له على هذه القِحَة

---

(١) طائر صغير قفّاز يشبه الجراد . ويقال له صرّار الليل . حكاية لصوته

(٢) نوع من السمك الاملس

ولما استتبَّ السكون قام الحصان فقال — الحياة ، بلا غاية والسعادة وَهْم ، لأنها غير موجودة



وتلته الذبابة فقالت — غاية الحياة محبة الجميع

فسألها الدب — وما هي السعادة ؟

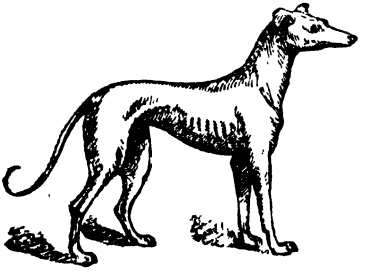
قالت — وكيف يمكنني أن أعرف السعادة وأنا لا أرى إلاَّ الشقاء ! فالجميع أشقياء وليس أحدٌ سعيداً . ترى احد الناس أسعد الخلائق حالاً ولا يلبث أن يصير أشقاهم ، فيسقط من حالق في أسرع من طرفة عين

فهزَّ الدب رأسَه وصمت



و بعد ذلك قام الثعلب فقال — ان غاية الحياة الرأفة بالضعيف

فضحك الجميع لأنهم يعرفون الثعلب وروغانه أما هو فخجل وانزوى في مكانه ولم يرد أن يُتمَّ حديثه

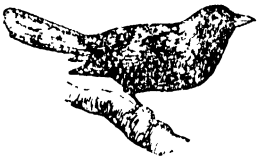


ثم قام كلب سلاقيٌّ فقال — غاية الحياة مساعدة الغير ، والسعادة الإذعان والطاعة والقيام بكل ما يأمر به السيّد



فابتدره الخفّاش قائلاً — بشرط أن يكون ذلك مجرَّداً عن الطمع ، خالياً من تلك الخساسة التي تسعى اليها أنتَ

فزجره الدب ، وأمر بعقابه



ثم قال الشحرور — غاية الحياة إذّخار المعارف والسعي في تحصيل ما لا يعرفهُ الآخرون. وأما السعادة فهي الحياة في الخفاء . هذا هو رأيي وقد عرضتُهُ بملءِ الحريَّة

وتلته البقّة فقالت — لا أحد يقدر أن يعرف غاية الحياة . فعش واكنز واملأ الأرض بالطول والعرض ، وكن خليَّ البال غير مهتم لشيء . واما السعادة فهي ان تُعمّر طويلاً

ثم وقف الصُرصُر[1] ولما فتح فاه للكلام لم يقدر ان ينطق بشيء . ففهقه العنكبوت ساخراً به . فانتهره الدب وأمر بجلده . وعادَ الصُرصُر الى مكانه دون ان يبديَ رأيًا



وتلته العَلَقة[2] فقالت — غاية الحياة أن تخفّف

---

(١) الصرصر شبيه بالجدجد الذي سبق الكلام عليه

(٢) واحدة العَلَق ، وهو المعروف في مصر بالدود

آلام الغير . وأما السعادة فهي أن تشعر بأنك تفيد الآخرين بمبرَّاتك ومآثرك



وعقبها الباشق فقال — كل نفس فهي لله ، وعلى المرء أن يقضي حياته حسب شرائع الله ونواميسه وأما السعادة فهي أن يعمل كلٌّ ما هو اهلٌ له

فابتدره الصقر بقوله — وهل أنت تعيش لله ؟ فكم فرُّوجا اختطفت ، وكم عيناً فقأتَ ؟ فيا لك من قديس كبير ! . . .

وأراد الصقر متابعة حديثه فزجره الدب وأمر بعقابه



وعلى أثره قام السرطان فقال — غاية الحياة أن تفعل المحرَّمات ثم تتوب . وأما السعادة فهي في الخلاص والحياة الابدية

وتلاه الجرذ فقال — غاية الحياة أن تعدل في كل شيء والسعادة أن لا يقلق راحتك أحد

وعقيب ذلك وقف الدب فقال — أرى من الواجب أن أبين لكم يا معاشر المخلوقات أن العدل كغيره من الفضائل ، لا يمكن أن يكون غايةً للحياة . فعلى كل مخلوق أن يكون عادلاً وشفيقاً ، يتوجع لمصائب الغير . أما إذا جُرِّدَ العدل من الشفقة والحنو فقد

بطلت فضيلتهُ وفائدته . أقول ذلك لأن كثيرين منكم ذكروا العدل ولم يذكروا الشفقة معه



وما كاد الدب يفرغ من كلامه حتى دخل القنفذ الى ردهة المؤتمر، وقد كان مُنْفَذاً من قبل الحيوانات إلى الأسد ليدعوه إلى الاجتماع . فحيَّا الجميع ثم تقدم الى الدب وناوله كتاباً من الاسد . فأخذهُ الدب وقرأ ما يأتي ، بصوت سمعه جميع الحضور : — غاية الحياة السلطة ، واما السعادة فهي القوة والشجاعة والمجد

فقال الوَبْر[1] — حقاً ان كلام الملوك ملوك الكلام

فتبسَّم الدب . والتفت الحمار الى القنفذ وسأله قائلاً — وأين وجدتَ الأسد أيها القنفذ ، ولماذا لم يشرفنا بحضوره ؟



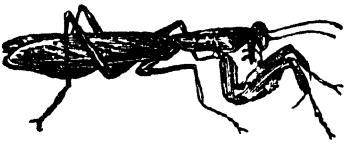
فأجاب — وجدتُه في قفص في احدى حدائق الحيوانات بعد أن طُفتُ البراري والقفار وبحثت عنه كثيراً

فتنهد الدب وقال — سنكون كلنا في مثل هذه الاقفاص . . . ثم التفت الى الحيوانات وقال — هل بقي منكم من لم يصرّح برأيه في موضوع بحثنا ؟

---

(١) شبيه القط وابن عرس

أجابوا — بقي كثيرون مثل الجرادة والخلد وغيرهما



فسأل الدب الجرادة عن رأيها
فأجابت — غاية الحياة هي أن لا تُبقي ولا تَذَر . وأما السعادة فهي أن لا يحفل المرء بشيء من الهموم والافكار



فضحك الدب وسأل الخلد عن رأيه
فأجاب — ان غاية الحياة هي البحث عن الحقيقة

فدهش الدب لهذا الجواب وقال — حسناً قلت . ولكن كيف تبحث عن الحقيقة وأنت أعمى ؟

قال — ولكني كنت مبصراً . وما زلت أبحث عن الحقيقة حتى عميتُ . ومع هذا لم أنقطع عن سعيي ، بل تراني أتطلّب الحقيقة تلمُّساً

فسأله الدب — وما هي السعادة ؟

أجاب — هي أن تعتقد أنك ساعٍ وراء الحقيقة ، وتعلّل نفسك بالحصول عليها يوماً ما

و بعد أن كتبوا رأي الخلد ، سأل الدب — من يريد أيضاً أن يبدي رأيَهُ في هذا الشأن ؟



فقال القرد — أقترح عليك يا سيدي أن تبعث فتسأل الانسان عن رأيه

فقال الدب — صدقت ، فلا بدَّ من سؤاله والوقوف على رأيه

فاستحسن الجميع ذلك ، غير أن الشحرور اعترض بقوله — ولكن الانسان ليس من عالمنا الحيواني

فأجاب الدب — ليس هذا باعتراض ، لأنه مخلوقٌ مثلَنا ، وكلنا من عالم واحد

ثم استدعى الكلبَ والقنفذَ والجُرَذَ وأمرهم (المعذرة من أهل اللغة) بأن ينطلقوا إلى أقرب مدينة ، و يسألوا مَن يرونَه أولاً من أهلها ، و يعودوا في الحال . فامتثل الثلاثة أمرَ الرئيس وخرجوا من ردهة الاجتماع وساروا يقصدون المدينة ، ولم يصلوها الا عند فجر اليوم التالي . فوقفوا في أحد شوارعها يتلفتون الى كل جهة فلم يجدوا احداً . وانهم لكذلك إذ سمعوا غناءً ، ولم يلبثوا أن شاهدوا امرأة بقبَّعة حمراء ، وشعر متشعث ، وثياب قذرة ، وكانت تتهادى في سيرها ، وتغنّي بملء صوتها . فهمس الكلب لصاحبيه — انها سكرى وقد تنشّقتُ منها رائحة الخمر

فقال الجرذ — وماذا يهمنا من ذلك ؟ فقد أُمرنا أن نسأل اول

من نلقاه من أهل المدينة ، وهذه أول من لقينا . فلنسألها

فبادر الكلب اليها وقال — أرجو يا سيدتي أن تتفضلي بالجواب عن هذين السؤالين : ما هي غاية الحياة ؟ وما هي السعادة ؟

فلما سمعت المرأة هـذا الكلام انقطعت عن الغنآء ونظرت الى الكلب وصاحبيه وقالت — ان غاية الحياة هي خدمة المجتمع ، وأما السعادة فهي الراحة من الخدمة . . ثم بكت

فشكر لها الكلب تلطفها بالجواب وانصرف مع صاحبيه عَدْواً. ولما وصلوا الى المؤتمر أخبروا الحيوانات برأي المرأة وحالتها



وما كاد الاوز يكتب رأيها حتى انتصب الديك وقال — لا يصح لنا أن نعوّل على رأي مثل هذه المرأة السكيرة

وقال الثعلب — نعم ، فيجب أن نسأل غيرها

وقال الحمار للكلب ورفيقيه — اذهبوا إذاً مرةً أخرى

فأجابه الكلب — أسألك يا سيدي الحمار أن تذهب أنت، لأننا تعبنا

وفيما هم يتحاورون قال الشحرور — اني أرى انسانًا في طرف الغابة . . فالتفت الجميع فرأوا فلاحًا يحرث على ثور ، فتسارعوا كلهم اليه ليقفوا على رأيهِ . ولما اقتربوا منه تقدم الدب وقال :

— قل لنا أيها الانسان : ما هي غاية الحياة ، وما هي السعادة ؟

فوقف الفلاح ، ووقف الثور عن الحرث ، ثم ضحك وعرك جبينه وقال — اما غاية الحياة فهي التعب والصبر

فتبادل الحيوانات بعض الكلمات همسًا وقالوا للفلاح

— ان هذا رأي الحمار . . .

فذهل الفلاح وقال — اننا نحيا بحسب شرائعه ونواميسه عزّ وجلّ ، و يعمل كلٌّ بما دُعي اليه

فابتدره الثعلب بقوله — وهذا أيضًا رأي واحد منا ، فقد قاله الباشق القديس ، فكلاكما اذاً متفقان على هذه القداسة وهذا الصلاح . . .

وقال الدب — نحن خليقة غير عاقلة وأنت انسان عاقل ، فكيف تجعل نفسك في رتبة واحدة مع الحمار والباشق ؟ واذا كان لكل نوع من الخلائق غاية على الأرض ، فما هي غايتكم انتم معشر الناس ؟

فحار الفلاح في أمره وقال للحيوانات — اجلسوا هنا على هذا العشب الاخضر ، وتمهلوا عليَّ ريثما أجمع أفكاري

فجلس الجميع ينتظرون . فقال الاوزّ — وماذا يجدينا الانتظار ؟ اننا لن نستفيد من هذا الفلاح شيئًا . فأرى أن ننصرف عنه لنرى غيره

فقال الدب — لا بأس من الانتظار ،فدعه يجهد فكرته لنرى ما ينبثق منها . وزد على ذلك فهي فرصة نغتنمها لاراحة الثور من عنائه ، فهو أخونا و يتعيّن علينا مؤاساته

و بعد ان فكّر الفلاح طويلاً ، رفع نظره وقال بملء الافتخار — غاية الحياة . . . . . وأما السعادة . . . فهي . . . . . .

ماذا كان جواب الفلاح ؟ . . .





﴿ هند الصغيرة ﴾

كانت هنـد طفلة جميلة الصورة رشيقة الحركة خفيفـة الروح كأنها ملك كريم

وكانت والدتهـا أنيسة في شرخ الصبا وقد فُجعت بفقد زوجها وأصبحت أرملةً وهي لم تتجاوز الثانيـة والعشرين وطفلتُها الشهرَ الأول من العمر . ولم يترك لها زوجها شيئًا لقلَّة ذات يده . فضاقت بأنيسة الحال ، واضطرَّت أن تحترف الخياطة. ولكنها لم تكن تكسب منها ما يكاد يسدّ الرمق . ولولا ابنتهـا لخدمت احدى الأُسر المثرية وكَفَت نفسها شظف العيش ومرارة الحياة . ولذلك تولدت في نفسها كراهة شديدة لابنتها وصارت تعاملها بمنتهى الجفاء والغلظة ، وكانت تتمنى موتها لتتخلص من هذا العبء الثقيل

أما هند فعلى رغم ما كانت والدتها تظهره لها من الكراهة والبغض، كانت تنمو ويزداد خداها تورّداً، وحديثها طلاوة، ووجهها جمالاً وإشراقاً

وتفشّى بالبلد الذي كانت فيه أنيسة أمراض معدية كثيرة وفتكت بمئات من الأطفال، ولكنّ هنداً لم يصبها مكروه مع انها كانت في أشدّ حالات الفقر والعري والجوع، فضلاً عما كان ينالها من اضطهاد والدتها لها وقسوتها عليها وعدم عنايتها بها

وكانت الوالدة والطفلة تقطنان غرفة صغيرة في الطبقة السادسة من أحد المنازل الكبيرة. وكانت أنيسة تخرج في اكثر الايام من هذه الغرفة لتسعى ورآء رزقها. فتغادر ابنتها في الغرفة وحدها دون أن تقفل عليها الباب أو النوافذ على امل أن تطلّ الابنة من إحدى النوافذ على الشارع فتسقط وتتحطّم، أو تهوي عن درج المنزل فتموت، أو تموت من الجوع. وكان كثيرون من الأولاد الصغار قد قضوا نحبهم في مثل ذلك. غير أن هنداً لم تتعرّض لخطر ولم تمت جوعاً. وكان الجيران يشفقون عليها في غياب والدتها فيستدعونها لتلعب وتأكل مع أولادهم. وكان ميلهم اليها يشتدّ بما لها من الجاذب القويّ. وكانت والدتها كلما عادت من شغلها ووجدتها مسرورة معافاة تتنهد وتقول — تبّاً لها فانها لا تزال حية!..

* * *

وفي ذات يوم أخذت أنيسة ابنتها ، وكانت في سن الخامسة من العمر ، وانطلقت بها الى حديقة البلدية وهناك جلست على أحد المقاعد وهند بجانبها ، وهي كلما لفظت كلمة او أبدت حركة تتوعدها والدتها بطرحها في بركة الحديقة ، فتسكت المسكينة خائفة مذعورة . ولعل والدتها جاءت في ذلك النهار الى الحديقة لتغتنم فرصة خلوّ المكان من الاقدام فتلقي ابنتها في البركة وتعود وحدها قريرة العين ناعمة البال

واتفق ان رجلاً من المتنزهين تبدو عليه أمائر النعمة والغنى أبصر أنيسة وطفلتها ، فجاء وجلس على طرف المقعد حيث كانتا جالستين ، وأخذ يتفرّس في هند و يبتسم لها . وكانت الصغيرة قد استأنست به فدنت منه ، وجعل الرجل يبشّ في وجهها و يطايبها بالكلام . وأرادت والدتها أن تزجرها عن ذلك . بيدَ ان الرجل التمس منها أن لا تفعل . ثم أخذ يحادثها وهو يظهر كل حشمة وأدب . فلم تنفر أنيسة منه . وقد رأت في حديثه وهيئته ما يدعو الى الاطمئنان ، ولم تشك في أن السبب الذي جعل هذا الغريب يقترب اليها و يكلمها انما هو ابنتها هند

وكان لانيسة رُواء جمال لم يغيّره الشقاء والفقر والتعب . وكانت تميل الى حضور المجتمعات على أمل التعرُّف برجل يتخذها زوجة

له . ولما جاء هذا الرجل وآنست منه ذلك اللطف والادب ، شعرت بدافع يدفعها الى مكالمته ، وقد علمت منه انه تاجر وأن اسمه بطرس

و بعد حديث قال بطرس — قد كان لي زوجة وابنة في عمر ابنتكِ وكانت تشبهها كل الشبه ، لكنَّ الله شاء فنقلهما الى جواره

قالت — وهل ماتتا في يوم واحد ، وكيف كان ذلك ؟

فتنهَّد بطرس وقال — نعم وا أسفاه ، فقد ماتتا في يوم واحد . وذلك أن النار علقت بأذيال البنت فالتهبت فأسرعت والدتها تريد اطفاء النار فالتهمتها النار وقضت الاثنتان بعد ذلك بزمن يسير . ولو لم أدفن الابنة بيدي لاعتقدت ان طفلتكِ هي ابنتي بعينها . وقد أصابني من جراء هذه الصدمة حزن شديد فخرجتُ من بلدي وجعلتُ أطوف من مكان إلى آخر طمعًا في تسرية همومي وتفريج كربتي وأنا لا يطيب لي مقام ولا يهنأ لي عيش . وثقي بأني لشدة حزني وفرط لوعتي وددتُ لو يقتلني أحد ويريحني من هذه الحياة المحفوفة بالشدائد والمصائب . ولكن الموت ظالم لا يأخذ مَن يحنُّ اليه بكل جوارحه ، بل يختار مَن تنصدع القلوب لفراقه وتذوب النفوس حزنًا عليه

فابتسمتْ أنيسة وقالت — أصبتَ ، ولا يستطيع احد أن يُدرك سرَّ هذه الحكمة . فان طفلتي هذه عبء ثقيل عليَّ ، وتراني

راغبة كل الرغبة في موتهـا والخلاص منها ، ولكنها كلما ازددتُ رغبةً في موتهـا ازدادت هي نموًّا وحياةً

فبُهت بطرس وقد أخذ منهُ العجب كل مأخذ وقال :

— وكيف تستطيعين أن تكوني قاسية الى هذا الحد ؟

قالت — لأن الحاجة تضطرني الى ذلك

فأُعجب بطرس بصراحتهـا . وكانت هند قد جلست بازائه وشخصت اليه ببصرها ، فقبلها في جبينها ثم عاد فقال لأنيسة — وهل تودين من صميم القلب أن تتخلصي من هذه الطفلة الجميلة ؟

قالت — نعم ، وبكل سرور

قال — اني مستعد ان آخذها الى منزلي فأعتني بها اعتنائي بأعز شخص لديَّ ، وتكون عندي بمنزلة ولدي وأعزّ من روحي . وهكذا تتخلصين أنتِ من هذا العبء الثقيل وتشتغلين بما شئتِ

فنظرت اليه أنيسة طويلاً وقالت — وكيف ذلك ؟

قال — الامر بسيط . فقد فقدت ابنتي ، وهذه تشبهها كل الشبهِ فأضمُّها الى نفسي وتكون سلوتي الوحيدة في هذه الحياة

وكانت أنيسة تودُّ أن تنفصل عن ابنتها وطالما تمنَّت موتهـا . بيدَ انهـا الآن عند ما سمعت كلام بطرس وعرفت أنه من الاغنياء طمعت في شيء من ماله ثمنًا لابنتها ، ولكنها خجلت أن تصرح له

بضميرها ، فنظرت اليه وقد صُبغ وجهها بلون القرمز وقالت :

— اذا كنت مصمماً على ذلك فأرجو أن نجتمع مرةً أخرى هنا أو في منزلي فنتمم الحديث

قال — لا أحبّ اليّ من ذلك ، فسأزورك في منزلكِ اذا أذنتِ لي

فدلّته أنيسة على المنزل الذي تقطنه . ثم نهضت فودعته وحمرة الخجل تصبغ وجنتيها . ولما دنت هند لتودّعه أخذها بين ذراعيه وقبلها بلهفة زائدة

وعادت بعد ذلك أنيسة الى منزلها وهي طلقة المحيّا ، باسمة الثغر ، وابنتها تطفر وراءها فرحةً مسرورةً

وباتت أنيسة تلك الليلة تعلّل نفسها بالآمال . فتمثّل لها ان هذا التاجر سيأتي في طلب ابنتها ، وربما كان ذلك وسيلةً لتمكّن علائق الوداد بينهما فيؤول الامر أخيراً الى اقترانه بها . ومضى يومان بعد ذلك ، وخاطر أنيسة مشغول ببطرس ليلاً نهاراً ، وكانت معاملتها لابنتها في هذين اليومين بغاية اللطف والرقة والمحبة

وفي اليوم الثالث جاء بطرس وجرى بينه وبين انيسة حديث هند ، وكان قد أحضر معه للطفلة بعض الحلويات والاثمار فازدادت تعلّقاً به وتودُّداً اليه . وكانت والدتها تروم أن تكاشفهُ بما في ضميرها

ولكن منعها الحياء والادب، فقالت له بعد كلام — أنتَ تريد أن تأخذ الطفلة اليك ولكن من سيعتني بشؤونها ؟

وكان بطرس قد أدرك ما يجول في خاطرها وشعر من نفسه بارتياح اليها اكراماً للطفلة التي أحبّها من صميم قلبه، فعزم أن يصطفيها حليلةً له، وقال بلهجة لم تخفَ على أنيسة — أبقيها الآن عندكِ ريثما نفرغ من أخذ الاهبة لذلك ... ثم قام وانصرف على أن يعود في اليوم الثاني

وأخذ بطرس من ذلك الوقت يتردَّد الى أنيسة و يعطيها ما تحتاج اليه من النفقة . وكان لا يجد سلوةً ولا عزاءً الا اذا جاء الى غرفة أنيسة واحتضن هنداً الصغيرة، وكانت الالفة تصل أسبابها بينه و بين والدتها

و بعد أسبوعين، وكان قد اختبر أخلاق أنيسة، وآنس منها كل أدب وحشمة، باح لها برغبته في اتخاذها زوجةً له . ثم ودعها وودع الطفلة وسافر الى بلده ليدبّر شؤونه و يعود بعد ذلك فيقترن بها . وقد أعطاها قبل سفره مبلغاً من المال لتنفق منه على نفسها وعلى الطفلة في مدة غيابه

فسرَّت أنيسة بما تمَّ لها أخيراً من هذا النصيب السعيد وتنبهت في قلبها عواطف الحنوّ الوالدي لابنتها، لانها كانت سبب سعادتها،

فكلفت بحبها وصارت تعتني بها أشد اعتناء ، وقد ابتاعت لها الملابس الجميلة وكانت تغذيها بأحسن الاطعمة

و بعد بضعة أيام من سفر بطرس ورد أنيسةَ منه مبلغٌ من المال وكتاب قال فيه انه مضطرٌّ بسبب بعض المثبّطات الى التغيّب عنها ثلاثة أسابيع أخرى ، فسيقضي هذه المدة بفروغ صبر لانه مشتاق أشدّ الشوق الى هند وأليها ، وانه واثق بأن أنيسة ستضاعف عنايتها بها ليراها بعد هذه المدة في أحسن حال من العافية والجمال

فعظم سرور أنيسة وازدادت اهتماماً بالطفلة و بكل ما يضمن سرورها وصيانتها

غير أن هنداً ، مع كل عناية والدتها بها ، أخذت صحتها تضعف وجسمها ينحف ثم أخذت قوتها في الانحطاط ولزمت الفراش . فاستدعت أنيسة طبيباً لمعالجتها ، ففحصها ورأى انها مصابة بالتهاب الرئتين وجزم بأن ذلك مسبب عن البرد

فذعرت أنيسة لدى سماعها هذا الكلام ودهشت أشدّ الدهش لاعتلال ابنتها بعد تلك العناية والوقاية وأخذت تبذل كل ما في وسعها لشفائها وكانت لا تفارق سريرها ليلاً ولا نهاراً . غير أن كل ذلك لم يجدِ نفعاً ، بل كانت حالة الطفلة تزداد سوءاً من يوم الى آخر ، وانتهى الامر أخيراً بوفاتها

وكان هذا المصاب اكبر مما تستطيع أنيسة احتماله وقد لبثت بضعة أيام وهي تُعول وتصيح والزفرات تمزّق صدرها والعبرات تحرق وجنتيها . .

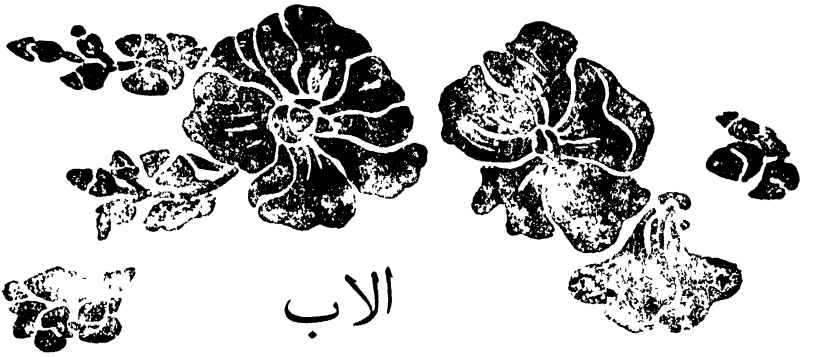
وجاء بطرس بعد ذلك يحمل الهدايا والتحف لانيسة وهند . وما كاد يدخل الغرفة ويرى أنيسة في تلك الحالة حتى تراجع مذعوراً . فلما أبصرته أنيسة تساقطت دموعها كالمطر واحتبس لسانها عن الكلام وكادت تفقد شعورها

فأدرك بطرس الحقيقة الهائلة ، ووقف لا يدري ما يقول وقد شعر بانصداع قلبه ثانيةً ، فأنَّ أنينًا محرقًا ولم يلبث ان خرج من الغرفة وعلائم اليأس والاسف بادية على وجهه المكفهرّ

فصاحت أنيسة اذ رأته على تلك الحال — وأنا ؟ هل نسيتني؟ وماذا يحل بي ؟

فلم يلتفت اليها ولم يجبها بكلمة . .

ولما أطلّت من النافذة لتراه ، وقد أصبح في الشارع وأخذ يسير فيه سيراً حثيثًا وهو مطرق حزنًا ويأسًا ، القت بنفسها من الطبقة السادسة . . . وكان ذلك آخر العهد بها . . .



الاب

(*) حدث في أحدى مدن الساحل الصغيرة القريبة من مدينة « نانت » في فرنسا ، أن نبيلاً من نبلآء الفرنسيس ، يقال لهُ الكونت دي بوفي . قدِمَ تلك المدينة سنة ١٧٩٤ ، بعد غياب خمس سنوات قضاها في السياحة في جهات أميركا . وهو كهل في السن الثالثة والاربعين ، ومن أسرة كثيرة الثروة بعيدة الشهرة . وكان جميل الخلقة شديد البأس . وقد أرملَ وهو ابن عشرين ، بعد أن وُلد له ابن وحيد سماهُ جلبرت . فأقبل عليه بعد وفاة زوجته يربيه أحسن تربية ، فنشأ الولد على خطَّتهِ وشبَّ وهو صورة أبيه ، لا يختلف عنه في شيء من السجايا والصفات والقامة والوجه

ولما بلغ الكونت المدينة المشار اليها ونزل من السفينة الى البرّ ،

(*) بُنيت هذه الرواية على حادثة تاريخية من حوادث الثورة الفرنسوية الشهيرة

ذهب توًّا الى فندق فيها معروف باسم فندق « النوتي الشجاع » لينفض عنه غبار السفر و يأخذنصيبًا من الراحة قبل أن يواصل سيره الى قصره . ولما قابل قيّم الفندق دعاه باسمه وطلب منه ما أراد

فذهل « پيير فارغو » قيّم الفندق ، وقال — ومن أين تعرفني يا سيدي ، وأنا لم أرك قبل الآن ؟

فضحك الكونت وقال — لا بل أعرفك وتعرفني يا فارغو اذا تفرَّست فيَّ جيداً

فنظر اليه القيّم حائراً ، ثم تبسم وقال — نعم نعم ، الكونت دي بوفي . . . . لا لا ، بل المسيو دي بوفي

قال — بل الكونت يافارغو . . فلا تنسَ

قال — ولكن الالقاب قد أُلغيت الآن يا سيدي ، وأصبح كل الناس أحراراً ومتساوين في المنزلة والحقوق المدنيـة ، ولا مزية في الالقاب للواحد على الآخر

فاتَّسعت حدقتا الكونت وقال — وكيف أُلغيت؟ ومن ألغاها؟

قال — أُلغيت بسقوط الملكية وقيام الجمهورية على أنقاضها

قال — وأيَّة جمهورية تعني ؟

قال — الجمهورية الفرنسوية ، أفلم تسمع بها ؟

قال — اني لم أسمع شيئًا من هذا القبيل ، لاني قضيتُ خمس سنوات سائحًا في أميركا الجنوبية ، وقد أُسرتُ في أثناء ذلك . فقل لي الآن ماذا جرى في مدة غيابي ؟

قال — يُخيّل إليَّ أنه لم يبلغك شيء من حوادث ثورتنا الكبرى

قال — بلغني شيء عنها منذ سنة ولم أسمع شيئًا بعد ذلك . . أنت تقول ان فرنسا قد أصبحت جمهورية . فماذا جرى للملك لويس السادس عشر ؟

قال — أُتّهِمَ بالخيانة وحُكم عليهِ بالموت ، ثم لحقت به زوجتهُ ماري أنطوانيت ، وأصبحت السلطة في يد الامة . وتألفت لذلك جمعيةُ « الكونڤانسيون ناسيونال » أي جمعية اتفاق الامة ، فهي تدير شؤون البلاد وتضطهد الكبراء والعظماء الذين لم يرقهم هذا الانقلاب الكبير . وقد أماتت كثيرين منهم واستصفت أموالهم وأملاكهم . ولا بدَّ انك تُسَرُّ كثيراً يا مسيو دي بوڤي بما آلت اليه الاحوال لانك من أشدّ أنصار الحرية وطالما ساعدت الاميركيين على نيلها

فأطرق الكونت عند ما سمع ذلك وامتُقِعَ وظهر القلق على وجهه ، ثم قال — وماذا جرى لابني ؟ فهل هو الآن في قيد الحياة ؟

قال — نعم ان المسيو جلبرت في أحسن حال ولم يتعرَّض له احد بأذًى ، لانه ابن صديق الحرية الحميم ، وهو الآن في مقتبل العمر ورونق الشباب

قال — وهل كانت كتبي تصل اليه في خلال هذه المدَّة ؟

قال — نعم . وقد سمعتُ انه بانتظارك ، ولكنه لم يعلم متى يكون قدومك

قال — وفيفيل ؟ هل سمعتَ عنه شيئًا ؟ وأين هو الآن ؟

قال — انه مع ابنته لوسي الجميلة ، لا يزالان في منزلهما القريب من قصرك

قال — فلوسي اذاً لم تتزوَّج بعد ؟

قال — كلاَّ يا سيدي ، ولكنها ستتزوَّج قريبًا وتستبدل اسم « دي بوڤي » باسم « فيفيل »

فتنهَّد الكونت تنهُّد مَن كان في ضيق وأُفرج عنه ثم قال :

— لعلك مصيب يا فارغو

ونهض بعد ذلك فألقى رداءه على كتفيه ونظر في المرآة قليلاً وهمَّ بالخروج فاستوقفه فارغو قائلاً — لعلك ذاهب لزيارة رجال الحكومة الجديدة ياسيدي لتهنئهم بالانقلاب السياسي الذي تمَّ

قال — كلاَّ . فقد أزورهم مساءً بعد ان أقابل ابني وابنة فيفيل

ولما قال هذا خرج وسار في طريق قصره وهو لا يعلم ما خبأه لهُ الغيب

* * *

كان الكونت دي بوڤي يحب لوسي فيفيل . وهي ابنة شيخ أفنى العمر في تربيتها والعناية بها ، فشبَّت في مهد الدلال والرفاهية . وسكنت مع والدها بالقرب من أملاك الكونت في منزل جميل تحيط به حديقة غنَّاء، فيها من كل فاكهة زوجان . ولما أبصرها الكونت دي بوڤي وهي في الرابعة عشرة من عمرها ، وقعت من قلبه أجلَّ موقع ، ورأى في حسنها ما قيّد بصره وملكَ حواسّه ، فهام بها شديداً ولم يكن قلبه قد انفتح لحب سواها . نعم انه كان مقترناً بوالدة جلبرت ، غير أن اقترانه بها كان امتثالاً لمشيئة والديه . وأما لوسي فقد أُشرب قلبه محبتها مدفوعاً بعوامله الخاصَّة، وقد صمَّم على الاقتران بها على الرغم من حداثة سنها . ولما عاد الآن من سياحته وعلم بأن لوسي لا تزال عزَبة تحقق انها لا تزال مخلصة له الودّ ، مقيمة على العهد ، وأنها ستملأ حياته سعادة وتكون بهجة أيامه

وظلَّ الكونت سائراً في طريق قصره الى ان رأى عن بُعد منزل لوسي ، فنازعته نفسه الى لقائها أولاً، وسار وقد اشتدَّ خفقان قلبه حتى بلغ المنزل ، ولم يكن بابهُ مقفلاً فدفعه بيده فانفتح ودخل

مجتازاً بالحديقة . ولكنه لم يسر بضع خطوات حتى أجفل وجمد الدم في عروقه ووقف كمن أصيب بصاعقة

وذلك انه رأى حبيبتهُ لوسي ، وقد أفرغ الشباب عليها من حلله جمالاً يبهر الأبصار ويحيّر الافكار ، جالسةً الى فتىً في مقتبل العمر لم يلبث الكونت ان عرف انه ابنهُ جلبرت . وكانا جالسين في ظلّ شجرة كبيرة ، يتطارحان أحاديث الحب ويتعانقان ، وهما في منتهى الغبطة والسرور

ولما شعر الحبيبان بوجود الكونت وعرفاه تراكضا اليه وعلى ثغريهما ابتسامات لطيفة تدلُّ على طيبة القلب وطهارة السريرة . ولكنهما لم يلبثا ان رأيا وجومه وانقلاب سحنته ، فأُسقط في أيديهما ووقفا لا ينبسان ببنت شفة

وكان الكونت عندما رآهما مسرعين اليه قد تنبه من ذهوله ، فنظر اليهما بعين الحزن وقال — أهذا ما كنتُ أتوقعهُ من أقرب الناس إليَّ ؟

وكأن هذه الكلمات حلَّت عقدة لسان جلبرت ، فدنا من أبيه وقال — اسمح لي يا والدي أن أطلعك على الحقيقة ثم احكم بما شئت

ولم يكن الكونت يحتاج الى اكثر من هذا الوضوح فقال — ما لي وللحقيقة التي تريد ان تطلعني عليها ، فهي واضحة كالشمس ،

وهي أنك قد خدعتني وخنتني ونغَّصت حياتي وسلبتني أعزّ شيء لديَّ في هذا العالم

قال — لا اكتمك يا أبتِ اني قد أحببتُ لوسي منذ زمان وتعلقت كل آمالي وعواطفي بها . ولما علمتُ بحبك اياها أردتُ أن أرحل من هنا . بيدَ أن ذلك كان فوق طاقتي لانني تحققت انها هي أيضاً تحبني وقد وهبَت قلبها كلهُ لي

ولما فرغ جلبرت من كلامه دنت لوسي من الكونت دي بوڤي وقالت — نعم . وقد حاولتُ أنا مراراً أن أقصي جلبرت من هنا فلم أستطع الى ذلك سبيلاً ، لأن حبَّهُ قد ملك قلبي واستعبد جوارحي ، وليس لي من أمنية في هذا الكون الاّ أن أحيا له ويحيا لي

فأنَّ الكونت أنةً محرقةً وقال — اذاً لم يبق لي محل هنا ، فيجب أن أنصرف عنكما

فألقت لوسي يدها على كتفه وصاحت — اصفح لجلبرت ، فانه لم يتعمد الاساءة اليك . . إصفح لي وله يا أبي !

ولو أن خنجراً اخترق أحشآء دي بوڤي لكان أسهل عليه من سماع كلمة (يا أبي) من فم لوسي . فذُعر واضطرب شديداً وقال لها — كان يجب أن تُعفيني من سماع هذه الكلمة يا لوسي ، فانها مما ترتعد له فرائصي جزعاً وألماً

ثم تحوّل عنهما ورجع على أعقابه، يتنازعه عاملا الحزن والغضب

* * *

وعاد الكونت الى فندق « النوتي الشجاع » فوجد في انتظاره بضعة رجال من أعضاء المحكمة الوطنية كانوا قد سمعوا بقدومه فأقبلوا يهنئونه بعودته من سياحته البعيدة . وكان بعضهم من معارفه وأصدقائه . فلما دخل عليهم نهضوا يرحبون به وقال له كبيرهم وكان اسمه ليسوار — أهلاً بك يا مسيو دي بوڤي فقد كنا نترقب عودتك لنبشّرك بهذا الانقلاب العظيم الذي سيفعم بلا شك نفسك سروراً لانك من دعاة الحرية وأشدّ أنصار الوطنية

وكان دي بوڤي كالغائب عن الرشد يكاد لا يفهم شيئًا مما يقولون ، وكان يشعر بنفوره من العالم أجمع بعد الذي رآه من ابنه ومحبوبته . فلما فرغ ليسوار من الكلام نظر اليه وقال بلهجة الحزن — ياليتني لم أعد الى هنا ، فقد عدتُ ونفسي مفعمة بالآمال ان أرى ابني الوحيد على ما أشتهي ، فوجدتهُ ، وا أسفاه ، خائنًا دنيئًا أخجل به ولا أريد أن ينتسب اليّ

فلما سمع الحضور هذا الكلام بُهتوا ، لان كلمة « خائن » في ذلك العصر كانت رهيبة ، وكانت لا تؤدّي الا معنىً واحداً هو لخيانة الوطنية . وكانت الامة الفرنسوية بأسرها تثور على كل خائن

فتمزّقه تمزيقًا . وكانت المجالس الوطنية اذا سمعت باسم واحد من الخوَنة ، لا تلبث أن تصدر حكمها المبرم عليه بدون محاكمة . وكثيراً ما كانت هـذه الأحكام الظالمة تنفذ في أبرياء لا ذنب لهم سوى ما كان يلصقه بهم أعداؤهم او يقدّمونه عليهم من الوشايات الكاذبة. وقد غصَّت السجون بأمثال هؤلاء ، فكانوا يُساقون الى العذاب والموت ، وليس من يسمع شكواهم او يرثي لحالهم

سمع أعضاء المحكمة الوطنية كلام دي بوڤي فلم يشك أحد منهم في خيانة ابنـه ، وقد اكبروا الامر وحكم كلٌّ منهم في نفسه على جلبرت المسكين بالموت العاجل

وكان دي بوڤي لاهيًا عما امامه بافكار أخرى أنسته كل شيء ، فلم ينتبـه الى ما تهامس به أعضاء المحكمة وما استقرَّ رأيُهم عليه . وكان التأثر والغضب يتفاقمان في نفسه ، فعاد لا يستطيع البقاء بين القوم ، فنهض ودخل الغرفة المُعَدَّة له في الفندق وانطرح على سريرٍ هناك وفي قلبه هيجان « يزوف »

***

وفي اليوم التالي استيقظ دي بوڤي من رقاده وكان قد هدأ خاطره وهمدت شعلة غضبه ، فخجل من نفسه لِما صدر منه بحق ابنه ، وندم على ما فعل ، وجعل يلوم نفسه على تسرُّعهِ واسترساله

في الغضب . ثم ارتدى ثيابه ونظر في المرآة فرأى نفسه اكبر منه بالامس فقال — لا عجب اذا انقلبت محبة لوسي الى ابني ، فهو أَحَقُّ بها مني لانه في مقتبل العمر ونضارة الحيـاة ، ومن العار أن أُزاحمه على فتاة هي من عمره وما أنا الا بمقام أبيها . . نعم اني أحببتُ لوسي بكل عواطفي لأني لم أحب قبلها أحداً من النسآء ، ولـكن الآن يجب أن أُخمد نيران هذا الحب في قلبي ، فقد مضى أوانه ، ويجب أن أصفح عن ابني واباركه

ولما قال ذلك خرج من الغرفة فأبصر فارغو ، وكان حائراً مضطربًا ، فقال له — اريد ان أبعث برسولٍ الى قصري يدعو لي ابني الى هنا

فبهت فارغو وقال — ولـكن ابنك يا مولاي غير موجود الآن في القصر

قال — ويحك ، ماذا تقول ؟ واين هو اذاً ؟

قال — انه في السجن ، فقد أُلقي عليه القبض هذه الليلة

فصَعِق الـكونت لهذا النبأ وقال — كيف هذا ، وما سبب القبض عليه ؟

قال — سببهُ أنت يا مولاي ، أفما شكوتَهُ امس بنفسك ؟

قال — اني لا أفهم ما تقول

قال — عجبًا يا مسيو دي بوڤي ! أفلم تدعه بالامس خائنًا ؟ وهذا سببٌ كافٍ لايداعه السجن

وظهرت الحقيقة امام عيني الكونت فطار رشده . ثم هبَّ كالمذعور وخرج من الفندق وجعل يعدو الى أن بلغ دار الحكومة ، فدخل على أعضاء المحكمة وقال بصوت يرتعش من شدَّة الاضطراب — انكم لم تتفهَّموا ما قلتُهُ لكم بالأمس يا حضرات الحكَّام ! نعم اني دعوتُ ابني خائنًا ، ولكنه ليس خائنًا لفرنسا ، وقد كان حنقي عليه لمسألة أهلية لا دخل للوطنية فيها لانها لا تخص أحداً سواي . فأسألكم والحالة هذه أن تطلقوا سراحه في الحال لانه بريء

فذهل أعضاء المحكمة لهذه اللهجة التي خاطبهم بها دي بوڤي وقال له الرئيس — لا عجب أن تدفعك عواطفك الوالدية اليوم الى نقض ما اتَّهمت به ابنك من الخيانة بالامس ، وهذا امرٌ طبيعي لا يُستغرَب صدورُهُ من أب . غير أن الأمر قد قُضي الآن ولم يبقَ لك الاَّ أن تتجرَّع مصابك بالصبر ، وتتعزَّى لأنك لم تفعل الاَّ ما قضت به الواجبات الوطنية الشريفة . ولو أجبنا طلبك الآن لعادت فرنسا وامتلأت بالخَوَنة كما كانت في العهد السابق

وكان جميع اعضاء المحكمة متحققين خيانة جلبرت ، ولم يحملوا كلام الكونت دي بوڤي الاَّ محمل الحنوّ الوالدي . وكان الكونت يحاول اقناعهم بضرورة الافراج عن ابنه ، فلم يستفد شيئًا

واخيراً قال له ليسوار — لم يبقَ هذا الامر في سلطتنا ، فقد أُرسل المجرم الى مدينة نانت وأصبح أمره في أيدي قضاتها

قال — انهم اذاً يطلقون سبيله متى تحققوا جلية الامر

قال — وهمتَ يا مسيو دي بوڤي لان جلبرت قد أُرسل الى نانت كخائن لوطنه ، ومجلس القضاء هناك لا يدقق فحص قضية من كان نظيره ، بل يزجُّهُ في السجن الىٰ أن يصدر الحكم عليه بالموت. فيجب أن تفتخر الآن لأنك بهذا العمل الشريف قد أشبهتَ ابرهيم يوم أخذ ابنَهُ اسحق ليقدمه ضحيةً على مذبح الله ، وأما أنت فقدَّمتَ ابنك اليوم ضحيةً على مذبح الوطن

فأدرك دي بوڤي خطر موقفه وأيقن بهلاك ابنه . ولم يلبث أن خرج من دار الحكومة آئسًا حزينًا وهو يقول في نفسه : الويل لي ! فقد قتلتُ ابني بيدي . . ولكن لا . . يجب أن أسعى لانقاذه ولو افتديته بنفسي

ثم زفر زفرةً محرقةً وانطلق يجدُّ السير الى منزل ڤيڤيل وقد رسم لنفسه خطَّةً للعمل

وكانت لوسي في حديقة المنزل ولم يكن قد بلغها خبر القبض على حبيبها . فلما رأت دي بوڤي مقبلاً ، ورأت وجهه الممتقع ، ذُعرت ووقفت حيرى . فدنا منها الكونت وقال — عفواً يالوسي! فقد قتلتُ جلبرت بيدي

ثم أخذ يقصُّ عليها حديثَهُ حتى أتى على آخره ، ولوسي تسمع وترتجف وقد تدفقت عَبَراتُها وكادت تسقط مغمىً عليها . فسكَّن دي بوڤي روعها وقال — لا تخشي سوءًا يا لوسي ، لأنني سأتدارك الامر وأظُنُّني لا أعدم وسيلة أُنقذ حبيبَكِ بها . فسأنطلق الآن الى نانت ، ولا يلبث جلبرت أن يخرج من السجن و يعود اليك سالمًا ، ولكنهُ لا يستطيع البقآء في فرنسا بعد الآن ، بل يجب أن يبرحها الى انكلترا . فانتظري عودتَهُ مع والدكِ وكونا على اتمّ الاهبة لمغادرة هذه البلاد عند عودته . فهل تقسمين لي انكِ تفعلين كما قلتُ لكِ ؟

قالت — نعم أقسم لك أن أفعل بحسب ارادتك . ولكن متى تعود أنت الينا ؟

فتنهَّد دي بوڤي وقال — أعود بعد حين .. والآن استودعكِ الله يا لوسي ، وأسألكِ أن تناديني مرةً ثانية بالاسم الذي أثار حنقي بالامس

فقالت له — الوداع يا أبي !
فتناول دي بوڤي يدها فقبلها وخرج صامتًا

*
* *

وفي المسآء كان دي بوڤي في نانت . فبات في بعض فنادقها وقضى النهار التالي في السعي لدى مجلس القضآء مستعينًا ببعض أصدقائه من وجهآء المدينة وأهل النفوذ فيها حتى نال اذنًا بمقابلة المدعو « جلبرت دي بوڤي » في السجن . ولما كان المسآء ذهب الى السجن وأطلع رئيسهُ على ما بيده من الامر . وكان رئيس السجن لا يعرف دي بوڤي ، فنظر الى بفض الاوراق التي كانت امامه وقال — ان الرجل الذي تريد مقابلتهُ قد صدر الحكم بموتهِ غداً صباحًا ، ولما كانت ابواب السجن ستُقفَل بعد عشر دقائق فيجب ان تسرع في مقابلتهِ

ثم سار بالكونت الى غرفة في السجن وقال له — هنا جلبرت دي بوڤي ، فادخُلْ اليه و بعد عشر دقائق أُرسل اليك احد حرَّاس السجن ليخرج بك

وكانت الغرفة كبيرة وفيها جمهور غفير من المسجونين ، ولم تكن مُنارة الاَّ بضوء ضئيل . فأجال الكونت نظره في جوانبها ،

فرأى ابنه واقفاً في ناحية منها . فدنا منه وألقى يده على كتفه . فذعر الفتى عندما رأى أباه واستخرط في البكاء . فانصدع قلب الكونت تأثُّراً وقال له — ان الوقت قصير يا ولدي فلا تُضِعْهُ بالتردُّد والاستفهام بل اسمع ما أقول — خذ ردائي هذا فتدثَّرْ به واجعل قبَّعتي على رأسك وخذ بيدك هذا الجواز واخرج من السجن بقدم ثابتة فلا يعترضك أحد . اغتنم ظلمة الليل وسافر من نانت ، ومتى قابلتَ لوسي تخبرك بما يجب أن تفعل ، فقد بلَّغتُها ارادتي وعهدتُ اليها بانفاذها ، فاياك ومخالفة أمري

وكان الفتى يعي كلام أبيه وهو في اضطراب شديد فقال :

— وهل صفحتَ لنا يا أبي ؟

قال — نعم ، فاصفحا أنتما أيضًا لي

قال — وأنت ؟ متى تخرج من هنا ؟

فتجلَّد الكونت وقال — ان الجواز قد أُعطي لواحد وليس لاثنين . . ولكني سأخرج بعد ذلك ، واكون حرًّا غداً في مثل هذا الوقت

ثم انحنى على ولده فقبَّلهُ بقلب يحترق لهفةً والدموع تسيل من عينيه . ولم يتمكن جلبرت من النطق بكلمة بعد هذا ، لأن الحارس

كان قد دخل ، فسار جلبرت وراءه وهو في رداء أبيه . وكان قد اشتدَّ حَلَكُ الظلام ، فخرج من السجن دون أن ينتبه اليه أحد

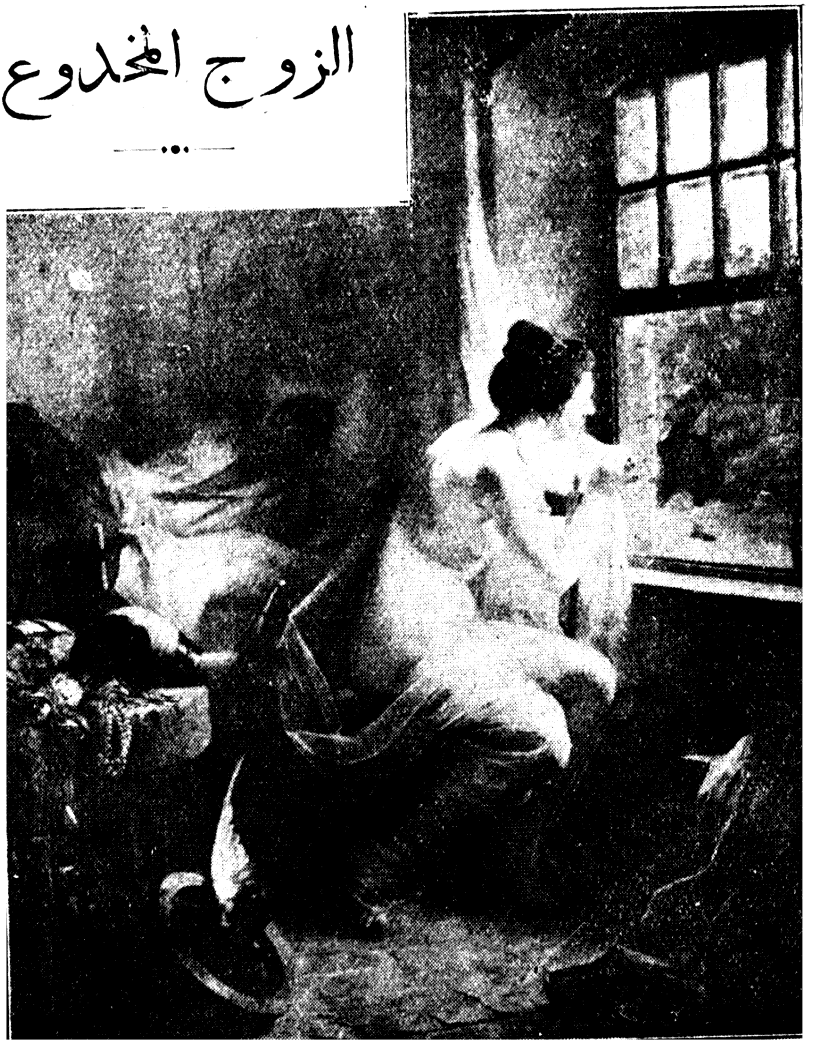
و بقي دي بوڤي مكانه وقد أشرق وجهه فرحًا وقال في نفسه : ان جلبرت قد نجـا ، وأتممتُ أنا ما عليَّ ، فسأموت غداً مطمئنَّ البال ، اذ لم يبقَ لي مطمع في الحياة

وفي صباح اليوم التالي دخل السجَّان وقرأ اسماء المحكوم عليهم بالاعدام في ذلك النهار . وكان كلما سمع أحدُ المجرمين اسمَهُ ينفصل عن رفاقه ، فيتسلَّمه الجلاَّدون . ولما قرأ اسم « جلبرت دي بوڤي » تقدَّم الكونت دي بوڤي برباطة جأش وسلَّم نفسه للجلاَّدين ، فساقوه الى المقصلة ، وكان أمرُهُ مقضيًّا

واما جلبرت فغادر فرنسا بحبيبتهِ وأبيها الى انكلترا ، حيث عُقد لهُ عليها وأقاما يتمتَّعان بأهناءِ لذات الحب وصفاءِ العيش ، وهما يذكران ذلك الوالد الشريف الذي ضحَّى بنفسه فداءً عن ابنه



الزوج المخدوع



كانت الساعة التاسعة مساءً . وكان عزيز واقفًا عند باب منزله في حيرةٍ شديدة لا يدري ماذا يصنع ، أيفتح الباب بالمفتاح الذي معه أم يعود من حيث أتى . .

لم يكن منذ بضع دقائق قلقًا مضطربًا كما هو الآن ، فقد عاد من محطة سكة الحديد وهو رابط الجأش قوي الارادة موقن كل الإيقان أن عمله هو الصواب بعينهِ

ولكنه ما كاد يبلغ المنزل حتى استحوذ عليه القلق وتملَّكهُ الاضطراب وشعر بجزع وخوف ارتعش لهما قلبه وتحلَّب العرق البارد من جبينه

كان عزيز يحب زوجته سلوى حبًّا أشبه بالعبادة . وكانت هي من المشهورات بالجمال الرائع واللطف الكثير . وكانا كلاهما في سعة من العيش ، وقد مضى على زواجهما ثلاث سنوات تقضَّت بالهناء والصفاء . وكان عزيز يتعاطى فن المحاماة وقد ذاع صيته وملأت شهرته كل ناد

وكان حبُّهُ لزوجته يزداد مع الايام ، غير انه شعر في المدة الاخيرة ببعض شكوك دبَّت الى نفسهِ فنغَّصَتْ هناءه وأورثته عناءً شديداً وقلقًا لا يُحتَمل . وما زالت هذه الشكوك في طهارة زوجته واخلاصها له تتجسَّم في ذهنهِ حتى أصبح يغار عليها حتى من خطرات النسيم ، وبات من ذلك الحين يترصَّدها ويراقب جميع حركاتها وسكناتها

ولما عاد هذا المساء الى منزله ، وفي نيته مفاجأة زوجته بحضوره

وقف حائراً خائفًا نادمًا على ما فرط منه لائمًا نفسه على استسلامها للارتياب والشك ، وكاد يعود على أعقابه الى المحطة لولا انه خشي أن تكون الخادمة قد لمحته من بعض النوافذ وأبصرت في يديه حقيبة ثيابه ، فلم يستصوب الرجوع

وكان قلبه يخفق وافكاره تضطرب وهو يناجي نفسه بهذا الكلام : . . . وماذا أقول لسلوى اذا دخلتُ ولم أرَ عندها أحداً وهي تظنني مسافراً ولا تنتظر رجوعي الا بعد ثلاثة أيام ؟ وماذا أفعل اذا رأيتُ عشيقها جالسًا اليها يُطارحها أحاديث الغرام ؟ . . كلاَّ . كلاَّ . ان هذا من المحال ، لان سلوى من ربَّات الصيانة والعفاف وهي تترفَّع عن كلّ حبٍّ لسواي ، فلا أظنها تخون عهدها لي وتدوس واجباتها الزوجية بقدميها . . آه يا ربي ، ماذا فعلتُ ، وبأي كلام أعتذر اليها الآن ؟ انها ستدرك من مفاجأتي هذه ما جال في خاطري بحقها من الظنون والرِيَب ، وسيكون لذلك أسوأ وقع في قلبها . . انها ستنفر مني ، وستذرف الدموع السخينة . . آه لو كان في الامكان الابتعاد عن هذا المكان لبقي أمري مكتومًا . .

وما زال يتردَّد بين العزم على الدخول والنكوص عنه حتى غلب عليه الاقدام على الأمر ، وكان المفتاح في يده ، فعالج به الباب بهدوء فانفتح ، ودخل عزيز وقد زاده دخوله اضطرابًا

وكانت الخادمة قد شعرت بدخوله فخرجت من غرفتها ولم تلبث أن تراجعت عنه الى الورآء مذعورة وهي في حيرة ووجل . فلم يكلمها عزيز شيئاً وسار توًّا وحقيبته في يده الى مخدع زوجته

* * *

كانت سلوى وحدها في مخدعها وقد اضطجعت في سريرها وأغمضت عينيها وامامها على منضدة بجانب السرير كتاب مفتوح كانت بلا شك تطالعه من قبل

نظر عزيز الى زوجته وهي في تلك الحال ورأى في وجهها الجميل علائم السرور والدعة وخلو البال ، فشعر كأن صاعقة انقضَّت على رأسه وندم أشدَّ الندم وأراد أن يخرج من المخدع دون أن تشعر به . ولـكنها فتحت عينيها وذُعرت عند ما رأت زوجها ، ولم تلبث أن جلست في فراشها وقالت — مَن هذا ؟ أ أنت يا عزيز ؟ قل بالله ماذا جرى ؟

فأجابها بصوت يرتعش من شدة الاضطراب — لم يجرِ شيء يا عزيزتي سلوى ، فاطمإني

فقالتَ ، وقد اتسعت حدقتاها — كيف لم يجرِ شيء ؟ قلْ ولا تُخفِ عني أمراً

قال — أبطأتُ عن ادراك القطار ، فسار قبل وصولي

فنظرت اليه شزراً وقالت — لا يمكن أن يكون هذا . فقد أنبأني الخادم الذي شيَّعك بوصولكما الى المحطة قبل قيام القطار ، وانه ابتاع لك تذكرة السفر بنفسه ، وودَّعك وأنت في احدى المركبات

فذُعر عزيز وعاودته هواجسه بشدة أعظم وقال — تقولين ان الخادم قد أنبأكِ بجميع هذه التفاصيل ، فالظاهر انكِ سألتِهِ ذلك

قالت — نعم وأي حرج عليَّ في سؤالي ؟ أليس من واجباتي أن أسأل عن راحة زوجي اذا كان مسافراً وأنتظره حينما يعود ؟ .. فقل لي الآن ، لماذا عدلتَ عن السفر وجئتَ اليَّ في مثل هذا الوقت ودخلتَ المنزل دخول اللص ؟

قال — عجباً يا سلوى ، ولماذا أزعجكِ أمر عودتي ؟

قالت — أجبني أولاً ، لماذا لم تسافر الى حيث كنتَ قاصداً ؟ فقد انبأتني بضرورة سفرك وعدم تمكنك من إرجائه إلى فرصة أخرى

قال — نسيتُ هنا بعض أوراق لا بُدَّ من أخذها

قالت — لا أصدق ذلك لاني قد رتبتُ لك جميع الاوراق التي تحتاج اليها في هذا السفر ووضعتها بنفسي في الحقيبة بين ثيابك

قال — أشكر لكِ عنايتكِ

قالت — نعم اني رتبتُ لك كل ذلك لأتحقق عدم رجوعك الى البيت قبل ثلاثة ايام

قال — ما هذا المزاح يا سلوى ؟

قالت — ليس في ذلك شيء من المزاح . فأنتَ لم تمزح حينما عدتَ في مثل هذه الساعة من الليـل لتفاجيء زوجتك بحضورك وترى بعينيك عشيقها عندها

ثم احتدمت غيظًا وقالت ، وقد تطاير الشرر من عينيها — نعم يا عزيز . لا يكفي انك ظننتَ بزوجتك الامينة سوءًا وارتبتَ باخلاصها وطهارتها بل اتهمتها بالخيانة وعدتَ في مثل هذا الوقت من الليـل وفي رأسك من الهواجس ما ترتعد له الفرائص وتنهاع لهوله القلوب . . . ان شيطان الغيرة قد خيَّل اليك ما لا أستطيع أن أتصوَّره ، فظننتَ اني سأغتنم فرصة غيابك للاجتماع بمن احبّ . . فويل للرجال ما أقسى قلوبهم وما أشدّ استسلامهم للاوهام

فنظر عزيز الى زوجته نظرة ذل وانكسار وهو كمجرم ينظر الى القاضي مسترحمًا أن يرفق به في حكمه ، وقال — ما هذا الكلام يا سلوى ؟

قالت ، وهي تزداد احتداماً واضطراباً — أقول ذلك لاني تحققتُ غايتك من رجوعك على هذه الصورة . فقد جئتَ لتباغتني وترى عشيقي عندي

ولما قالت ذلك رفعت منديلها الى عينيها فمسحت منهما دمعتين محرقتين . فشعر عزيز كأن سهماً قد اخترق فؤاده وقال — كفّي بالله يا سلوى ولا تزيدي في عذابي

قالت — لا . لا أسكتُ قبل أن تبحث جيداً عن هذا العشيق في غرف المنزل . فقد كان جالساً اليَّ منذ هنيهة ، ولما شعر بقدومك دخل فاختبأ في غرفة الثياب التي يؤدي اليها مخدعي . فادخل أيها القاسي الظالم واقبض عليه ثم عُدْ واغمد خنجرك في صدري او اسحق رأسي بنعليك . . آه يا عزيز ، اني لم أُحتقَر وأُهَن في حياتي كما احتُقرتُ وأُهنتُ الآن

وكان عزيز عندما سمع هذا الكلام قد تلجلج وارتجفت شفتاه ، فنظر الى زوجته مستعطفاً وهو يؤنب نفسه على هذا الصنيع ولا يستطيع كلاماً

فصوَّبت سلوى اليه نظرة نشبت فيه كسهم ، وقالت له بلهجةِ الآمر — ما بالك واقفاً ؟ ادخل حالاً الى غرفة الثياب ثم الى

ردهة الاستقبال ثم ابحث في جميع غرف المنزل ، فانك ستجده لا محالة

فتنهد عزيز وأمسك بيد زوجته وصاح — العفو يا حبيبتي ، العفو يا زوجتي الامينة ! فقد أسأتُ اليكِ كثيراً

ثم خنقته العبرات . . .

فجذبت سلوى يدها منه وقالت بغضب — دعني الآن وشأني

قال — ألا تعفين عني يا سلوى ؟

قالت — ربما اعفو فيما بعد . أما الآن،فاخرج ودعني وحدي

فخرج عزيز ودخل غرفته واقفل الباب والدمع ملء عينيه والحزن ملء نفسه . . .

* * *

و بعد قليل ، وقد سكنت كل حركة في المنزل وأُطفئت الانوار ، فتحت سلوى باب غرفة الثياب ، فخرج منها شاب جميل الصورة بهي الطلعة وقد طفح وجهه سروراً و إعجاباً ، فمدَّت اليه سلوى يدها فقبلها بلهفة وانسلَّ من مخدعها ثم من المنزل دون أن يراه او يشعر به أحد غير تلك « الزوجة الامينة » . . .



محاورة بين الآلهة

إلتقى الإله أپولون والإله هرمز في أحد الامسآء الجميلة على صخور جبل بنيكس ، فوقفا على سفح جبل أثينا وأخذا يجيلان الابصار في محاسن هذه المدينة الباهرة . وكان الجوُّ صافيًا والشمس تمشي الهوينا الى ان غابت في بحر ايونيا ، وعقبها الشفق المسائي فأنار قمم الجبال . وكانت أسراب الطير قد تفرّقت وأوى كلٌّ الى عشهِ ، وعاد الناس جموعًا ووحدانًا الى المدينة بعد ان قضوا سحابة نهارهم في الحقول والمروج . وكانت قطعان الماشية تتبعهم طافرةً ، يسوقها جماعة الرعيان ، وقد طفحت الوجوه غبطةً وابتسمت الثغور هناءً

وكانت العين الكبرى في المدينة غاصة بالعذارى اللواتي وردنها بجرارهنَّ ليستقينَ ، وما فيهن الا كل من تقيّد الابصار بحسنها وتسترقُّ القلوب بجمالها ،وقد حمل النسيم اللطيف الى الالهين من صدى أحاديثهنَّ ونغماتهنَّ الشجية ما استوقفهما وحبّب اليهما التأمل فيما يسمعان ويبصران . وكان اپولون يعتقد ان المرأة ألطف المخلوقات وأرقُّها ، فالتفت الى هرمز وقال — هل رأيتَ اجمل من الأثينيات ؟

فقال هرمز — لا ، لم أرَ اجمل منهنّ . ولا أصدق ، ولا ألطف. ولا عجب لأنهنَّ في حِمى الالهة « بَلاَّدا »

وعاد الالهان يسمعان صدى الاصوات ، وكان الشفق المسائي في أثناء ذلك يتضاءل تدريجًا والحركة في المدينة تقلُّ وأبواب المنازل توصد ، وما هي الا هنيهة حتى خيَّم السكون وساد الظلام . غير أن البدر لم يلبث ان ظهر من الارخبيل وراح يسبح في عنان السماء فبدَّد دياجي الظلمة وأنار الكون بضيائه الفضي

فقال اپولون — ان الالهة أثينا قد أحسنت عملاً باختطاطها المدينة في هذه البقعة لانها من أجمل بقاع الارض وأطيبها

فأجاب هرمز — ولا غرو ، فهي مصدر الحكمة وأمُّ الفلسفة ، وليس لاحد أن يفوقها أو يجاريها في حسن الذوق والإبداع ، وهذه

ما حمل زفس على الافتتان بها ، وقد سماها ابنتهُ الحبيبة ، وأحلها المحلَّ الاسمى في العالَم السرمدي

قال — فهي والحالة هـذه مثال الصلاح والجمـال كأختي « أرتميدا »

قال — بل قُلْ كبناتها الاثينيات

قال — لعلك تتعمد ذكر الاثينيات لغاية في نفسك لم تخفَ عليَّ ، فكأنك تقصد بذلك إثارة عواطفي

فتبسم هرمز . واستأنف أپولون كلامه فقال محتـدمًا — وهل تزعم ان من الاثينيات مَن اذا أحببتها تُظهر لي الجفآء والصدّ ؟

قال — نعم . وأنا واثق كلَّ الثقة مما أقول

قال — ولكن هذا من المحال . . فما من امرأةٍ في الكون الا وتُؤخذ ببديع أشعاري وسحر نشيدي وموسيقاي

فهزّ هرمز رأسه وقال — أنت واهمٌ يا سيدي كثيراً . . لا من النسآء من تكون ثابتة في محبة بعلها ثبوت الجبال أو أشدّ ، فا يتسنى لاحد ، ولو إلهًا مثلك ، ان يثنيهـا او يستغويها . . اقو ذلك وأنا مستعدٌّ ان أراهنك على ذلك أي رهان أردتهُ

فضحك أپولون وقال — لا بأس ، وأنت الخاسر لا محالة فاذا غلبتك وفزتُ بمناي فعليـك أن تؤدّي اليَّ قطيعًا كاملاً الثيران الطو يلة القرون

قال — أما أنا فاسمع شرطي تفصيلاً . . فقد أرسلني مرةً والد زفس لقضآء بعض الامور . و بينما كنتُ محلقًا في الفضآء أبصرد « لَمباسيا » الجميلة تحرس مع رفيقة لهـا قطعانك ، فهمتُ بها ح كدت أفقد رشدي . . وعليه فاذا غلبتك وفزتُ بالشرط تهب لمباسيا لاسعد بها

قال — رضيت ، ولو كان في ذلك ما يشقُّ عليَّ كثيراً ، لا أهوى لمباسيا كما تهواها أنت ولا أطيق فراقها



فتلألأت عينا هرمز فرحًا واستبشاراً وقال - ومن شروطي ايضًا ، ان المرأة التي تروم إغواء بحبك واختبار قوة تأثيرك فيها أختارها أنا

قال — اختر من شئت ، بشرط أن تكون جميلة

قال — هذا مما لا ريب فيه

قال — فلا تُطلْ اذاً زمن التفكير ، فقد عيل صبري

قال — لقد اخترتُها ، وانك ستثني على حسن ذوقي

قال — ومَن تكون من النسآء ؟ أعذراء أم ذات بعل أم أرملة ؟

قال — ذات بعل . وأما العذراء أو الارملة فانك قادر أن تُغريهما في كل وقت بالوعود الخلاَّبة . .

قال — حسن ، فما اسم التي اخترتَها ؟

قال — أريثيلا . وهي زوجة خبَّاز

قال — لقد أحزنتني بذلك . فمن أين لامرأة الخبَّاز الجمال الفتَّان؟

قال — وماذا يمنع أن تكون امرأة الخباز جميلة ؟ فهل تعتقد ان الجمال محصور في طبقة النبلآء ؟ . . هذا وهم يا سيدي . . وانك ستتحقق صدق كلامي متى وقع بصرك على أريثيلا ، فهي أجمل صورة وُجدت على وجه الارض . . وهي هذه الليلة وحدها في منزلها ، لأن زوجها سافر بالأمس لقضآء بعض أعماله

قال — اذا كانت كما تقول فهيَّا بنا

قال — ولكني أسألك قبل الشروع في العمل أن تعدني انك لن تتوسل للحصول عليها الاَّ بالوسائل الشريفة

قال — كن براحة بال من هذا القبيل

* * *

ولم يكن الاّ القليـل حتى هبّت ريح لطيفة حملت الاآهين من جبل بنيكس الى ما فوق أحد المنازل في المدينة . فرفع هرمز بقوته سقف البيت ، كما ترفع المرأة غطاء القـدر في أثناء اصلاح الطعام ، وقال لأپولون — أنظر !

فنظر أپولون وجمد

لم تلد بلاد اليونان زهرةً جميلةً كهذه المرأة . فقد زانتها الطبيعة بكل ما لديها من حلى الجمال والكمال . . . وكانت ساعتئذٍ جالسة الى مائدة من مرمر تكتب بعض ما يتعلق بأعمال زوجها من حساب الخبز . بيدَ أنهـا كانت من وقت الى آخر ترفع رأسها الى فوق كأنها تناجي نفسها أو تتذكر ماذا ينبغي لهـا أن تكتب ، فتبدو عيناها الذابلتان ، وقد انبعث منهما نور يسحر القلوب ، وحرستهما الأهداب الطويلة كأنها درع من الزّرد تمنع تينك العينين عن ارسال نبالهما القاتلة . أما وجهها فكان أنقى من بياض الثلج ، متورّداً كالفجر ، وكانت شفتاها حمراوين كالأرجوان ، وشـعرها ذهبيًا مسترسلاً على ظهرها . وعلى الجمـلة فقد كانت هذه المرأة كالزهرة ، أو كالنور ، أو كالأنشودة . . .

وكان أپولون ينظر اليها بشغف وقد تنبهت كل حواسّه وأحسّ بأن هـذه الحسناء قد ملكت لبّه وسبت فؤاده ، فألقى رأسه على

كتف هرمز وهمس في أذنه قائلاً — انها آية في الجمال والبهاء ، وقد أحببتها ولا أريد سواها

فتبسم هرمز تبسم الظافر

وظلت أريفيلا تكتب . وكانت تنشد بين كل فترة وأخرى بعض الانغام بعذوبة صوت كان له في قلب أپولون أشد تأثير . غير ان هرمز لم يدعه يتمتع طويلاً بهذا المنظر ، بل أعاد السقف الى ما كان عليه ، فحُجبت تلك الفتّانة عن الابصار وعاد أپولون لا يراها. وبانحجابها حُجبت الكواكب واختفى القمر وأظلم الكون وادلهمّ ..

فقال هرمز — ومتى تريد أن تباشر العمل ؟

فأجاب أپولون — الآن . فهيا بنا

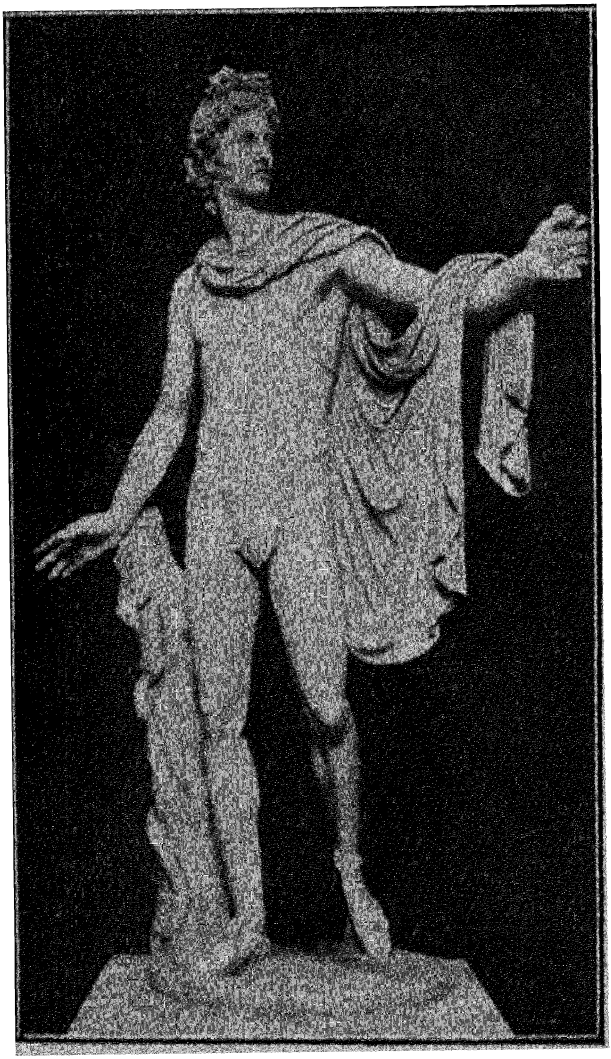
ثم نزلا يتمشيان حول ذلك المنزل ، وقد ساد السكون وانطفأت المصابيح في المدينة . فوقف أپولون ورآء المنزل ، منزل أريفيلا ، وهو يعلل نفسه بالفوز ، معتمداً على قوته وتفننه ومتوقعًا أن لا يجد صعوبةً في الاستيلاء على قلب هذه الحسناء . وما عتم ان انشد بصوت رخيم أنشودة مطربة سحرية ردّدها الهواء والفضاء . وكانت اريفيلا قد رقدت في سريرها ، فانتبهت لدى سماعها هذا الصوت وقالت بتضجر — مَن هذا الذي جاء يعكّر صفاء الناس في مثل هذا الوقت؟

فناداها اپولون بعذوبة ساحرة — هذا أنا أيتها الحسناء ، الآله أپولون ! وقد جئتكِ من أعالي جبال الآلهة ، حيث كانت جميع آلات الموسيقى تطرب بي بعزفها الشجي . فتركتُ كل ذلك وجئتكِ يا أريثيلا محباً والهاً . فقومي واستقبليني ايتها الحسناء ، وافتحي لي قلبكِ لانال فيه الراحة والسعادة

فأجابته أريثيلا من داخل — خَفْ غضب الآلهة يا هذا . واعلم اني ذات بعل لن أعدل به الدنيا بأسرها ولو أُهرقت دمائي . فاغرب من هنا أيها الرجل ودع الناس في طمأنينتهم

فتقبَّض أپولون لدى سماعه هذا الكلام الجافي وأنشد — اعطفي عليَّ أيتها الجميلة بين النساء ، وصدّقي مقالي ، أُحْيِكِ الى الابد وتمجدي اكثر من جميع الآلهات المالكات في السماء . اني أهب لكِ الأبدية يا أريثيلا ، وبكلمة واحدةٍ أجعلك أجمل نساء العالم ، فيغبطكِ البشر اكثر من كل ملكة في بلاد اليونان . استقبليني بما فُطرتِ عليه من اللطف والرقة ، وأسكنيني في شغاف صدركِ ، فأختطف من البحر زرقتهُ ومن الفجر أرجوانهُ وذهبهُ ، ومن النجوم نداها ، ومن هذه جميعها أصنع لكِ أثوابًا سحرية فتفوقين كل البشر . .

ولما كان إلٰه الشعر يُنشد ، هدأت جميع الأملاء السماوية



والأرضية لتسمع مقاله ، وقد سكن هدير البحر وزفير الأمواج ووقف القمر جامداً . . ولما فرغ الآله من نشيده هبَّت ريح لطيفة وطافت بهذه الانشودة في جميع بلاد اليونان ، فأصبح كلٌّ من سمعها من الاطفال في سريره شاعراً منذ طفوليتهِ . .

أما أريفيلا فاحتدمت غيظاً وصاحت بأعلى صوتها — يالك من مجَّان ثرثار ! مَن أنت يا هذا حتى جئتنا في مثل هذا الهزيع من الليل تتاجر بالنَّدى والكواكب ! ! وهل تظن أيها الرجل ان أريفيلا الأمينة لبعلها تنصاع لكلامك وتنقاد لهذيانك فتدنّس فضيلة صيانتها

وطهارة عفافها ؟ . . ان الموت أقرب اليَّ من أن أغترَّ بشيءٍ مما تقول . فارعوِ عن غيك وعد أدراجك ، لأنك لن تنال قلامةً من ظفري ، بل لن أسمح لك بتقبيل الارض التي أدوسها

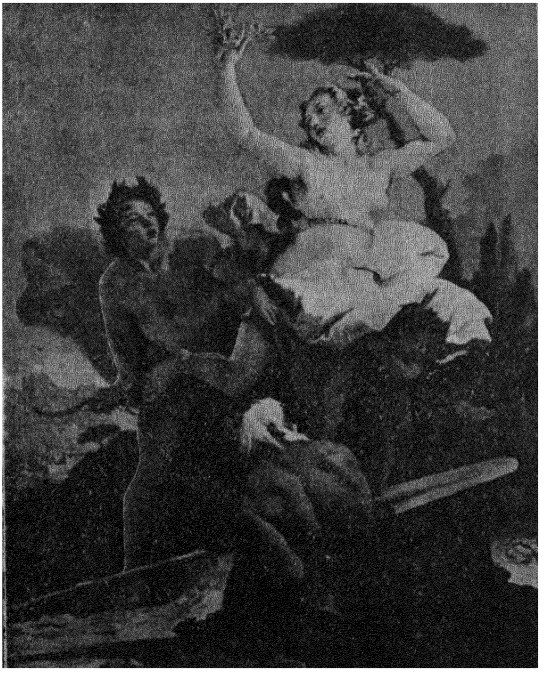
فقال اپولون وهو يكاد يذوب جوىً — آه أيتها القاسية ! اسمحي على الاقلّ ان أفوز بلذة مشاهدتكِ ونعيم مجالستكِ . إرثي لي واشفيني من عناء ما يشقيني

فصاحت أريفيلا بصوت يتهدَّج من شدة الغضب — قلتُ لك اني لن أنكث عهود الصيانة ولن أجحف بحقوق الزوجية ولو حملتَ اليَّ كنوز العالم ، وهذا آخر كلامي لك فلن تسمع شيئًا بعد

ولم يكن اپولون يتوقع مثل هذه المقاومة ، ولكنه بقي يعلل نفسهُ ببعض الأمل ، فجعل يترضى أريفيلا ويستعطفها ويعدها الوعود الشتى ، وهي لا تجيبه بكلمة . فلما رأى أن لا فائدة تُرجى من وقوفه استشاط غضبًا وعاد عن المنزل وهو كاسف البال يتهادى كالسكران او كالخارج من موقعة قتال وجهاد . .

وكان الآله هرمز بانتظاره على احدى القمم المجاورة ، فلما رآه عائداً على تلك الحالة من الفشل والهوان ضحك حتى استلقى ، ثم قام لاستقباله وقال له متهكماً — انه يسوءني جدًّا يا سيدي أن تُغلَب ، وأن تقهرك امرأة !

فقال اپولون وهو يتنهد — يا سوء ما جنيتـهُ عليَّ يا هرمز بايقاعي في شرَكٍ كنتُ في غنىً عنـهُ ، ولذلك فلن تحصل على لمباسيا الجميلة



قال — أنت الآن في حالة الهياج الشديد ، فقل ما تشآء ،

ولكنك اذا لبثتَ مصرًّا على عزمك فلا يبقى لي الاَّ ان أرفع دعواي الى الآلهة زفس ، وهو وحده ينصفني

قال — حسن . وأنا لا أمانع في ذلك ، فهلمَّ بنا اليه ... ثم سارا معًا . وكانت ظلمة الليل قد أخذت في الاضمحلال ، فانبلج الفجر وانهزمت جيوش الظلام ، ولم تلبث الشمس ان برزت من جهة الارخبيل . وكان زفس قد قضى تلك الليلة على قمة جبل إيدا . فلما دنا منه اپولون وهرمز سجدا له وأدَّيا التحيات المفروضة ، ثم سرد له إبنهُ هرمز الخبر بتفاصيله ، فقال زفس لاپولون — وكيف استطاعت هذه المرأة أن تعصيك وتهينك ؟

فقال اپولون — لقد أهانتني وصدَّتني بمنتهى الجفآء والغلظة ، وكل ذلك بمساعي هرمز ، فانه هو الذي عمل على كيدي ودبّر لي هذا الشرَك . فأسألك يا سيدي ان لا تزيد في اهانتي وتحقيري

فأطرق زفس قليلاً وقد قطب وعبس ، فارتعد الجبل وتشققت الصخور واضطربت الاشجار في الغابات ، فخاف الالهان ووقفا ينتظران الحكم وهما يرتعشان

ولم يكن الا القليل حتى رفع زفس رأسهُ وقال لابنه هرمز — اخدع الناس ما شئتَ و بكل ما في وسعك من أساليب الحيَل ، وأما الآلهة فلا تتعرَّض لها . . نعم ان اپولون قد أُهين ، وقد أهانتهُ امرأة ، غير

انها لم تجرأ على ذلك الاّ لأنها تحب آخر ، تحب زوجها ، فلو لم يكن قلبها مشغولاً به لانقادت لأپولون صاغرةً . . . ان كثيرات من النسآء يحببنَ اكثر من واحد من الرجال ، غير أن هؤلاء لا يعرفنَ معنى الحب ، فهنَّ كالفَراش . . . ، أما أريثيلا فهي امرأة شريفة عرفت حقوق الزوج وواجباتها نحوه ، فلا يقدر أحدٌ ، ولو كان إلهاً واكبر من اپولون ، ان يُغويها أو يثنيها عن جادَّة الامانة والعفاف.. وبما أنك يا هرمز قد خدعتَ اپولون وأغريتهُ ، مع علمك بكل هذا ، فلن تنال لمباسيا . . هذا هو القضآء ، فانصرِفا بسلام





الجائزة

— أهذا كل ما اردتَ ان تقوله لي يا أبي ؟

— نعم يا عزيزتي . فيجب أن تنالي الجائزة الاولى ، والاَّ فلن تفوزي بأمنيتكِ

— إذاً فمستقبلي متوقف على نيل هذه الجائزة ؟

لا شك في ذلك . ولا اظنكِ تحاولين أن تثنيني عن عزمي الاَّ اذا أظهرتِ منتهى الحذق والبراعة في دروسكِ الموسيقية وأحرزتِ قصب السبق على رفيقاتك في الامتحان الاخير ، و برهنتِ لي على انكِ لم تضيعي هذه السنين في الدرس والتحصيل سدىً اذ بدون ذلك لا تحصلين على رضاي . ولما كنتِ نادرة المثال بمواهبك وذ كائكِ وشغفكِ بالموسيقى وسائر الفنون الجميلة

فليس بدعًا أن تدركي ضالتكِ ، إلاَّ اذا تهاونتِ في الاستعداد للامتحان وجعلتِ لغيرك سبيلاً للسبق والفوز ، وحينئذٍ فاللوم كل اللوم عليكِ وحدكِ

— انا لا أجهل قوة ارادتك وعدم تحولك عما تصمم عليه ، فليكن ما تريد

— ولكن لا تنسي اني لا اريد لكِ الاَّ الخير والهناء لانكِ وحيدتي وموضوع آمالي ، وقد وعدتك برضاي عن اقترانك بجان اذا عدتِ اليَّ ببشرى فوزك ، والاَّ فستخيب آمالي وآمالك ايضًا ، وتُقطع كل صلة لك بمن مال اليه قلبكِ

فصُبغ وجه « ادما » بحمرة الخجل وأطرقت وهي تتدبَّر كلام أبيها وتخشى أن يعاندها القدَر فيحول دون بلوغ أمنيّتها ما ليس في الحسبان

وعاد الاب الى الحديث فقال — وهل أرصدتِ الآن كل شيء للسفر الى المدرسة ؟

— نعم ، ولم يبقَ الاَّ أن أستودعك الله ، وأتدرَّع برضاك ، وأتزوَّد بدعائك

فقبَّلها ابوها . ثم قام فشيعها الى محطة القطار وعاد بعد ذلك وهو موقن ان ابنته لا تلبث أن تعود اليه باكليل الغار

* * *

وكانت ادما في الربيع العشرين من عمرها ، وهي غيداء هيفاء ، أفرغ الله عليها حلة الجمال . وكانت متوقدة الذهن بارعة في الايقاع على البيان وغيره من آلات الطرب . وقد درست ذلك في مدرسة عالية من مدارس الفنون الجميلة ولم يبقَ الاَّ أن تتقدم الى الامتحان الأخير لتنال الشهادة النهائية . وكانت تدرس الفن الموسيقي مع أترابٍ لها . ولم تكن تخشى أن يسبقها منهنَّ الاَّ واحدة تدعى ماليا كانت ادما تحبها وتثق بها وقد باحت لها بسرّ قلبها

وكان جان حبيب ادما ، من اقرباء ماليا . وهو فتىً في مقتبل العمر جميل الصورة ذكي الفؤاد . وقد تخرَّج في احدى مدارس الحقوق واحترف المحاماة . وكان يسكن في المدينة التي تعلمت فيها ادما ، فتعرَّف بها وتحابَّا وتعاهدا على الامانة والوفاء

وعلم والد ادما بذلك . وقد رأى جان وخَبَر أحواله وشعر بارتياح اليه . نعم انه لم يكن من ذوي الأموال ولكنه كان على أعظم جانب من الكياسة ودماثة الاخلاق والاستعداد للعمل والسير في سبيل النجاح . وكان هذا الوالد يحب الفنون الجميلة وليس له من أمنيَّة الاَّ أن تفوق ابنتهُ أترابها . وقد بلغ شغفه بها أن شَرَط عليها ذلك الشرط الغريب ، وهو أن لا يزفها الى جان الاَّ

اذا أحرزت شهادة الامتياز. وكان من عادة تلك المدرسة أن تمنح أبرع الطالبات في الموسيقى جائزة مالية غير قليلة ، فأحبَّ والد ادما أن تكون ابنتـــه هي صاحبة هذه الجائزة لِما يترتب على ذلك من الشهرة والمكانة في المجتمع من جهة ، ولما فيه من تحسين الاحوال المعاشية من جهة أخرى

وكانت ادما قد شُغفت بالموسيقى منـــذ نعومة أظفارها ، حتى أصبح هذا الفن جزءاً من نفسها ، به تحيا وتتنفَّس ، مدفوعة اليه بعوامل غريزيَّة فيها . ولم تكن تفكر وهي تدرسه انها تفعل ذلك لنيل الجائزة، بل كانت تدرسه لشدة رغبتها فيه وهيامها به . ولم تستصوب شرط أبيها عليها ، إذ لا علاقة للجائزة بالحب المتبادل بينها وبين جان ، لأن الحب في وادٍ والجائزة في وادٍ آخر . ولكنها أذعنت لارادته وقبلت الشرط

تمثلت ادما كل ذلك وهي عائدة الآن الى المدرسة تحمـــل ما كتبته من الانشآء الاخير في موضوع الموسيقى — وهو موضوع الامتحان النهائي ، وقد بذلت جهدها فرسمت الموضوع أحسن رسم وكتبته بما لا مزيد عليه من العناية والاهتمام . ولكنها تصوَّرت وهي في مركبة القطار احتمال عدم فوزها بالجائزة ، وتصوَّرت رجوعها الى بيت والدها بالخيبة والفشل ، فجزعت ، واشتدَّ جزعها لتصوُّرها امكان خسارة الحبيب الى الأبد

وما زالت هذه الافكار تتنازعها الى أن بلغ القطار المدينة. وبرحته ادما مسرعة الى المدرسة حيث وجدت رفيقاتها الطالبات قد سبقنها اليها فأنست بهنَّ وتبدَّدت من مخيلتها تلك التصوُّرات.

* * *

وكانت الطالبات يحببنَ ادما لما كانت عليه من دماثة الاخلاق ولين الجانب، بقدر ما كنَّ يكرهنَ ام اليا لكبريائها واعتدادها بنفسها. وكنَّ يعتقدن أن الجائزة يجب أن تحرزها احدى هاتين الطالبتين، ولكنهنَّ كنَّ يتمنيَّن أن تنالها ادما

* * *

وخلت ادما في احدى غرف المدرسة وأخرجت أوراقها التي كتبتها وأخذت في مراجعتها. وانها لكذلك اذ دخلت عليها ام اليا وهي تهشُّ لها وتبشّ، ثم جلست الى جانبها وأخذت تجاذبها أطراف الحديث في موضوع الامتحان وهي تنظر اليها تارة والى أوراقها تارة أخرى، لكي تطلع على ما كتبته. وكانت ادما مشغولة الذهن بجان تريد أن تسأل أماليا عنه ثم تحجم وتغيّر مجرى افكارها. غير أن اماليا لم تدعها طويلاً في هذا التردّد فقالت لها — كنتُ أودُّ أن لا اخبرك شيئًا عن جان في هذه الدقائق وأنتِ أحوج فيها الى الراحة والانصراف الى الدرس والمراجعة، ولكن الامر في غاية الاهمية وهو لا يحتمل التأجيل ولا يسعني السكوت عنه

فذعرت ادما وقالت — وما الذي جرى ؟ أخبريني ولا تخفي
ي شيئًا

قالت — ان جان سقط وهو يلعب مع فريق من اصحابه
رة القدم فانكسرت يدُهُ

فصاحت ادما — ومتى حدث ذلك ؟ وكيف هو الآن ؟

قالت — حدث ذلك منذ اربعة أيام وقد علمتُ اليوم أن
الته تنذر بالخطر . فقد ذهبتُ صباحًا لعيادته فقابلتني الممرّضة
ناك وأخبرتني انه لم ينم ليلة أمس وقد قرَّر الاطبآء ان دمه قد تسمم

فاضطربت ادما اضطرابًا شديداً ووثبت من مكانها كمن
غته أفعى ، وقد ألقت أوراقها على المائدة الى جانب أوراق ماليا ،
وقفت حائرة لا تدري ماذا تفعل ، وهي تكاد تفقد عقلها

وكأن ماليا انتبهت الى أمر فوقفت أيضًا وضربت بكفها على
جبينها وقالت — وقد أنستني حيرتي أمراً مهمًّا جدًّا أخشى أن
كون له أسوأ تأثير في صحة جان

— وما هو هذا الامر الذي نسيته ؟

— ان الممرضة دفعت اليَّ صفة دوآء وقالت : « يجب أن

ترسليه حالاً من احدى الصيدليات» . . ولا تزال صفة الدوآء معي، ولـكن فات الوقت الآن

فزفرت ادما زفرة حارَّة وقالت — وكيف فات الوقت ؟

— لاني لا أستطيع الآن أن أبتاع الدوآء المطلوب ، اذ قد حان وقت الامتحان

فشعرت ادما كأن حجارة المدرسة تتساقط على رأسها . وتناولت قبعتها وأوراقها وقالت لاماليا — هاتي صفة الدوآء، فسأقوم أنا بقضآء هذا الامر ولا ألبث أن أعود

فأشرق وجه اماليا سروراً وناولتها الرقعة وهي تقول – بارك الله في همتكِ يا أدما . هاكِ الرقعة فانطلقي ، ولـكن اياك أن تتأخري عن موعد الامتحان

ولما خرجت ادما من الغرفة ورأتها رفيقاتها على تلك الحالة وهي مسرعة في سيرها لا تلوي على شيء ، دهشن وسألنها فقالت – ان أمراً في غاية الاهميَّة يدعوني الى التغيب قليلاً

فقالت احداهنَّ — ولـكن ساعة الامتحان قد دنت

وقالت غيرها — ألا تعرفين ان استاذ الموسيقى لا يقبل أوراقكِ و يسمح لك بدخول غرفة الامتحان اذا تأخرت ولو بضع دقائق عن الوقت المضروب ؟

وقالت تلميذة اخرى لبعض الرفيقات — يُخيَّل اليَّ أن ماليا قد نصبت فخًّا لتبعدها عن المدرسة ، ويخلو لها الجو وتفوز بالجائزة

غير ان ادما لم تفقه شيئًا من هذا الحديث كله ، بل واصلت سيرها حتى رأت عربة فوثبت اليها وانطلقت تنهب الأرض نهبًا الى بيت الحبيب ، وقد نسيت المدرسة والامتحان والجائزة وكل شيء . وكانت أوراقها في يدها ، ولكنها لم تشعر بها ولم تكترث لها لأن أفكارها كلها كانت مشتغلة بجان وحده . ولكنها لم تنسَ رقعة الدواء التي كانت في يدها . فلما بلغت أول صيدلية ابتاعت منها الدواء واستأنفت السير وهي تود أن تطير طيرانًا ، حتى اذا بلغت المنزل قابلت الممرضة وناولتها الدواء وهي في أشد حالات التهيج والخوف

فدهشت الممرضة لحالتها وسألتها عن مرادها

فقالت ادما والدموع تكاد تطفر من عينيها — هذا هو الدواء الذي نسيت ماليا أن ترسله الى هنا

فضحكت الممرضة وقالت — ولكننا لم نبق في حاجة اليه يا عزيزتي ، فقد استعضنا عنه بسواه

— وكيف حال العليل الآن ؟

— انه في أحسن حال ، ولا يلبث أن يخرج من البيت سالمًا معافىً

— قالوا لي انه لم ينم ليلة امس . . وان دمه قد سُمّ

— هذه اول مرة أسمع مثل هذا الكلام عن جان . . والحقيقة هي انه اليوم وأمس أحسن من كل يوم ، وقد جُبرت يده المكسورة وزال كل خطر

وكانت ادما تسمع كلام الممرضة وهي تنتقل من درجة استغراب الى أشدّ منها وقد ظهرت الحقيقة امامها ، فلم تشك في ما أضمرته لها اماليا من السوء والشر ، كما انها لم تشك في فوات الوقت وخسارة الجائزة ، فعادت الى العربة وهي غارقة بدموعها

***

وحدث في المدرسة في غياب ادما أن رفيقاتها قلقنَ عليها وخشينَ أن تبطىء في رجوعها قبل حلول موعد الامتحان . فاجتمعنَ حول اماليا وأخذن يسألنها عنها ، فتجاهلت السببَ في أول الامر ، ولما ألححنَ عليها ذكرت لهن شيئًا وهي تتكلّف مشاركتها لهن في القلق ، فجزعن ونظرنَ اليها شزراً وهن يعتقدنَ مكرها ودهاءها وتدبيرها لادما هذا الغياب الفجائي . وقد دار بينهن الحديث التالي : —

قالت احداهنّ — مسكينة ادما ! انها بلا شك قد خسرت ثمرة تعبها هذه السنين كلّها

وقالت غيرها — لا أظن الاستاذ يظلمها هذا الظلم الشنيع ويأبى أن يقبل انشاءها عند ما تعود

— يظهر انك تجهلين أخلاق استاذنا فهو لا يرضى أن يقبل شغلها ولو دقيقة بعد الموعد

— هذا ظلم يجب أن نحتجَّ عليه

— لا يفيد احتجاجنا شيئًا ، فقد ازف الوقت ولم يبقَ في الامكان اصلاح ما فات

— ولكن لماذا لم تُبقِ ادما اوراقها هنا فكنا نقدمها نحن !

— يظهر ان ما وسوسته اماليا لها قد أنساها كل واجب فلم تَعِ شيئًا

ولما كانت الطالبات يتحدثنَ بمثل هذا الكلام وهن يتلهفن على حالة ادما ومصيرها ، قرعت الساعة الثانية ، فأقبل الاستاذ وطلب أوراق الانشآء ، فقدمنها اليه واماليا معهنَّ . فاستغرب الاستاذ عدم وجود ادما بين الطالبات وسأل عنها ، فأخبرته الطالبات بما جرى . فقال — ولكن أين أوراقها ؟

— انها أخذتها معها لتيقّنها سرعة عودتها

فقال — كنتُ أودُّ أن لا تخسر ادما ما هي أهلٌ له ، ولكن هكذا شاءت أو هكذا شآء اهمالها

— ألا يمكن أيها الاستاذ المحترم أن تقبل أوراقها بعد قليل ؟

— ليس هذا من ولايتي ، فقد صدرت به أوامر الادارة العليا ، فلا يمكنني أن أخالف أمرها

قال هذا وخرج ولبثت الطالبات في اماكنهن كأن على رؤوسهن الطير

وعدنَ بعد قليل الى الحديث ، فقالت احداهن — سوف تعود ادما الى منزلها بالخيبة والفشل وقد انهار صرح رجائها ، فيتلقاها والدها بالتوبيخ والاهانة ويحرمها سعادتها ، فتكون كأنها لم تدأب ولم تسعَ كل هذه السنين المتوالية

وبينما كانت التلميذات في حديثهن فتح الباب فجأة ودخلت ادما وهي في شدة الاعياء وقد تصبب العرق من جبينها وصُبغت وجنتاها بالاحمرار . فأقبلت عليها رفيقاتها يسألنها عن حالها وسبب عاقتها ، وقد لمنها على ذلك أشد اللوم . وتقدمت اليها أماليا أيضاً وقالت — لم اكن أنتظر لك هذه النتيجة يا عزيزتي ادما ، وكنت أود من صميم القلب أن تنالي أنت الجائزة وأخسرها أنا ، ولكن هكذا شاء القدر فيجب أن تتجلَّدي ولا تسترسلي في الحزن

فنظرت ادما اليها نظرة توبيخ ولم تُحِرْ جواباً . وكانت قد

شعرت بثقل وطأة الحزن والحرمان في نفسها وتحققت دناءة اماليا ، ولـكنها كتمت الامر ، فلم تبح للرفيقات بشيء من السرّ



وبعد قليل ، وكانت الطالبات لا يزلنَ مجتمعات ينتظرن نتيجة الحكم بالجائزة لاحداهنَّ ، عاد استاذ الموسيقى وفي يده غلاف كبير وقال : قد حُكم بالجائزة للآنسة ادما

فبهتت الطالبات . وجحظت عينا اماليا . ولم تفهم ادما شيئًا من هذا الـكلام

فقال الاستاذ — نعم ، وهذه هي اوراقها !

ثم ناولها الاوراق . فانتبهت ادما كمن حلمٍ ونظرت الى الاوراق التي أخذتها فاذا هي أوراقها بعينها . وكان في يدها الاخرى أوراق أخرى لم تكن تشك في أنها أوراقها ، فنظرت اليها فاذا هي أوراق اماليا ، فأدركت للحال انها تناولتها بدلاً من أوراقها هي حينما خرجت تعدو من الغرفة وهي ذاهبة لعيادة حبيبها . واذ ذاك سفرت لها الحقيقة ولم تدرِ كيف تعتذر لاماليا . ولـكنها تعجبت كثيراً لأن اماليا نفسها لم تنتبه للامر فلم تميّز بين أوراقها وأوراق ادما حينما أعطتها للاستاذ

وكانت اماليا قد ادركت ايضًا الامر ووضحت لها الحقيقة ، فانتفضت شديداً وانقضَّت كلمات الاستاذ كالصاعقة على فؤادها ، فاختطفت أوراقها من يد ادما ونظرت فيها مليًّا وهي تشعر بطعنات الغيرة في صدرها ، وقد تجسَّمت امامها خيبتُها ، ولكنها شعرت أيضًا بأنها تستحق هذه النتيجة المرَّة جزاءً لها على ما أضمرت . .

وكان الاستاذ قد وقع في حيرة فقال لها — سآخذ اوراقكِ أيضًا يا اماليا وأستأذن الادارة في فحصها كسائر الاوراق ، لأن المسألة فريدة في بابها وهي الوحيدة بين المسائل التي مرَّت عليَّ ، غير ان الجائزة الاولى قد حُكم بها لادما وقُضي الامر

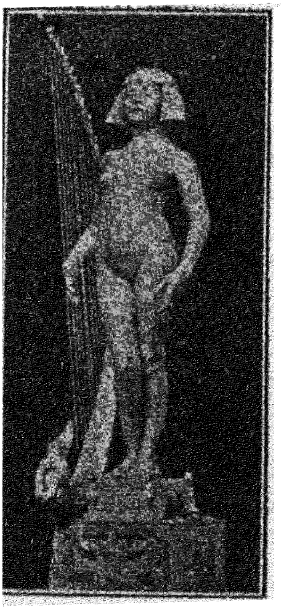
قال هذا واخذ الاوراق وانصرف

وكانت الطالبات قد تهلَّلت وجوههنَّ وامتلأت صدورهنَّ حبوراً بما تم ، فاجتمعنَ حول ادما يهنئنها ، وكانت هي قد أشرق السرور في محياها فبكت من شدة الفرح

وعُلم بعد ذلك ان الادارة سمحت للاستاذ بفحص انشآء اماليا وكانت نتيجة حكمه عليه انه ينحطُّ كثيراً عن انشآء ادما ، فهي صاحبة الجائزة بلا منازع ، ولو لم يحدث هذا الغلط في تقديم الاوراق

***

وعادت ادما بعد ذلك الى والدها فتلقّاها بالبشر والسرور وهنأها بفوزها وتحقُّق آمالها. وبعد أمدٍ وجيز زُفَّت الى حبيبها جان فعاشت معه بالسعادة والرفاء





السعادة

رُوي أن ملكاً من الملوك العظام دعا ذات يوم الى قصره جمهوراً من علماء عصره وحكماء بلاده وألقى عليهم السؤال التالي :

ما هي السعادة ؟

فانبرى أحدهم فقال — هي أن نرى على الدوام ضياء وجهك الالهي ، ونتمتع بشرف المثول أمامك

فقال الملك لعبيده — اسملوا عينيه ، لأني لا أريد أن يراني مثلُ هذا المرائي المهذار

ثم تقدم حكيم آخر وقال — السعادة هي السلطة . ولما كان مولانا سلطاناً قادراً فهو اذاً سعيد

فتنهد الملك وقال بحزن — بل أنا شقيٌّ ، لأني مُصاب بالأرق ، وليس في سلطتي الشفاء من هذا الداء

ثم التفت الى عبيده وقال — اجدعوا أنف هـذا الحكيم وأتوني بغيره

فتقدم حكيم ثالث وقال ، وهو يرتعد من شدة الخوف — ان السعادة في الغنى

فقال الملك — ليس من هو أغنى مني ، ومع ذلك أطلب السعادة فلا أجدها

وقال لعبيده — اربطوا الى عنقه ثقل رأسه ذهبًا واطرحوه في البحر ، فلعلَّ الذهب يوحي اليه هناك بالافكار الصائبة

وجاء حكيم رابع كان مرتديًا اطماراً باليـة فقال — اني جائع يا سيدي فأطعمني اكن سعيداً وأمجّد اسمك في العالم أجمع

فقال الملك لعبيده — أطعموه ، ولكن أحشوه بالطعام حشواً حتى يكتظّ من الطعام فلا يطيق التنفس و يموت مختنقًا

وجاء خامس وكان بدينًا قويًا فقال — السعادة في الابداع

وجاء في أثره سادس ، وكان شاعراً ، نحيف البدن أصفر الوجه فقال — بل هي في الصحة

فابتسم الملك وقال لهما — لو كان الأمر في يدي لجعلتك أيها الشاعر تبتهل الى الآلهـة بعد شهر أن تمنحك الالهـام والابداع ،

ولجعلتُ هـذا الجبار الشبيه بهرقل يلتمس من كل رائح وغادٍ شفاء أسقامه

ثم جاء سابع وقد تزين بأزهار النرجس فقال — السعادة في الاضمحلال والفناء

فقال الملك لعبيده — أسرعوا فافصلوا رأسه عن بدنه ، إذ لا راحة له الاّ في الاضمحلال

وتقدم ثامن فقال — السعادة في حب النسآء

فقال الملك — أعطوه مئـة حسناء من نسآء البلاد وفتياتها ، واسقوه، وهن محدقات به ، جرعةً كبيرة من السم ليموت موتًا هنيئًا

وجاء تاسع فقال — السعادة في نيل الرغائب

فقال الملك — وما رغبتك لتكون سعيداً

فامتُقع الحكيم ولم يُحر جوابًا . فأمر الملك بدفنه حيًّا

وجاء اخيراً حكيم عاشر فقال — السعادة هي في جمال الفكر الانساني

فحملق الملك وصاح غاضبًا — وما هذا الفكر الذي جئتنا به ؟

فتبسم الحكيم ولم يفه بكلمة

وكان الملك قد أطرق مفكراً . ثم رفع رأسه وأمر بزج الحكيم في سجن مظلم تحت الارض . .

* * *

وبعد سنة من تاريخ ذلك اليوم جيء بالسجين ، وكان قد فقد سمعه وبصره وهزل جسمه وخارت قواه . فقال له الملك – دعوتك لأسمع الآن كلامك عن السعادة ، فهل أنت سعيد في حالتك هذه ؟

فقال الرجل برزانة — قلتُ لك ان السعادة في جمال الفكر . فقد سجنتني في أعماق الأرض ، فلم أرَ نور الشمس ولم أسمع كلمة آدميّ ، ولكني وأنا في السجن كنتُ سعيداً لان أفكاري كانت توحي اليَّ بهذه السعادة ، فكنت أراني ملكاً غنيًّا محبوبًا ، وقد أصبحتُ أعمى وأطرش ، غير اني لم اكترث لهذا كله ، لأني كنت سعيداً بأفكاري

فقال الملك وهو يكاد لا يملك نفسه من شدة الغيظ — اعلم اني بعد خمس دقائق آمر بشنقك وأبصق في وجهك ، لأرى كيف تكون سعيداً بفكرك ، وأين يكون هذا الفكر عندما تسقط جثتك على الارض وتُداس بالاقدام

فقال الحكيم — ولكن الفكر أيها المجنون لا يموت ، فهو باقٍ في هذا الوجود ما دامت السماء سماءً والارضُ ارضًا . . .



بلا سبب

نهض السيد سليم من نومه كئيبًا مضطربًا ، كمن اضطُهد أو أُهين ، وأخذ يخطر في بعض دهاليز المنزل وهو يتأفَّف ويتذمَّر . وأخيراً رفع صوته وصاح قائلاً — ياللعجب ! تقول الكلمة الواحدة الف مرة في النهار ، فلا يسمعها أحد . تقول أغلقوا الأبواب عند دخولكم الى الغرف وخروجكم منها ، فكأنك تخاطب حجراً . تقول لا تطرحوا شيئًا على الأرض ، فترى هنا ورقة وهناك علبة وفي هذا الدهليز مكنسة وفي ذاك منديلاً . كأننا هنا في حانة أو خان . . في المنزل عشرون خادمًا وخادمة — ولكن الترتيب مفقود والنظام غير موجود وقد اختلط الحابل بالنابل . . . ومَن هذا الذي يقرع الجرس مبكراً في مثل هذا الوقت ؟

فقالت زوجته وكان اسمها سلمى — هذه الجدة أنيسة كفيلة ولدنا توما

قال — وما شأنها عندنا في مثل هذا الوقت ؟ ولكن لاعجب فهي مِكْسَالٌ وثرثارة مهذارة دأبها الدوران وشقشقة اللسان

قالت — لله ما أغرب أطوارك ! . . فأنت دعوتها ، وأنت الآن تنهال عليها بمثل هذا الكلام

قال — أنا لا أنهال على أحد ولا أظلم أحداً ، بل اتكلم بكل بساطة وحسن نية . ومع هذا فاني لم اكلمك بل قلتُ ما قلته لنفسي ، فما بالك تعرَّضتِ لي ؟ ولكن لا عجب ، فأنتِ امرأة ولا يروقكِ إلاّ المناوأة والمشاكسة ، شأن سائر بنات حوَّاء اللواتي يقضينَ الساعات الطوال كل يوم ، ولا عمل لهنَّ الا تنقُّص زيدٍ وذمُّ عمرو وانتقاد بكر . . ، الزوج يجدُّ ويتعب النهار كله كالثور ، وامرأته ، شريكة حياته ، جالسة في بيتها تغتنم كل فرصة لتخاصمه . وهي انما تفعل ذلك لتتلهى عن الضجر الذي يصيبها من جرّاء البطالة وعدم الشغل . . . يكفي يا سيدتي ! فأنتِ الآن زوجة ووالدة ، لا تلميذة مدرسة ولا طفلة صغيرة . . مالي أراكِ تتذمرين وقد قطبتِ وعبستِ ؟ كأن سمعك ينبو عن مثل هذه الحقائق المرَّة !

قالت — ولكني أتعجب لأنك تعمدتَ ذكر هذه « الحقائق المُرَّة » عفواً بلا سبب

قال — فاذاً أنتِ تريدين المخاصمة وترومين تمثيل بعض الادوار المشهورة !

قالت — ماذا اعتراك ؟ كأني بك شربتَ مسكراً ليلة أمس ، أو خسرت مبلغًا كبيراً من المال ، وتريد الآن أن تنتقم مني ؟

قال — وماذا يهمكِ أنتِ ان شربتُ أو خسرتُ ؟ فهل تريدين أن ترغميني على رفع بيان بأعمالي اليومية الى سدّتك الملكية؟ فالمال الذي أخسره هو مالي ، وأنا حرٌّ فيه ، وليس لأحد أن يناقشني الحساب . . .

واستمرَّ السيد سليم في كلامه هذا وهو يخطر ذهابًا وايابًا ويزداد تهيجًا واضطرابًا ، الى أن اجتمع أهل البيت لتناول طعام الغداء. وجلست بينهم الجدة أنيسة فجلس الى المائدة بازائها ، وما كاد يتناول اول ملعقة من الحساء حتى أظهر اشمئزازاً ، فرمى الملعقة من يده وقال — يظهر أنكم تريدون أن أتناول طعامي في الفندق !

فقالت سلمى — كيف ذلك ؟ وهل الحساء غير صالح للاكل ؟

قال — لم أذق في زماني كله حساءً أردأ منه . فرائحتهُ كريهة وملحه كثير

ثم التفت الى الجدة أنيسة وقال — كل يوم أدفع مبالغ باهظة للانفاق على المنزل ، ومع هذا كله فانظري ماذا يقدّمون اليّ ! لعلهم يريدون أن أستقيل خدمتي لاقضي اوقاتي في المطبخ وأنوب عنهم باصلاح الطعام

فقالت المربية ، واسمها بربارة ، وكانت جالسة الى المائدة :

— ان الحساء اليوم جيد وطعمه لذيذ . .

فقاطعها السيد سليم حانقًا — لعله كذلك أيتها الآنسة في ذوقك ، وأما أنا فلست اراه صالحًا الاّ للخنازير . . والظاهر ان بين أذواقنا بونًا عظيمًا . فتوما مثلاً (وأشار بيده الى أحد أبنائه وكان ابن سبع سنين) يعجبكِ كثيراً بسلوكه، اما انا فأرى غير ذلك

ولما سمع توما كلام والده ارتعد من الخوف وأطرق وجلاً وامتنع عن الاكل

فقال السيد سليم — نعم ان توما يعجبكِ ، حالة كوني لا استطيع ان اكتم عدم رضاي عن سلوكه ، ولا اعلم من منا المصيب في زعمه . غير أني كأب أعرَفُ منكِ بابني . . انظري اليه، فهل يليق بالاولاد المهذبين ان يجلسوا الى المائدة كما يجلس هو ؟

ولما قال هذا نظر الى ابنه شزراً وانتهره قائلاً — إجلس جيداً أيها الولد الرديء !

فانتفض الطفل خوفًا وتململ في كرسيه وترقرقت الدموع في عينيه

فقال الاب — كُلْ . . امسك الملعقة جيداً . . ارفع نظرك . وكفَّ عن البكاء . والاَّ فانك ستنال مني عقابًا اليمًا

فامتلأت عينا توما دموعًا وكان يجتهد أن يرفع نظره الى ابيه ويتجلَّد ، ولكنه لم يقوَ على ذلك ، فأجهش بالبكاء وتساقط الدمع من عينيه غزيراً

فاستشاط ابوهُ غيظًا وصاح به قائلاً — اذاً تأبى أن تسمع الكلام ! أذنبتَ وتبكي ؟ . فاغرب أيها الحيوان من امامي ، وقف هناك في تلك الزاوية

فقالت سلمى وقد شعرت بجفاف في حنجرتها — دعه يتناول طعامه أولاً ثم عاقبه بعد ذلك ، اذا كان لا بدَّ من العقاب

فضرب سليم المائدة بيده وقال — بل يجب أن يبقى بلا طعام ، لأن ولداً رديئًا نظيره لا يستحق أن يأكل مع الناس

وكان توما قد ترك المائدة وأسرع الى حيث أشار أبوه وقد عرته هزّة الرعب

وواصل أبوهُ كلامه فقال يخاطبه مهدّداً — سترى بعد الآن كيف تكون معاملتك أيها الولد المتمرّد . . وقد ظهر لي بكل جلاء ان الذين يجب أن يُعنَوا بتربيتك قد اهملوا ذلك كل الاهمال

وتركوا لك الحبل على الغارب ، فعدتَ لا تعي ماذا تفعل ، وقد فسدت سيرتك وساءت أخلاقك . . ان أباك يكدّ ويتعب لأجلك ، وأنت لا يهمُّك شيء من هذا كلّهِ

فقالت سلمى بصوت خافت ، وهي تحاذر أن يسمعها أحد من الجلوس — يكفي ما أظهرتَه من البراعة حتى الآن ، فلسنا وحدنا هنا ، وهذه الجدَّة أنيسة قد رأت وسمعت منك ما لا يمكن أن تسمعه من سواك من أرباب الأُسر ، ولا يلبث الأمر أن يذيع ويتناقله كل الجيران

فقال سليم وقد رفع صوته وقدحت عيناه شرراً — أنا لا يهمّني أحد في هذا الوجود . والجدة أنيسة قد أدركت بلا ريب اني مصيب وأنتِ المخطئة . . وماذا تريدين يا سيدتي أن أفعل ؟ أأسكت عن مثل هذا الصبي الشرير وأتركه يتمادى في عيوبه وشروره ؟ انظري اليه . فهو على رغم كل توبيخي له لا يزال يبكي . .

ثم التفت الى توما وصاح مُزمجراً — تظنُّ أيها الحيوان أن دموعك تخيفني أو تحملني على الشفقة عليك ! لا . . اني أعرفك أتمَّ المعرفة وأُريد أن أؤدبك التأديب الذي يليق بك ويصلح ما أفسده غيري في نفسك . . أنت لا تدري كم أتحمَّل من النفقة

عليك . . ولعلك تظن كغيرك من الجالسين هنا اني أحصل على المال من أهون سبيل ، أو انهُ ينصبُّ عليَّ انصباباً كأنه من ميزاب

وكان توما لا يزال يبكي . وقد احمرَّت مقلتاه واتقَّدت وجنتاه . فكان ذلك أدعى الى غضب والده عليه ، فرَعد وبرَق وصاح قائلاً — لم يبقَ الاَّ أن أنهض وأستخدم العصا في تأديبك . . قالوا ان العصا من الجنة وقد أصابوا ، فهي أنجع دواء لِما أنت فيه من العتوّ والعصيان

فلما سمعت سلمى هذا الكلام رمت الملعقة من يدها ونهضت عن المائدة وأسرعت الى مخدعها وهي تبكي وتقول — يا لك من أبٍ ظالم ! يالك من مربٍّ غشوم ! تريد أن تصبَّ جام غضبك على رأس هذا الطفل المسكين ، وليس له من ذنب يُؤخَذ به ولا جريمة يُعَاقَب عليها . . وما ذنبه الاَّ انه صغير ضعيف وأنت كبير قويّ ، وقد نسيتَ انك أبوه وانه ابنك وفلذة كبدك . .

ولم يكن هذا الكلام ليقف بالسيد سليم عند الحد الذي بلغه ، فالتفت الى الجدة أنيسة وقال وهو يتكلف الابتسام — لقد غضبتْ عليَّ . . فما أرقَّ عواطفها ! . . ولكني لم أقل الا الحقيقة ، والحقيقة تجرح

وساد السكون بعد ذلك . وكان سليم قد حانت منه التفاتة الى الصحاف فرآها لا تزال ملأى بالحسآء ، وقد كفَّ الجلوس عن الأكل ، فالتفت الى المربية وقال — لماذا لا تأكلين ياسيدتي؟ يظهر انكِ أنت ايضًا غاضبة عليَّ لأني قلت الحقيقة . . بل يظهر ان وجودي بينكم قد أدَّى الى كل ذلك ، لأنكم كلكم قد كففتم عن الطعام والكلام ، فلا تبتئسوا ، فهاءنذا ذاهب من هنا لتأكلوا وتشربوا هنيئًا مريئًا دون أن يهمكم أمري

ولما قال هذا نهض ومشى الى جهة الباب . ولما وصل الى حيث كان توما واقفًا لبث قليلاً وقال له — أرأيتَ أيها الولد الشرير نتيجة قحتك وتمرُّدك ؟ . . غير اني قد نفضتُ يدي من تربيتك وتقويمك ، فاسرح وامرح على هواك ، إذ لستُ بعد الآن مسؤولاً عنك ، وليهتمّ بك غيري . نعم لِتهتمَّ بك والدتُك ومربيتك . . .



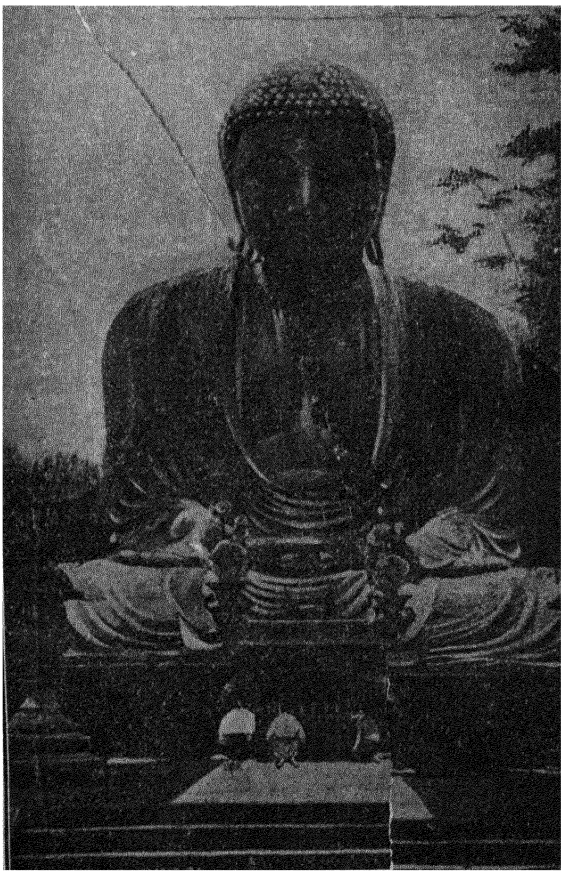
حجر الالماس

حدث ما يأتي في عهد بوذا العظيم ، وقد جلس ذات يوم هو وتلاميذه في ظل بعض الاشجار الغبيآء ، وكان الوقت مسآءً ، وقد خفَّت وطأة الحر ، وآذنت الشمس بالمغيب ، وهبَّ من الجبال النسيم البليل

وكان غوتاما (بوذا) قد عالن منذ الصباح جمهور تلاميذه انه يريد الانفراد في الجبال البعيدة ، فانقبضوا ووقع هذا الخبر أسوأ وقع في نفوسهم ، فقضوا يومهم في حيرة وحزن وجاءوا مساءً الى حيث كان المعلم وقالوا له — أيها المعلم العظيم ! ان آثامنا كثيرة ولا مرشد لنا سواك فكيف تريد أن تتركنا ؟ ابقَ معنا و بيننا يا معزّي الحزانى وناشر لواء الصلاح

قالوا له ذلك وهم جاثون عند قدميه يبكون ، و بوذا ينظر اليهم صامتًا متألّمًا ، وقد سكن ضوضآء النهار وخيَّم سكون الليل

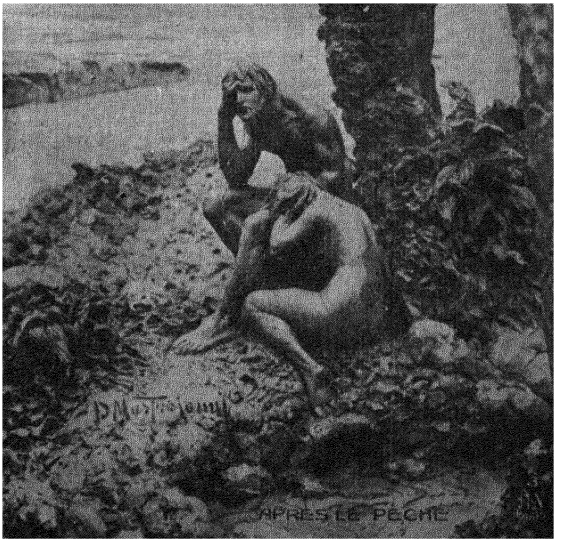
وعاد التلاميذ فقالوا — أنت تريد أن تهجرنا ، فماذا يكون عملنا بعدك ؟ واذا كان لا بدَّ من ذهابك فأعطنا نوراً يهدينا الصراط القويم



واهتدى الشيخ بعد ذلك الى ضريح رفيقة حداثته ، فكان يزوره صباح مساء ، ويرحّم على هذه الزهرة الذابلة قبل أوانها

ولما شعر بدنوّ أجله ، أوصى أن يدفن في قبرها ، وأن ينقش على ضريحهما :

« قد فرّقتنا أحكامُ البشر ، فجمعتنا أحكام الطبيعة »



وودعآء ، أحبّوا العدل والحقيقة والخير ، أحبوا قريبكم واعضدوه ، وقابلوا الشرَّ بالخير . — هذا هو طريق السعادة . هذا هو طريق الراحة . اسلكوا هذا الطريق تبلغوا السعادة التي تنشدونها

قال بوذا ذلك ونهض فأجال نظره في تلاميذه ثم ودَّعهم وأخذ يبتعد عنهم الى أن توارى عن أبصارهم

* * *

وتفرَّق شمل تلاميذ بوذا بعد ذلك فلم يبقَ منهم في بلاد بورما الا واحد ، وهو الذي أخذ حجر الالماس من المعلم . وكان يقضي أوقاته منفرداً في الجبال يبحث عن السعادة في تلك العزلة ويأوي الى الكهوف . ومرَّت السنون وهو في حياته تلك الى أن ذاع امره وتناقل الناس أخبار زهده وقداسته فأقبلوا اليه من كل حدب ليسمعوا تعاليمه ويسترشدوا بأقواله

وفي أحد الايام جاءت فتاة يُقال لها « لا كشمي » تحمل اليه طعاماً ، فرأته جالساً ، وحجر الالماس في يده وهو يقلّبه ويتأمل في محاسنه ، فقالت مبهوتة — ما أجمل هذا الحجر الكريم وما أشدَّ لمعانه ؟ انه كالنجم ضياءً ! فأين وجدتَهُ أيها الاب القديس ؟ وهل أنت في حاجة اليه ؟



قال — نعم يا ابنتي ، فقد أعطانيه بوذا نفسه لأبدّد به غيوم الشكوك والاحزان وأتعلم ما هي النقاوة .. فأنا في حاجة اليه ، واما أنتِ فلا يعوزكِ شيء من ذلك لانك طاهرة نقية ، ولم تدبّ الى نفسكِ شكوك العالم بعد ، لانك لا تزالين طفلةً وليس للحزن سبيل الى قلبكِ .. ولكن ما هذا ؟ اني أراكِ باكية ! فمن ظلمكِ ، ومن أحزن نفسكِ أيتها الجميلة بين العذارى ؟ فهل أحببتِ ولم يبادلكِ حبيبُكِ الحبَّ ؟ ولكنكِ أجمل من الزّهرة النابتة في أحسن تربة مباركة . فلا ينفعكِ هذا الحجر ، لانكِ مُحبّة والهةٌ وليس الحب سعادة كما تظنين ، بل هو سكرة وذهول ، وأما السعادة فهي في الراحة ، كما قال بوذا ، وليس في الحب . فاحفظي تعليم بوذا تنالي ما أنت راغبة فيه من السعادة و يتجدّد دمُك في عروقكِ ، فيصير نقيًّا . وتنقى نفسك من أدران الشكوك فتتألق كما يتألق هذا الحجر العجيب الذي أحرص عليه أشد من حرصي على نفسي

قالت — وماذا ينبغي لي أن أعمل لأحظى براحة النفس وسعادة الحياة ؟

قال — عودي في طريق النهر الذي اجتزتهِ وأنت قادمة الى هنا تجدي بالقرب منه ديراً قديمًا فادخليه واعملي بحسب مايلهمكِ قلبك



وكان الدير الذي أشار اليه الناسك قائمًا بالقرب من نهر ينساب بين مروج وغياض ، وحوله مغروسات كثيرة وأزهار جميلة يفوح أريجها ، فيملأ تلك البقعة سروراً وهناءً

وكان من عادة لاكشمي في حياتها الجديدة في ذلك الدير أن تخرج كل صباح فتجول بين تلك الازهار ، ولكنها كانت تشعر كأنَّ تلك الأزهار الجميلة تدعو قلبها الى الحب ، فتضطرب وتعود أدراجها الى الدير او تذهب الى المدينة القريبة فتزور الفقراء وتعود المرضى وتغيث البؤساء ، وترجع في المساء فتمر بالازهار تحدثها عن الشر والجوع والفقر والخوف ، وتَرَف الاغنياء المستبدين وضنك الفقراء المعوزين . وكأن الازهار كانت تعي كلامها ، فيمتلىء البنفسج دموعًا ، وينظر الورد الاحمر متأثراً الى عينيها ، وتمتد الزنابق وقد هزَّ النسيم اعطافها الى شفتيها كأنها تريد أن تقف على غوامض أسرارها وتستشفّ مكنونات قلبها

غير ان لاكشمي لم تكن لتكترث للازهار وهي عائدة من المدينة ، لأن خواطر كثيرة كانت تثقل رأسها وقتئذٍ ، ولعل مصدر تلك الخواطر ما كانت تراه من شقاء البشر ومصائبهم واحزانهم . ولم يكن لاحدٍ أن يسرّي كربها ، لان الناسك كان

بعيداً . ولما كانت تضيق ذرعًا بحالها كانت تأتي الى ضفة النهر القريب من الدير وتبكي بكاءً مرًّا ، فتنحدر دموعها الى النهر وتتحول في الحال الى لآلىء يحملها ذلك النهر الى البحر فتمتزج بمائه

سكبت لا كشمي من مقلتيها دموعًا كالمطر الغزير في أوان الشتآء . — غير أن ذلك لم يخفف ما بها ولم يُنلها الراحة . وكأنها كانت تكتم سرًّا خفيًّا وتحرص عليه حرصها على حياتها ، وهذا السر أطفأ في نفسها النور وأفقد بصرها بهاءه . .

* * *

ورأت لا كشمي على ضفة النهر ذات يوم صياداً في نضارة الشباب قد ألقى شبكة في الماء ثم أخرجها فنظر الى ما فيها من السمك وعاد فألقاها ثانيةً والسمك لا يزال فيها . فدنت لا كشمي منه وقالت — ماذا تعمل يا هذا ؟ فما هكذا يُصاد السمك

قال — اني لا أصيد سمكاً بل سعادةً . فقد قال لي الكهنة منذ أيام ان السعادة يجب أن تُصاد ... ولكني علمتُ الآن انهم مخطئون فيما زعموا ، لاني لم أجد سعادتي في الماء بل على اليابسة . وجدتُها عندما نظرتُ اليكِ . فمَن أنتِ ومتى وُلدتِ أيتها الزنبقة البديعة بين الازهار ؟ انكِ جميلة كالشفق في أيام الربيع ، وأنتِ مصدر كل سعادة وهناء على هذه الارض

قالت — أنا فتاة من بلاد بعيدة واسمي لا كشمي

قال — بل أنتِ إلهة الجمال ومعبودة البشر!

فصُبغت وجنتا لا كشمي بلون القرمز وتحوّلت بوجهها عن الفتى تريد الانصراف ، فاستوقفها وقال — مهلاً أيتها الجميلة بين النسآء فلا تنفري مني كالظبية الجافلة ، لاني أحببتكِ وشعرتُ بالسرور يملأ نفسي وأنا أنظر اليكِ

فارتعشت لا كشمي وشعرت بارتياح في نفسها الى كلام الفتى، فلم تنفصل عنه الا بعد ان غربت الشمس وساد الظلام

ورقدت الحسنآء في سريرها في الدير تريد النوم ، ولكن أنَّى لها ذلك وقد تمثَّل لها الفتى الصيَّاد في أحسن صورة وراقتها مناجاتهُ في خلوتها .. وكان البدر يسبح في القبة الزرقآء ، وقد أناب عنه بعد غيابه النجوم لترعى الفتاة الجميلة في سريرها

* * *

ومضت بعد ذلك الايام ولا كشمي هائمة بالصياد كما هام هو بها. وكانا يجتمعان في اكثر الاحيان والحب يزداد رسوخاً في قلبيهما. غير أن لا كشمي لم تلبث ان خامرها الشك فيما زعمه الناسك عن السعادة . وانطلقت اليه في أحد الايام ، فرأته في مكانه حيث رأته أولاً

فرحَّب بها وأجلسها على حجر بازائه وسألها عن حالها فقالت — لقد امتثلت أمرك وسلكتُ الخطة التي رسمتها لي، فوقفتُ نفسي على خدمة القريب. وقد تألمتُ كثيراً ولكني لم أجد راحةً ولا سعادة. وأخيراً أحببتُ

فقال لها الناسك — ان الخطة التي أرشدتُكِ اليها هي ماتعلَّمتهُ من المعلم العظيم، وهي صعبة كما رأيتِ ولا يدركها الا النفر القليل من بني البشر، فهاتي يدكِ لارى دمَكِ

فمدَّت الفتاة يدها فجرحها جرحًا لطيفًا واذا ببعض قطرات من الدم قد تدفَّقت من الجرح وكانت نقيَّة صافية. فطأطأ الناسك رأسه وقال يخاطب روح بوذا — لقدقلتَ أيها المعلم العظيم ان السعادة في الراحة. ولكن سعادة الفتاة هي في الحب، وها ان دمها كهذا الالماس نقاءً وصفاءً، وهو اكبر شاهد على ما أقول

ثم التفت الى لاكشمي وقال — وأنتِ يا ابنتي فاعلمي ان الحب قد نقَّاكِ، فظفرتِ بسعادة الحياة..

ولكنه لم يكد يفرغ من كلامه حتى ظهرت له روح بوذا وقالت له — ليست السعادة في الحب. لأن الحب ذهول عارض لا يلبث ان يزول. وأما السعادة فهي في الراحة...



المذنب الصغير

كان جورج ابن سبع سنين، وهو كثير الحركة متوقد الذهن، لا يكاد يرى شيئًا الاَّ و يسأل عنه بكل اهتمام ؛ ولا يسمع حديثًا الاَّ و ينصت اليهِ بمزيد الانتباه، ثم يحفظه و يرويه لأترابهِ ووالدته. وكان يسكن مع والديه وأخته في منزل رحب و يعيش في سعة ورفاهية. وكان جميع أهل المنزل يحبونه و يعجبون بذكائه وظرفه و يأملون له نجاحًا كبيراً في مضمار الحياة

وفي صباح أحد الايام دخل جورج ردهة الاستقبال فرأى مرثا خادمة المنزل تغسل نوافذ الردهة وزجاجَها بعد ان كنست أرضها ونظفت جدرانها . فأجال طرْفه قليلاً في الغرفة ثم قال للخادمة — أُنظري الى تلك الزاوية يامرثا ، فقد نسيتِ فيها شيئًا

فالتفتت اليه الخادمة وقالت باهتمام — وما هو هذا الشيء الذي نسيتهُ يا سيدي الصغير ؟

قال — هو بيت عنكبوت .. ألاَ ترينهُ معلَّقًا بين ذينك الجدارَين ، او لعلكِ شختِ فلا تبصرين شيئًا ؟

فقطبت الخادمة وقالت عابسة — وأنت مالك وللمداخلة في ما لا يعنيك ؟ انصرف من هنا ولا تعقني

فاغتاظ جورج وقال لها — حسن ، فسأذهب الآن وأشكوكِ الى والدتي

قالت — ولكن أين بيت العنكبوت الذي تشير اليه ؟

قال — هو هناك . في تلك الزاوية

فأخذت مرثا مكنسة طويلة وكسحت بها بيت العنكبوت في المكان الذي أشار اليه جورج ، فسقطت منه عنكبة صغيرة الى الارض ، فركض اليها جورج وأمسكها ووضعها في علبة صغيرة كانت في جيبه ، ثم خرج مسروراً وذهب الى غرفة المائدة حيث كانت أخته نجلاء ومرضعه مريم جالستين منهمكتين في إعداد بعض الحلاَوَى استعداداً لعيدٍ مُقبل

فقال لمرضعه — هل تريدين ان أريكِ ما في هذه العلبة ؟

قالت — وما فيها أيها الحبيب ؟

قال — رُتَيْلاَء صغيرة جميلة للغاية

فلما سمعت شقيقتهُ هذا الكلام تركت ما كان بين يديها من العمل ونظرت اليه بابتسام كأنها غير مصدّقة كلامه . فدنا جورج اليها وأدنى العلبـة من وجهها ، ثم فتحها فجأةً فذعرت أخته وقهقه هو ضاحكاً

واذ ذاك دخلت والدته ولوائح الاهتمام بادية في وجهها ، فبادر اليها جورج يقول ، وهو يترنّح سروراً — انظري يا أُميمتي ما أجمل هذه العنكبوت ! . . .

وأراد أن يفتح العلبة ثانيةً ، فزجرتهُ والدته بقولها — لا وقت لي لأسمع هذرك ، ولا أريد أن تعوق أختك ومرضعك عن شغلهما بمثل هذه الدويبّة المضرَّة التي تحملها ، فاطرحها الى الأرض ودُسْها بقدمك واخرج من هنا الى حيث تشاء ، بشرط ان لا تعود فتشغلهما عن العمل

فاحمرَّ جورج خجلاً وقال — سأخرج يا والدتي ولكني لا أريد ان اقتل هذه العنكبوت ، لأن القتل حرام

وخرجت الوالدة مسرعةً الى المطبخ ولبث جورج واقفاً في

مكانه . فقالت له المرضع — وهمتَ في قولك أيها العزيز ، لأن مَن يقتل عنكبوتًا يُغفر له أربعون ذنبًا

فبُهت الصبيُّ وقال — واذا قتل أحدٌ عنكبوتين ؟

قالت — يُغفر له من ذنوبه أربعون وأربعون

فقالت نجلاء بجدٍّ واهتمام — أي يُغفَر له ثمانون ذنبًا

ففكَّر جورج قليلاً ثم وضع العلبة في جيبه وقال لمرضعه — إذا كان ما تقولينه صحيحًا فلماذا تصومين وتصلّين كثيراً ؟ اقتلي من العناكب اثنتين أو ثلاثًا فيغفر الله لكِ كل ذنوبكِ بدون أن تُرهقي نفسكِ بالصوم والصلاة نهاراً وليلاً

فارتبكت مريم وقالت — ولكن ذنوبي لا تحصى أيها الحبيب

قال — والعناكب أيضًا لا تُحصى . فهي كثيرة في بيتنا وفي بيوت جيراننا ، فامسكي منها على قدر ذنوبكِ واقتليها ، فيغفر الله لكِ هذه الذنوب مرةً واحدةً ، ولا تبقى لكِ حاجةٌ الى غير ذلك

فتشاغلت المرضع بما بين يديها من العمل وقالت — الآن تعود والدتك إلى هنا فتراك وتستآء منك

وكان جورج قد لذَّ له هذا الحديث فلبث واقفًا متأملاً ثم قال — ولكني أرجو يا مرضعي العزيزة أن تقولي لي، أصالح أنا أم خاطىء ؟

فضحكت مريم حتى بانت نواجذها وقالت — أنت طفلٌ بعد وليس فيك خطيئة البتة ، لأنك كملائكة السماء طهارةً وكالقدّيسين نقاوةً

قال — بيدَ اني اكلتُ البارحة تفاحةً بدون اذن والدتي ، فقلتِ لي ان ذلك خطيئة . وقد دخلتُ منذ خمسة ايام إلى غرفة والدي وصببتُ الحبر على بعض أوراقه. ثم شتمتُ شقيقتي نجلاء . وعصيت أمر والدتي فقاصَّتني . ودعوتُ الخادمةَ حمقاء ومجنونة . وكسرتُ أمس قدحًا كبيراً ، ولما سألتني والدتي عنه حاولتُ تبرئة نفسي وإلصاق الذنب بغيري فلم أنجح ... هذه سبعة ذنوب فعلتُها في مدة قصيرة ، وأنتِ مع ذلك تقولين اني ملاك وقدّيس

وما كاد يُتِمُّ كلامه حتى سمع وقع أقدام والدته ، فانسلَّ من غرفة الطعام وذهب فوقف في بعض دهاليز البيت وهو يتأمل في ما سمعه من الكلام ، إلى أن صمَّم أخيراً على قتل العنكبوت تذرُّعًا إلى نيل غفران ذنوبه . ففتح العلبة ورمى بالعنكبوت إلى الارض ثم داسها بقدميه وجثم على الارض كئيبًا يتأمل فيما آلت اليه حالة هذه الدويبَّة المسكينة

وان هو لـكذلك إذ مرَّت والدته فرأته منبطحاً على الارض ، فاستشاطت غيظاً وتقدمت اليه وهي تعنّفه تعنيفاً شديداً ، ثم أخذته بيده ودفعتهُ بعنف إلى غرفة النوم وانصرفت لشأنها

وكان لـكلامها تأثير شديد في شعور جورج اللطيف ، فخجل من نفسه وسالت الدموع من عينيه وهو يحاذر أن يسمع أحدٌ صوته . ثم بلغه أن سليمة ابنة أحد الجيران جاءت تزورهم ، وقد جلست في غرفة الطعام تتحدث هي واخته ومرضعه . وكانت هذه الفتاة ابنة اثنتي عشرة سـنة وكان جورج يحبها لأنها كانت تسلّيه بقصصها وتدعوه عريسها . فلما سمع صوتها الآن ، خشي أن تسمع من شقيقتهِ أو من مرضعه بما كان من اهانة والدته لهُ ، ولذلك تنصَّت فسمعهنَّ يذكرنَ اسمه ، ثم سمع اخته تقصُّ على رفيقتها الحديث كلَّه ، وسمع سليمة تقول — ولـكن أين جورج الآن؟ فأنا اريد أن أراه

كان جورج يسمع كلامهنَّ وقد حَبَس نَفَسَه لئلاَّ تفوته كلمة ، وقد ظهرت عليه علامات الحياء وعزة النفس ، وشعر بارتياحه إلى البكاء ، ولـكنه خشي أن تأتي سليمة فتراه باكيًا . وفيما هو حائر في امره وقع نظره على خزانة الثياب ، فأسرع واختبأ فيها وأطلق لدموعه العنان

وكانت شقيقته قد نهضت لتبحث عنه ، فدخلت غرفة النوم وسمعت حركةً في الخزانة ، فتأكَّدت وجود أخيها فيها ، فبادرت وفتحتها وهي تقول — أُخرج من هنا لأن الخزانة ليست مخبأً تلتجىء اليه ، وعسى أن لا تكون قد أتلفتَ ثوبي الجديد

فقال جورج — إذهبي من امامي فلستُ بخارج الآن

قالت — لا بل تخرج في هذه الدقيقة

ثم أسرعت من ساعتها فنادت المرضع وأخبرتها بما جرى . فجاءت تتبعها سليمة وهما تضحكان . ثم تقدَّمت المرضع ففتحت الخزانة وأخرجت جورج قسراً ، فخرج وقد صُبغ وجهُهُ بحمرة الخجل وانهلَّ الدمع من مقلتيه ، فتقدم إلى شقيقتهِ وقال لها — انكِ حمقآء ومجنونة ، مجنونة وحمقآء . . وأنا أريد أن أشتمكِ وأشتم مرضعي أيضًا ثلاثين مرة ، لاني قتلتُ اليوم عنكبوتًا ، فلا إثم لي ولا حَرَج عليَّ . .

ثم خرج من الغرفة وهو يَصخَب و يشتم بملء فيه . . .





زوجة نادرة المثال

حدَّث أحدهم عن نفسه قال :

لا أظن أحداً من المتزوجين ذاق لذة الحياة الزوجية كما ذقتها أنا ، فقد قضيتُ بضع سنوات من حياتي مع زوجتي العزيزة ونحن على أتمّ ما تتوق اليه النفس و يلذُّ به القلب من صفو الحياة ورغدها كأننا في نعيم مقيم

ان زوجتي نادرة من نوادر النسآء ، فهي على أعظم جانب من الجمال الرائع والخلق الحسن والعلم الكثير والعناية النادرة بي لا تراها في اكثر ساعات نهارها إلاَّ مشتغلة بشؤوني مفكِّرة في أسباب راحتي ، تهيء لي أحسن الاطعمة وتكسوني أجودَ الملابس وتُعنَى بساعات عملي وتراقبني أفضل مراقبة كما تراقب الظئر الرؤوم طفلَها أو الطبيب الحاذق عليلَهُ

وقد جاوزت عنايتها بي كلَّ حدّ ، حتى انها صارت تخيط لي بيديها الناعمتين بعض ما تراني هي في حاجة اليه من أنواع الملابس وتصلح لي بنفسها بعض المآكل المغذّية والمشروبات الصحيّة المقوّية ، وتبذل غير ذلك من ضروب العناية التي أصبحتُ بفضلها سعيداً ولم يبقَ لي من هَمٍّ إلاَّ أن أقتات بأطيب الأطعمة وأرقد في أوثر الفرش وأرتدي أفخر الملابس وأتنعم مليًّا بهذه اللذّات

وهاءنذا أقص على القارىء بعض حوادث حياتي السعيدة ، ليرى الفرق بيني وبين غيري من الازواج المنكودي الحظّ ، وبين زوجتي وغيرها من النسآء اللاتي يجهلنَ معنى الحياة

* * *

توقظني زوجتي كل يوم الساعة السابعة صباحًا ، فلا يقع بصري إلاَّ على أجمل الصور ، ولا تسمع اذناي إلاَّ أعذبَ الاصوات . ولولاها لكنت أستغرق في النوم بعض الأحيان إلى الساعة الثامنة أو التاسعة صباحًا ، ولا يكون لذلك من نتيجة إلاَّ وصولي إلى محل عملي متأخّراً عن الوقت المعين لحضوري ، وعدم رضى رؤسائي عني . ثم تتأبط ذراعي وتأخذني إلى غرفة الطعام حيث تكون قد أعدَّت لي فنجانًا من قهوة الشعير ، لأنها لا تريد أن أشرب القهوة العادية كما تشربها هي ، وذلك اجتنابًا لتأثيرها السيئ

في أعصابي . وقد سألتها مرةً : وأنتِ يا عزيزتي لماذا لا تشربين من قهوة الشعير هذه ؟ أفلا تخافين على نفسكِ ؟ . . فقهقهت ثم قالت : أنا أمكثُ في البيت طول النهار ، ولا تتعرَّض أعصابي لتعب أو انزعاج عقليّ كما تتعرض أعصابُك أنت في محل شغلك ، فلا اريد أن تزيد عليها تأثير شرب القهوة العاديَّة . . . وكانت تمنعني من أكل الزبدة والمعجّنات على أنواعها ، مع شدة ميلي اليها ، قائلة لي عادةً : ان هذه المأكولات تُلبك المعدة لانها عسرة الهضم ، فأنا لا أريد أن تذوقها لأنك من رجال المملكة وحياتك ثمينة للامة

— ونكنكِ تأكلين منها أنتِ !

— لا بأس عليَّ لأني امرأة . فاذا مرضتُ أو قصرت حياتي فليس في ذلك خسارة للوطن

. . . ما أطيب قلب هذه المرأة وأغزر علمها وخبرتها ! حقاً انها نادرة المثال ، منقطعة النظير ! . .

وكانت لي عادة أن افكّه نفسي بعد طعام الصباح بمطالعة إحدى الصحف اليومية ، فلم تستحسن زوجتي هذه العادة لأنها رأتها مضرَّةً بصحتي . وما زالت تبيّن لي مضارّها حتى أقلعتُ عنها ، وعدت لا يهمني شيءٌ من شؤون السياسة وأخبار الأمم

ولما كنتُ أهمُّ بالخروج إلى عملي ، كانت زوجتي تنهض وتأخذ

في إلباسي ، فكنتُ أقف في وسط الغرفة صامتًا خاضعًا لأوامرها ، وهي تلبسني ما تراه ضرورياً لحالة الجوّ في ذلك النهار ، ولكنها كانت تلقي عليَّ من الاردية ما لا يُجهَّز به إلاَّ مَن كان مزمعًا على السفر إلى القطب الشمالي . . وكانت تقول لي وهي تلبسني : يَهمُّني أن أُعنَى بصحتك قبل كل شيء ، لتظلَّ صحيحًا معافىً قادراً على العمل أمداً طويلاً

وقد اعتدتُ أن لا أعترضها في شيء ، مع اني كنت أبدو في هذه الاردية أشبه شيء بأحد رجال الاسكيمو الذين يسكنون الاصقاع الجليديَّة . ولكني لا اكتم عن القارىء اني كنتُ لا أسير بضع خطوات وأنا في تلك الملابس الثقيلة حتى يأخذ العرق يتصبَّب من كل جسمي ، فأصبح كالاسفنجة المغموسة في الماء

وكنتُ القى بعض رصفائي في الطريق ، فأراهم يسيرون بنشاط وسرعة وليس عليهم من الملابس الاَّ كلٌّ خفيف . وكثيراً ما كنتُ أرى ابتسامة غريبة على وجوههم وأسمع بعض الفاظ الاستخفاف بي ، فأتجاهل الأمر وأقول في نفسي : انهم لا يفقهون سر الحياة كزوجتي وليس لهم نسآء يهتممنَ بهم

وكانت زوجتي ترسل إليَّ بطعام الغداء إلى محل شغلي من المآكل المغذّية كالبيض وغيره ، فكنتُ احيانًا أميل إلى مشاركة

رصفائي في طعامهم أو أبتاع بعض الاشياء التي لا أجسر على أكلها في البيت . ولكن زوجتي كانت تعلم بما يكون وتُظهر قلقاً عظيماً ، فأندم على ما فعلتُ وأعترف لها بالحقيقة وأعدها بعدم الرجوع إلى مثل هذا الخطإ مرة أخرى

وكان رصفائي إذا رأوا إحجامي عن مشاركتهم في طعامهم ورأوا ما تعدّهُ لي زوجتي كل يوم يظهرون الدهشة والاستغراب ، ثم الضحك والاستخفاف ، إلى أن آلَ بهم الأمر اخيراً إلى أن صاروا يلقبوني بالحشرة و ينعتوني بما شاءوا من نعوت الاحتقار . بيدَ أني لم أكن لأُبالي بهم ، لأنهم على غير هدىً في ما يزعمون

* * *

وكانت زوجتي تأذن لي أن أطالع بعد طعام المساء بعض المجلات الفكاهية نصف ساعة فقط لترويح النفس ثم تصرفني إلى سريري ، وتذهب هي لقضاء السهرة عند احدى صويحباتها . وكانت تقول لي كل مرة : يجب أن تنام أنت لتستردَّ ما خسرته في اثناء عمل نهارك من القوى . .

وأرقتُ ذات ليلة فلم أجد إلى النوم سبيلاً ، وكانت زوجتي عند صويحباتها ، فأخذتُ أتأمل في حالتي وما أنا فيه من الغبطة والراحة بفضل زوجتي . وقد تناصف الليل وهي لا تزال خارج

البيت . فقلقت أفكاري عليها ، ولكني لم ألبث أن شعرتُ بقدومها ، فثاب إليَّ روعي و بدا مني ما نبَّهها إليَّ ، فدنت مني وقالت — ما هذا ؟ اني أراك لا تزال مستيقظاً !

ثم انحنت عليَّ وقبَّلتني ، ففاحت منها رائحة عطرية شديدة . وتفرستُ في وجهها فرأيتُه حافلاً بمظاهر الحسن والجمال ، فقلت لها — وهل عدتِ وحدكِ ؟

قالت — لا . فقد شيَّعني أحدُ معارفي من طلاَّب الهندسة في الكلية . . وهو يشيّعني عادةً كلما عدتُ متأخرةً إلى البيت ، لأني لا أُريد أن أعكر عليك صفآء راحتك وأعبث بأوقات نومك لتسير معي إلى كل مكان بنفسك . . . ليعملْ مثل ذلك غيري من النسآء اللواتي لا يهمهنَّ أمر أزواجهن . . . وهذا المهندس شاب لطيف العشرة خفيف الروح لا يتأخر عن خدمتي في سبيل راحتك وسرورك

— لقد أصبحتُ معترفاً بجميل هذا الرجل وصرتُ أودُّ أن أعرفه لأشكر لهُ معروفه ومروءته

— إذا كان ذلك يرضيك فغداً أدعوه إلى منزلنا . . . ثم قبَّلتني بسرور وذهبت الى سريرها

وفي اليوم التالي زارنا المهندس . فاذا به فتىً في سن الخامسة

والعشرين، جميل الطلعة قويّ البنية طويل القامة. وقد رأيتُ نفسي بازائه حقيراً ضئيلاً قبيح الصورة أعجف البدن . ولما صافحتهُ فاحت منه روائح العطر كالتي شممتُها من زوجتي أمس . .

وتوطدت العلاقة بعد ذلك بيننا و بين هذا المهندس الجميل . . فكان يزورنا كل يوم ويأكل على مائدتنا من الالوان التي لا تبيح لي زوجتي اكلها خوفًا من غائلتها عليَّ . وكنتُ بعد العشآء ومطالعة بعض الفصول الفكاهية أنطلق إلى سريري ، ويخرج المهندس مع زوجتي إلى منازل صويحباتها أو إلى بعض حفلات الانس ومسارح التمثيل ، بينما أكون أنا راقداً في فراشي أُجَدِّد قواي المندثرة في اثنآء عمل النهار وأحلم الأحلام اللذيذة . . . وكانا يعودان الى البيت عادةً بعد منتصف الليل ، فكنتُ أحيانًا أستيقظ على صوت تهامسهما ، فأشكر في نفسي لطفَهما ورغبتهما المتناهيــة في استكمال أسباب راحتي وعدم إزعاج هدوء ليلي . .

وشعرتُ في إحدى الليالي كأنهما يتعانقان ، فذكرتُ ذلك لزوجتي على سبيل المزاح ، فقالت متضجّرة — يظهر لي انك لم تفهمني بعد ! ألا تدري أن سعادتك هي أسمى في نظري من حياتي كلها ؟ فكيف يمكنني أن أُقبّل رجلاً غريبًا أو أدعه يُقبّلني وأنقــل بذلك بعض المكروبات المضرَّة إلى زوجي وأُنغّص عليه حياته ؟

ان ذلك ذنب عظيم بل جريمة لا تصدر إلاَّ من النسآء الجاهلات الشريرات اللاتي لا يَقْدُرْنَ حقوق الزوجيَّة قدرَها

فطابت نفسي بهذا الكلام وقلتُ لزوجتي — ولكني لم أقصد بكلامي الاَّ المزاح والمداعبة . . وربما كان ذلك حلمًا

* * *

وبعد أيام عُدتُ مساءً إلى منزلي ، فرأيتُ على مائدتي رأس أيّل جميلاً بقرون جميلة ، فسألتُ زوجتي عنه فقالت — انه هدية من المهندس قد أطرفك بها . .

فزاد ارتياحي إلى هذا الرجل وثنائي على مروءته ، وازددتُ في الوقت نفسه احترامًا وعبادةً لهذه الزوجة الكريمة التي لا يهمُّها من الدنيا الاَّ راحة زوجها وسعادته !!!



المومياء



من أشهر فراعنة مصر الملكُ رعمسيس الثاني الكبير المشهور عند اليونان باسم سيزوسترس ، وهو الملك الثالث من فراعنة الدولة التاسعة عشرة التي ملكت في نحو سنة ١٣٥٠ ق . م

وكان رعمسيس هذا ملكاً عظيماً مفطوراً على الميل إلى خوض المعارك مولعًا بفتوح البلدان وتدويخ الممالك ، وقد كثرت الحروب في عهده كثرة لم يسبق لها نظير وعظمت علوم مصر وحسنت صنائعها إلى الغاية ، حتى ان علماء هذه الايام ومَهَرة صنَّاعها يعجبون بأعمال المصريين في ذلك العصر

وكان رعمسيس قد شارك أباه (سيتي الاول) في المُلك يوم

كان ابن ثماني سنوات ، وصار من رجال الحرب بعد ذلك بنحو خمس سنين وقاد كتيبة لمحاربة اعداء مصر والتنكيل بهم

ولما استقل بالملك وحده ، بعد موت أبيه ، وطّن النفس على محاربة العالم بأسره ، فحشد جيشاً بلغ ٦٠٠٠٠٠ مقاتل من المشاة و ٢٤٠٠٠ من الفرسان و ٢٦٠٠٠ مركبة حربية . وكان له عمارة بحرية مؤلّفة من اربعمئة سفينة حربية . فزحف بجيشه الى ايثيوبيا (بلاد الحبشة) فاجتاحها. وسارت عمارته البحرية تمخر عباب البحر الاحمر والمحيط الهندي وتستولي على ما فيهما من الجزائر والسواحل . وبعد أن فرغ من أمر ايثيوبيا زحف بجيشه إلى غيرها من الاقطار فدوّخها . وكان سلطانه يمتدُّ وينتشر بسرعة غريبة ، وقد دانت له بلاد سورية ومادي وفارس ، وصحب النصر جيوشه حتى إلى نهر الكنج في بلاد الهند ، ونهر دون في روسيا . واجتاز اسيا الصغرى إلى أواسط تراكية ، ولم يثنه عن مواصلة التقدم إلاّ الجوع والبرد ووعورة المسالك . فقفل إلى مصر بعد أن استولى على جميع البلاد الواقعة ما بين نهر الكنج في اسيا ونهر الدانوب في اوربا ، وقد عظم سلطانه وقويت شوكتهُ في سائر الاقطار

وكان كلما فتح قطراً أو استولى على مملكة من الممالك ترك فيها هياكل وآثاراً وتماثيل تشهد لافعاله العظيمة وتدل على انتصاراته

وفتوحه ، وأبقى فيها فرقة من الجنود المصرية ليستوطنوها وينشروا دياناتهم وعاداتهم لتكون علامة ظاهرة لتخليد ذكره على تراخي العصور وتوالي الأحقاب ، ورسم على تلك الآثار وصف عبوره إلى هاتيك البلاد ، ونقش تاريخ استيلائه على الممالك . ولم يزل بعض تلك الآثار في سورية وغيرها من اسيا الصغرى ، ولا تزال صورته وتاريخ احدى حروبه منقوشين على صخور نهر الكلب . غير أن الكتابة قد مُحيت تقريباً من طول المدة

ومن آثاره في مصر الآبار العميقة التي حفرها في النوبة لفائدة الذين كانوا يستخرجون الذهب من جبالها . ومآثره في مصر عظيمة جداً ، حتى قيل انه جدَّدها وبنى مدينة رعمسيس في مصر السفلى وجعلها عاصمة تلك المقاطعة وأقام فيها أحسن الأبنية وأبدعها اتقاناً وهندسةً . ومن مآثره ترعة للسفن حفرها بين النيل ورأس البحر الاحمر ليصله بالبحر المتوسط . وقد شيَّد كثيراً من الجسور والقناطر والخلجان لمنفعة البلاد ورفع الاراضي المنخفضة التي يغمرها فيضان النيل . وزيَّن ممفيس العاصمة بالقصور الشاهقة والهياكل الباسقة والابنية الفسيحة وفعل غير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه

وبلغ منه التيه في آخر عهده مبلغاً عظيماً . قيل انه كان إذا ركب في موكب لزيارة المعابد أو النزهة يأتي ببعض الملوك الذين

كان قد أسرهم فيلبسهم ثيابهم الملوكية ثم يربطهم كالخيل اربعةً أربعةً ليجرُّوا مركبته

وملك رعمسيس ٦٧ سنة وكان له من الأولاد نحو ١٦٢ ، منهم مئة وأحد عشر من الذكور . وخلفه على سرير الملك ابنهُ منفتا ، وهو الثالث عشر من أولاده

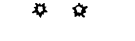
* * *

ولما شعر الملك رعمسيس الثاني بدنوّ أجله دعا ابنه وولي عهده منفتا وقال له — ها أنا راحلٌ عن هذه الدنيا يا ولدي ، فستخلفني أنت في المُلك . وقد أحببتُ أن اوصيك وصيةً يكون من ورائها الخير والسعادة لك ولشعبك . فاعلم يا ولدي اني قد أفنيتُ عمري في الحروب والغارات ، واستحوذتُ على اكثر ممالك الارض وقهرتُ ملوكها وجعلتهم لي عبيداً . ولكني لم أرَ في ذلك كلّه نفعاً حقيقياً لشعبي ، فندمتُ على ما فات وأدركتُ الآن ان الحروب هي آفة العمران ومدمّرة الاوطان وجالبة الاحزان ، بل هي الجنون المحض ، وان موقدي نارها هم أشدُّ الناس جنوناً . وعليه فاني اوصيك أن لا تقتدي بي ، بل دع الحروب وشأنها واجتهد في أن يعمّ السلامُ مملكتَك ويخيّم على جميع انحائها . وكلما اشكل عليك أمر شاور فيه معلمك الحكيم خيكوس

فلما سمع منفثا هذا الكلام بكى من شدة التأثُّر وأقسم لأبيه بأُوزيريس ، إله الشمس : أن لا يخالف مشيئته

فبرقت أسرة رعمسيس سروراً وأشار إلى الحكيم خيكوس ، وكان من أقرب رجال خاصته واكثرهم حكمةً وسداداً في الرأى وقد مال اليه الملك لِما رأى من كفايته وخبرته وحسن قيامه على تعليم ابنه ، فدنا من سريره ، فأسرَّ اليه الملك كلاماً ثم فاضت روحه بين أيدي ابنه والحكيم خيكوس

ماذا كان هذا السرّ الذي أفضى به رعمسيس إلى خيكوس الحكيم ؟ — لم يعلم أحد عنه شيئًا ولم يسمع الذين كانوا جالسين بالقرب من خيكوس من رجال البلاط إلاَّ هذه الكلمات : الحرب . المومیا . الرِق .. .



مضت السنة الاولى من مُلك منفثا والسلام منتشر في جميع البلاد ، وقد بَرَّ الملك في قَسَمه لأبيه ، فلم يُثِرْ حربًا ولم يحشد جيشًا ، وكان همُّهُ ادارة شؤون المملكة واصلاح امور الاحكام وتوطيد السلام على أمتن قواعده ، ثم انصرف إلى نشر العلوم وإحياء التجارة ومساعدة ارباب الصنائع والفنون وإقامة الانصبة والتماثيل . وكان الشعب يمجّد أعماله ، والموسيقيون والشعراء

يتغنون بذكر مآثره ، والنقّاشون يصنعون له التماثيل الجميلة من المرمر البديع ، وخيكوس يفتخر به لأنه كان تلميذه

غير أن رجال الحرب وقادة الجيوش لم يرضوا بهذه الحال لأنهم كانوا قد أثْروا في عهد أبيه ، فطمعوا في زيادة أموالهم في عهده ، وقد سئمت نفوسُهم البطالة ، ولم يروا لسد مطامعهم إلاَّ الحرب . فانطلقوا ذات يوم إلى الملك وقالوا له — نسألك باسماء جميع الآلهة أيها الملك العظيم أن تبعث بنا إلى ميادين الوغى لأننا لم نُخلَق لمثل هذه الحياة الهادئة ، وأنت لم تُخْلَق لتقضي عمرك كله بين جدران قصرك ، وهذه أمائر وجهك تدلُّ على أن السماء قد بوّأتك عرش أسلافك لتُخضع العالم بأسره . ابعث بنا إلى مقاتلة العبرانيين والفلسطينيين أو غيرهم من الامم فنخضعهم وندوّخ بلادهم ويتمجّد اسمك في كل مكان وتكون أشهرَ من سبقك من الفراعنة العظام

فلما سمع منفثا هذا الكلام شعر من نفسه بارتياح اليه وقال لمعلّمه — أرى أن هؤلاء الابطال ينطقون بالصواب ، فيجب أن تبكّر أيها الصديق العزيز إلى القوّاد فتأمرهم بحشد الجيوش ، لأني اريد أن استولي على سائر الاقطار في أقل من سنة ، ولا نلبث أن نعود بعد ذلك إلى هنا فنواصل اجراء العدل وتشييد الهياكل واغتنام المسرّات

فبُهت خيكوس وأطرق يفكّر في وسيلة يُفحِمُ بها الملك و يَثنيه عن عزمه ثم قال — ليس من الحكمة يا سيدي الملك أن نُعلن الحرب قبل استشارة الكهنة . إذ انه لا بُدَّ من استطلاع أنباء المستقبل بواسطة الحيوانات المقدَّسة

وفي اليوم التالي جاء الكهنة وقالوا — اننا قد سألنا الحيوانات المقدَّسة رأيها فيما عزم عليه جلالة الملك من شَهْر الحرب على الاعداء فأظهرتْ سرورها العظيم ، وأيَّد بعضُها ذلك باشارات واضحة تدلُّ على وجوب إعلان الحرب ، لِما فيهـا من الفوز الباهر للملك . فمن هذه الاشارات ان التماسيح أخذت تمرح في حوضها بغاية الطرب . و إبيس[1] ابتلع أربع عشرة ضفدعة مرة واحدة ، وهذا يدل على ان منفتا العظيم سيضرب أعداءه الضربة القاضية و يستولي على بلادهم بدون كبير عناء . والهررة أخذت تموء مواءً خاصًّا كأنها تقول : أُخرجوا إلى الحرب لأن الظفر ينتظركم . . .

فلما سمع الملك هذا الكلام طفح وجهه سروراً ، فصرف الكهنة من لدنهِ وخاطب خيكوس قائلاً — أنت ترى الآن أيها

---

(١) هو اسم العجل الذي كان يعبده المصريون وكانوا يتعبون جداً ليجدوه لانه لم يكن كباقي العجول . بل كان من المتحتم ان يكون شعره اسود وعلى جبهته غرة مثلثة الزوايا وغير ذلك من العلامات

المعلم الحكيم أن الآلهة غير حانقة علينا وانها تُنبئنا بالفوز العاجل . فبادِرْ إلى القواد ومُرْهم بأخذ الأهبة للقتال

فقال خيكوس بر باطة جأش — إحذرْ مما أنت فاعله يا ملكي الحبيب ، لأن هؤلآء الكهنة إنما أرادوا بهذه الخزعبلات أن يموّهوا عليك ويتملّقوك كما فعل قادةُ الجيش . ان العجول أيها الملك تفترس الضفادع كل يوم . والتماسيح تمرح في الماء ولا شغل لها غير هذا . والهررة لا تعرف إلاَّ المواء . فليس في كل ذلك أقلّ دليل على الانتصار . فدع يا سيدي هؤلآء الكهنة وحيواناتهم المقدسة وسَلْ إذا شئتَ أحد حكمآء الكلدان لأنهم اكثر الناس اطلاعًا على أسرار الغيب

قال — حسن ، عليَّ بأحد هؤلآء الحكمآء

وفي اليوم التالي مَثَل بين يدي الملك مجوسيٌّ من حكمآء الكلدانيين ، وكان شيخًا طاعنًا في السن وله لحية كبيرة بيضآء تغطي صدره ، ولما سُئل عن عمره أجاب بأنَّ له مئتين من السنين وانه يعرف أجداد منفثا وطالما أنبأهم بحوادث المستقبل وكانت لهُ حظوة عندهم

فقال الملك — أنبئني أيها الحكيم بما سيلده لي الغد من نتائج الحـ ، التـ عقدتُ عزمي على اضرام نارها

فأخذ المجوسي منخلاً وألقى فيه شيئًا من الدقيق وجعل ينخله بين يديه وينظر إلى الدقيق المتطاير على الأرض ويتمتم كلماتٍ لم يفهم الملك منها شيئًا

ولما فرَغ من عمله ، والملك والحضور شاخصون اليـه ، رفع نظره إلى الملك وقال — هل رأيت يا سيدي كيف تطاير هذا الدقيق ؟

قال الملك باهتمام — نعم

قال — إعلم إذاً أنك ستظهر على أعدائك فيتطايرون من امامك كذرّات هذا الدقيق ، وان العاقبة ستكون لك في كل حرب تريد أن تخوض غمارها ، وستمتدّ شوكتك في الآفاق وتَدين لك جميع الامصار

فأشرق وجه الملك سروراً وأجزل العطاء للمجوسيّ وصرفه بسلام . ثم خلا بمعلمه وقال — هل بقي عندك ريب أيها الحكيم في حسن العاقبة ؟

فهزّ خيكوس رأسه وقال — أرى أن هذا المجوسي من كبار المشعوذين ، فأتوسل اليك يا مولاي أن لا تصدّق شيئًا من ترّهاته

فتململ الملك في كرسيهِ وقد قطب وعبس وقال — وهل بقيَ مَن يجب أن نسأَلَهُ رأيَه في هذا الشأن ؟

قال — نعم ، بقي المنجمون

فأمر الملك بسؤال المنجمين ، فأجابوا : ان الملك سيظفر بأعدائه لا محالة ، وقالوا إنهم قرأُوا الاشارة إلى هذا الظفر في جَلَد السمآء منقوشة بالكواكب الساطعة

وما عتَّم منفثا بعد سماعه كلام المنجمين أن أمر بتعبئة الجيوش وتجهيز الأسلحة والذخائر الحربية . و بعد أيام كانت شوارع ممفيس غاصَّة بالوف الجنود ، وقد جُهِّزت كل معدّات القتال ، ولم يبقَ إلاَّ أن يصدر أمر الملك بالزحف

وكان خيكوس ينظر إلى تلك الاستعدادات و يسمع عويل النسآء والأطفال الذين كانوا يودّعون رجالهم وآباءهم فيتفطَّر قلبُهُ حزنًا ، ولم يرَ أخيراً إلاَّ أن يلجأ إلى السر العظيم الذي أفضى به اليه رعمسيسُ في ساعة موته . فجآء إلى الملك وقال — ألتمس منك أن توليني نعمةً واحدة قبل أن تمضي على عزمك . انك قد استشرتَ الاحيآء من رعيتك في أمر هذه الحرب وقد أجابوك بما يخالف رأيي ، فأنا أبتهل اليك أن تستشير الأمواتَ أيضًا

فضحك الملك وقال — ولكن الاموات صمٌّ بكمٌ لا يسمعون ولا يتكلمون !

قال — ولكنك قد أصختَ بسمعك إلى المنخل والنجوم ؛ فماذا يمنعك أن تسأل الاموات أيضًا وهم حسب شريعتنا يسمعوننا ويروننا دون أن نشعر بهم ؟ هيَّا بنا يا سيدي الملك إلى ضريح والدك العظيم ، فلعلَّه ينبئك بالحقيقة التي لا تستطيع أن تسمعها من البشر الاحياء

قال — قد نفد صبري . . . ولكني سأفعل ما تريد ، بشرط أن لا تزعجني بعد الآن بمثل هذا الامر ولا تقف في طريق ارادتي. وستعلم الآن ان رعمسيس بسكوته العميق سيبرهن لك على صحة عملي

ثم انطلقا كلاهما إلى مدفن رعمسيس . وكان في مخدع مزيَّن أبدع زينة ضمن هيكل تحت الأرض ، وجثة الميت محنَّطة وموضوعة في تابوت من الذهب الخالص ، وقد أُوقدت حوله المصابيح وفاحت الروائح الذكية في كل جوانب الهيكل

فتقدَّم خيكوس ورفع غطاء التابوت ، فأبصر منفثا مومياء مرتدية بأفخر الملابس الملكية . — تلك كانت جثة الملك رعمسيس الثاني

فوقف منفثا بمزيد الاحترام والوقار وقد غضّ بصره وطفحت عيناه بالدموع

و بعد صمت قليل التفت إلى معلمه وقال — قلتُ لك ان والدي سيبرهن لنا بسكوته على صحة عملي

ولكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمات و ينظر ثانيةً الى المومياء حتى رأى في إحدى يديها قطعة من الرقّ، فحدّق اليها ببصره وهو كالمأخوذ وقرأ ما يأتي :

«ان الأحياء من البشر يكتمون الحقيقة عن ملوكهم تزلّفًا اليهم وتمويهًا عليهم . ولكنك يا منفثا تستطيع أن تعلم هذه الحقيقة من الأموات ، لأنهم ان نطقوا فلا ينطقون الا بالحق . انك قد أقسمتَ لي يا ولدي على عدم اثارة الحروب في مملكتك فلا تحنث بقسمك بل كن راغبًا على الدوام في السلام ، لأن في ذلك فقط رفع شأن بلادك وادخالها في أحسن أعصر الحضارة واليسر . لا تطمع في توسيع ممالكك ، وتهرق في سبيل ذلك دماء رعيتك . لأنك مهما أخضعت من الأقطار ومهما امتدّ نفوذك وانتشر سلطانك فليس لك أخيراً الاّ قيد باع من الأرض حيث يكون مثواك كما تراني الآن . فعُدْ يا ولدي عن عزمك وسِرْ في الخطة التي انتهجتها في أول عهدك تبارَكْكَ رعيتك وتمجدْ اسمك الى الأبد »

فلما قرأ منفثا هذا الكلام ارتعش جسمه فرَقًا وأطرق خاشعًا ضارعًا وقد تجلّت له الحقيقة بتمامها



وبعد أن قضى بازآء ضريح والده بضع ساعات ، عاد بمعلمه الى القصر وقال له — انك يا خيكوس لأحْكَمُ أهل زمانك ، وقد ندمتُ الآن على مخالفتي لنصيحتك ، فبادر أيها العزيز وأعلن في ممفيس عدم رغبتي في الحرب ، وقل للجنود ان ينصرف كلٌّ منهم الى حقله وأهله ، فلا أريد حربًا بعد الآن ، والويل كل الويل لمن يحاول خداعي والتمويه عليَّ بمثل تلك الأضاليل والخزعبلات . . .



آخر تذكار

كانت سلوى تحب زوجها كريمًا حبًّا فائقًا وتعدُّ نفسها سعيدة به ، غير أن القدر شاء أن يشتّت شملهما الى الأبد . فقد سافر زوجها في سكة الحديد الى جهة معلومة لقضاء بعض أعماله ، وبينما كان القطار قريبًا من إحدى المحطات ، خرج عن القضبان الحديدية وانقلب ، فتحطّمت بعض مركباته وقُتل جمهور من الركاب ، وفي جملتهم كريم ، فحُمل الى منزله جثةً باردة . وكان منذ ساعات قد خرج من ذلك المنزل مبتهجًا مسروراً تشيّعهُ زوجتهُ على أمل اللقاء القريب

وجاء بالجثة طبيبٌ واثنان من رجال الشرطة فدخلوا على زوجة الفقيد ، وتلطّفوا في نعيِ زوجها اليها وعزّوها عن فقدهِ ،

وأشاروا عليها أن تتجنَّب النظر الى وجهه لتبقى في مخيلتها صورته وهو حيٌّ . فبكت سلوى بكاءً شديداً ، وقد شعرت بانقضاءِ سعادتها وسرورها ، واستصوبت مشورة الطبيب والشرطيين . مفضلةً أن يبقى لزوجها في ذهنها صورة رجل حيّ صحيح ، لا صورة قتيل مهشم الأعضاءِ

وقال لها الطبيب — ان الفقيد بقي حياً بعد سقوط القطار وتحطُّمه بضع دقائق ، ولما رفعوا عنه بعض الانقاض وجدوا في يده دفتر مفكراته ، فالظاهر انه كتب الى زوجته شيئاً قبل ان فاضت روحه

فتناولت سلوى الدفتر بلهفة من يد الطبيب ، وقرأت في ورقة منه ملطخة بالدم هذه الكلمات ، وكانت مكتوبة بقلم من رصاص : « أستودعكِ الله أيتها العزيزة ، لا تنسيها . . . »

* * *

كانت هذه الكلمات لغزاً غامضاً لم تستطع سلوى حلَّهُ ، فجعلت تكررها ليلاً ونهاراً ، وهي تودُّ أن تجلو غامضها ، وتعرف مَنْ هي هذه « المرأة » أو « الفتاة » التي يوصيها بها زوجها في الدقائق الاخيرة من حياته . .

ولم تلبث بعد ذلك ان خامرتها الشكوك واستولت عليها الحيرة والذهول ، فازدادت اضطرابًا وحزنًا

واتفق أنها رأت في حفلة المأتم امرأة مقنَّعةً كانت واقفة بين الجمهور تلوح عليها لوائح الذل والانكسار... نعم ان جميع الحضور كانوا يُظهرون الاسف على فقد كريم ، وكثيرون منهم شاركوا زوجته في الحزن والبكاء ، ولكن هذه المرأة المجهولة كانت أشدهم حزنًا وأسفًا . ولما قرأ رئيس الدين عظته ، أُصيبت هذه المرأة بنوبة عصبية ، فبادر اليها بعض الواقفين ، وأخرجوها من الكنيسة

وحينئذٍ تحققت سلوى أن كريمًا انما أوصاها بهذه المرأة . فيجب اذاً أن تراها وتستطلع طلع حالها

وبعد انقضاء حفلة الدفن عادت سلوى الى منزلها مصفرَّة الوجه ، محمرَّة العينين من شدة البكاء ، وقد رافقها رجل من أقرباء زوجها وأصدقائه ، فأخبرته بأمر الورقة ، أي بآخر تذكار من زوجها ، ورغبت اليه في معرفة المرأة التي أصابتها النوبة العصبية في الكنيسة

فذهل الرجل وقال — أما أنا فأرى أن يدفن كل هذا مع الفقيد

فأبرقت عينا سلوى ونظرت الى الرجل نظرة كأنها تقول لهُ « إن الحب هو أقوى من الموت » . ثم تنهدت وقالت بصوت مرتجف — هذه إرادة كريم — أن أعرف المرأة وأهتم بأمرها . . . ومَن يعلم اذا كان لها أولاد أو لديها تذكار منه

قال — ليس لها أولاد

قالت — فأنت اذاً مطلع على علاقة كريم بها !

قال — نعم ، ولذلك التمستُ منكِ أن تدفني هذا التذكار مع الفقيد لئلاَّ يزيد حياتكِ شقاءً وعيشكِ تنغيصاً

فلما سمعت سلوى كلامه زاد كربها واشتدَّت آلام نفسها ، ولكنها ظلت مصممة على مقابلة حبيبة زوجها ، ولو كان في ذلك ما يشقُّ عليها احتماله

وبعد ثلاثة أيام جاءت الى منزل سلوى امرأة يقال لها أمينة ، وكانت في شرخ شبابها ، مرتدية بالسواد ، وعلى وجهها أمائر الحزن الشديد . فاستقبلتها سلوى بغاية اللطف والبشاشة وسألتها أن تقيم معها

أما معارف سلوى فلما بلغهم ما فعلته دهشوا وهم بين معجب بعظمة نفسها ، ولائم لها على هـذه الرقة . أما هي فكانت ترى في انفاذ وصية زوجها كل سرور وغبطة

وكانت تقضي اكثر ساعات النهار في محادثة أمينة عن كريم ، وتودُّ كل واحدة منهما أن تلطّف أحزان الاخرى

وكانتا تذهبان معًا كل صباح فتزوران ضريح الفقيد وتمكثان هناك بعض الوقت في التأمل والحديث ثم تعودان الى المنزل حيث كانتا تقضيان باقي الوقت في التذكارات المختلفة . فتقص الواحدة

على الاخرى تاريخ حبها لكريم بالتفصيل والاسهاب أو تقرأ كتبه ورسائله

كانت سلوى تسمع قصص امينة وتقرأ كتب زوجها اليها وهي مضطربة القلب دامعة الطرْف .. انها أبت أن تنظر الى وجهه حينما نقلوه الى البيت جثـةً هامدةً ، لتظلَّ صورته في مخيلتهـا كاملة ، ولـكنها الآن تقرأ تاريخ حياته مشوَّهًا ، وكل كلمة منه تقع في قلبها موقعًا سيئًا محزنًا .. انها كانت تحبه وتثق باخلاصه وترى نفسها سعيدة بازائه ، والآن أسفت على كل ما جرى ، وقد امتلأ قلبها حزنًا وتلهفًا وتنغصت حياتها وندمت على استدعآء أمينة والاطلاع منها على هذه الحوادث المؤلمة .. وقد أبغضتها لأنها تودّ بمثل هذه التذكارات أن تبخسها حقوقها وتختلس منها ذكر سعادتها الزوجية

وفي صباح أحد الأيام انطلقت سلوى وحدها لزيارة ضريح زوجها ، ولم تلبث ان رأت أمينة مقبلة وبيـدها اكليل من الورد وضعتهُ على الضريح وقالت لسلوى – لقد أتيتِ اليوم وحدكِ الى هنا !

فقاطعتها سلوى قائلة — نعم ، ويجب أن نفترق من هذه الساعة

فتنهدت أمينة وقالت – نعم وقد كان يجب أن نفترق منذ زمان

فقالت سلوى يا ليتني لم أعرفك بعد وفاته . فقد فقدتُهُ الآن مرة أخرى ، وهذا أشد وطأة على قلبي من فقده يوم مماته . . .



المال

كان في احدى المدن الكبرى شاب يُقال له راعول ، خدم منذ الصغر في احدى دوائر السكك الحديدية بمرتب زهيد ، فلم يتفق له ان يحرز من المال الاَّ كفافه اليومي . بيدَ ان فقره لم يكن ليمنعه من مغازلة الحسان والتزلُّف اليهنَّ في اوقات فراغه . وحدث انه علق بفتاة من أُسرة عريقة في الحسب والنسب أناخ عليها الدهر فأزال ما كانت عليه من السؤدد واليسار وجعلها في حالة الفقر

وكانت هذه الفتاة – واسمها انيسة – في مقتبل العمر ونضارة الشباب، هيفآء القوام، فتَّانة الجمال. فأحبَّها راعول وأخذ يتردَّد عليها فيقضي اكثر ساعات فراغه في خدمتها

ولم تكن انيسة تأنف من مسايرة راعول وملاطفته ، بل كانت تميل اليه لِما ترى فيه من حسن الطلعة ورقة المعاشرة واخلاص



(المال)

الخدمة . وكانت في اغلب الاحيان تلبّي دعوته الى الملاعب والمراقص . ولو كان راعول ايسر حالاً لتحوَّل ميلها اليه مودة وصداقتها له عشقًا ، ولكنها كانت معه على الدوام كثيرة التحرُّز والتبصُّر خوفًا من وقوعها في شرك الغرام وتعريض نفسها لازدراء صويحباتها وذوي قرباها

وفي ذات يوم زار راعول صديقته انيسة ودعاها لحضور تمثيل رواية في احد الملاعب الفخمة، وضرب لها موعداً قريبًا . ولما لم يكن لديه وقتئذٍ شيء من المال انطلق ماشيًا الى بيت صديق له يدعى بطرس ليقترض منه ما يقوم بنفقات الدعوة . وكان بطرس هذا مستخدمًا في بعض المصارف وعنده علاوة على مرتبه ثروة نالها ميراثًا عن والده . وكان في اكثر الاحيان يساعد راعول فيمدّهُ بماله على شرط الوفاء في اول فرصة

ولما وصل راعول الى بيت صديقه لم يجده هناك فهمَّ بالانصراف ، غير ان اهل المنزل ألحوا عليه بالدخول قائلين ان بطرس لا يلبث ان يحضر ، ثم ادخلوه غرفة لبطرس كانت مضاءة بمصباح كبير . فجلس راعول على كرسي هناك وتناول عن المائدة مجموعة صور بقصد التشاغل بها ، ولم يلبث ان اعادها الى مكانها واخذ جريدة فقرأ فيها قليلاً ثم طرحها جانبًا وعاد الى نفسه يتأمل في حالته وما صار اليه مع انيسة

وإن هو لكذلك اذ حانت منه التفاتة الى ارض الغرفة فأبصر تحت المائدة على سجادة صغيرة شيئًا يلمع استوقف بصره ، فانحنى وتناوله واذا به جنيه ذهب ، فأبرقت اسرّته ودهش لوفرة غنى صديقه وحسده على هذه النعمة . و بعد ان أجال نظره في الجنيه ألقاه امامه على المائدة ثم تنهد والتفت الى ما حوله واخذ يناجي نفسه بقوله : لو كان هذا الجنيه لي لكنت أسعد حالاً وأعلى شأنًا ، لانه يبلغني ما لا ابلغه بدونه ، و ينيلني الحظوى في عيني محبوبتي و يقربني الى قلبها . فكنت اول ما أفعله اني أبتاع زوجًا من القفازات الجلدية الثمينة ثم اذهب وانيسة الى الملعب واجلس واياها في مقصورة جميلة بحيث يرانا جميع الاصدقاء والحساد ، فأفقأ في عيونهم حصرمًا ، وكنت أدعوها بعد التمثيل لتناول الطعام في احد المطاعم الفخمة ثم أعود بها الى منزلها في مركبة فاخرة . . . ولا شك في ان كل هذا سيبهر انيسة وقد يحملها على الهيام بي

ولما أجال راعول هذه التأملات في مخيلتهِ ازدهى طربًا واختال تيهًا ، فمدّ يده وتناول الجنيه واخذ يقلبه بين انامله و يعجب لمقدرته وعلوّ شأنه، وكيف ان هذه القطعة الصفراء الصغيرة تقدر ان تنيله جميع هذه اللذات وترفع منزلته في العيون . .

ثم أعاد الجنيه الى المائدة ولكنه لم يحوّل نظره عنه كأنه جُذب اليه بقوة غريبة شغلت قلبه وأخذت بمجامع حواسهِ ، فشعر بضعف نفسه ووهن عزائمه ، وأحسَّ بميل شديد الى الاستيلاء على هذا الجنيه الخلاَّب الذي منذ وقع نظره عليه ذاق حلاوة تلك اللذات . فرأى نفسه جالسًا في الملعب بازاء انيسة ، وقد شخصت اليه الابصار ورأى الجميع قفازاته الجميلة وحسدوه على حب انيسة له وكلفها به . .

وبينما كان راعول غارقًا في لجة هذه الافكار قرع جرس الدار ، فانتبه لنفسه وارتجفت جميع اعضائه . ولكنه بأسرع من طرفة عين اخذ الجنيه عن المائدة وألقاه في جيبه ، وأراد ان يظهر السكينة وخلو البال ، غير ان الدم صبغ وجهه وقد جفت حنجرته كأنه ازدرد جمرة حامية كادت تحرق احشاءه . ثم تجلَّد ونهض لاستقبال صديقه بطرس ، وقد عاد واياه الى الغرفة وهو يقول بصوت متقطع — . . وهكذا هرعتُ اليك ايها الاخ راجيًا ان تفرج كربتي ، فاوفيك في اول فرصة . . وما حيلتي ايها الصديق . . فقد همت بحب غانية بديعة المحاسن . . ولا شيء لديَّ من المال . .

ولم يكن بطرس يعهد في صديقه مثل هذه اللهجة ، فسأله مستغربًا — ماذا حدث لك ايها الصديق ؟ فهل أصبحت محبًا والهًا حتى كدت تفقد عقلك ؟

قال — اجل . اني أكاد أفقد عقلي في حب هذه الفتّانة ولا مال لدي . . فأسألك ان تقرضني ريالين او ثلاثة فاوفيكها قريبًا . . اغثني ايها الصديق ولا تخيب آمالي فيك

قال — لبيك ايها الاخ فسأنقدك ما طلبت . واجلس الان أحدثك بامر جرى لي اليوم وساءني جداً

قال — وما هو ؟ اخبرني بربك ولا تخف عني شيئًا . . قال هذا وهو يتلفت الى جميع الجهات وقد امتقع وتغير وجهه

قال — فقدت جنيهًا في هذا الصباح ، وقد بحثت عنه طويلاً فلم أجده ، كأن الارض انشقت وابتلعته

فلما سمع راعول هذا الحديث ازداد وجهه اكفهراراً وقال لصديقه بصوت ضعيف — ستجده ان شاء الله بلا عناء . . فلا تقنط من وجوده . . واين فقدته ؟

قال — هنا في الغرفة

فاشتدّ اكمداد راعول واختلجت شفتاه وتصبب العرق البارد من جبينه ولكنه تجلد وقال — لا تبتئس ، فستجده على اهون سبيل . . وقد فقدت انا اليوم ورقة مهمة وبحثت عنها ساعة كاملة . . ولكني رأيتها بعد ذلك امامي على المائدة . .

فدهش بطرس لهذه الامائر والحركات في صديقه ولم يعرف كيف يفسرها ، ولـكنه قال — فتشت عنه بكل اهتمام فلم اجده وقد تأسفت عليه

قال — يحق لك ان تتأسف لان المال عزيز . .

قال راعول ذلك وهو لا ينفك يتلفت الى كل جهة وعلى وجهه علامات الارتبـاك . واخيراً قال لصديقه — والان ماذا ؟ الست عازمًا ان تقرضني شيئًا من المال ؟

قال — وعدتك ان اعطيك ما شئت ، فما بالك لا تستقرُّ ولا يهدأ روعك ؟

فتنهد راعول وقال — لا بد من ذهابي الساعة لان داعي الغرام يحملني على الاسراع

قال — ولـكني في شوق اليك فلن أدعك تذهب ما لم تطرفني بشيء من اخبارك

قال — حبًا وكرامة ، ولا أحبّ الي من مجالستك مهما اكن مشغولاً

ولما قال هذا عاد فجلس الى المائدة واخذ ينقر عليها باصابعه . وما عتم ان تناول قبعته . ثم القاها من يده وعاود التنقير . ولم يكن الحديث متناسقًا بين الصديقين ، لان راعول لم يكن يعي حديث

صديقه ، بل كان يجاوبه على غير انتباه ، وهو يشط عن الموضوع وينتقل من بحث الى آخر . ولم يكن كلامه مرتبطاً ملتحماً حسبما يقتضيه المقام . ولو رآه في هذه الحالة احد غير بطرس لايقن انه مصاب بشلل في اعصابه ودماغه . . وراعول نفسه أدرك ان حالته هذه على غاية من الاضطراب ، وقد تدعو الى الريب في شأنه وتقف صديقهُ على دخيلة امره . فطفق يبذل الجهد ليسكن ما ثار في نفسه من القلق والاضطراب ، ولكنه كان كلما ازداد اجتهاداً في الظهور بالسكينة ازدادت حالتهُ ارتباكاً ، ولم يبق عنده شك في ان بطرس قد اطلع على سره وسبر غور قلبه ، فارتجف وأوجس خوفاً عظيماً وشعر بشبه حمى تسري في بدنه

وكان بطرس قد قلقت افكاره على صديقه ، ولم يدرك شيئاً من هذه الغوامض ، فقام لساعتهِ فنقده ثلاثة ريالات وقال — خذها وأسرع الى محبوبتك ، لان حمى العشق كما يتراءى لي قد نهكتك ، وأظهرتك في اغرب المظاهر

قال — بالصواب نطقت . فعليَّ ان لا أتأخر دقيقة بعد الان لان انيسة بانتظاري وقد هاجني الشوق اليها

ولما قال هذا نهض من مكانه ، فأخرج من جيبه ساعته بسرعة ليرى الوقت ، فطار معها الجنيه المخبوء ثم سقط واخذ يتدحرج في ارض الغرفة

ومن لنا بوصف حالة راعول في تلك الدقيقة الهائلة ، وقد استطير قلبه هلعاً وجزعاً . فشخصت عيناه وجمد الدم في عروقه ووقف كمن أُصيب بصاعقة

وكان بطرس قد التقط الجنيه عن الارض وهو في اشدّ حالات الذهول . وقد انقبضت شفتاه وارتسمت على وجهه امارات الغمّ الشديد لانه عرف ان هـذا الجنيه هو الجنيه المفقود بعينه ، وقد انجلت له الحقيقة واتضح له سبب حيرة راعول وارتباكه ، فالتفت اليه فقرأ على وجهه ما يثبت الخيانة ، فشق عليه ذلك جداً وارتعد في داخله ، ولـكنه تجـلد فناوله الجنيه وقال — يظهر انك غني يا صاح !

فاختلج راعول وزفر زفرة حارّة ثم قال بنفس متقطع ، وصوت خافت يكاد لا يُسمع — ولـكنه الجنيه الاخير ايها الصديق . . وقد ادّخرتهُ لأدفعه ثمن حذاء اشتريتهُ منذ بضعة ايام . . ماذا اعمل ؟ فالفتاة فتانة ، وانا مشغوف بحبها . . .

قال — واني اتمنى لك النجاح . .

وظلّ الصديقان واقفـين جامدين ، وكل منهما في معظم الاضطرابات النفسية، وقد نالهما من القلق وشدّة ضغط الدماغ ما كاد يفقدهما الادراك . غير ان راعول انتبه الى نفسه اخيراً فمدّ يده الى

صديقه مودعًا بصوت شديد الاضطراب . فوجه اليه بطرس نظرة حادة اخترقت احشاءه ، ثم ودعه بجفاء وعاد الى مجلسه

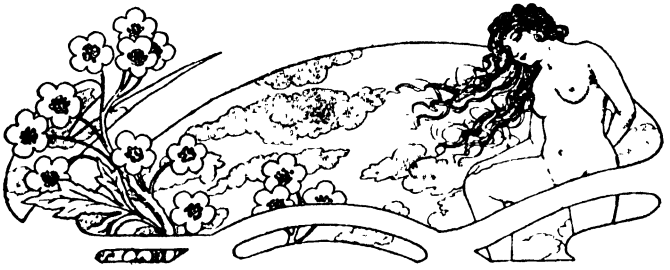
وما صدَّق راعول ان انقضى هذا المشهد حتى خرج من عند صديقه وهو يكاد يتعثر بأذياله . ولما خرج من الدار وقف قليلاً فتنفس الصعداء ثم سار في طريق منزله وقد سكن روعه قليلاً وثاب اليه رشده . ولكنه شعر ببرودة وكراهية شديدة وظلاته سحابة حزن وغم،وظهرت الحياة في عينيه بأشنع مظهر ، فأحس بثقل وطأتها وخساستها وقلة جدواها وكثرة اقذارها ، فاضمحلَّت آماله كما يضمحلُّ سحاب الصيف في افق السماء ، وأصبح كلٌّ من انيسة والملعب والقفازات والعشاء حقيراً سافلاً ، واخذت لذَّات الدنيا تلوح له بمظاهر كريهة ، فعاد لا يحفل بشيء منها لان نفسه حزينة حتى الموت ، وقد تقوَّضت صروح امانيّه ، وظهرت له تماثيل رجائه في أقبح صور اليأس والقنوط . .

ولقد نقم على نفسه لانها سقطت به الى اسفل دركات الذل والهوان . . نعم انه بما لديه من المال يمكنه ان يتمتع بالمشاهد البديعة وبأنيسة ، بيدَ انه قد حال الان دونها حائل حصره وضيق عليه . وهذا الحائل هو سفالة عمله وخيانته . . فقد سرق جنيهًا ، واطلع صديقهُ على دناءته وخستهِ ، والتقط الجنيه المسروق بنفسه ، وتظاهر بجهله هذه الخيانة . .

تصوَّر راعول كل ذلك فشعر بألم شديد في صدره وارتجاف في شفتيهِ وارتعاش في اعصابه وأحسَّ بكره لكل شيء . . ولما ضاقت عليه الحال وعاد لا يقوى على احتمالها ، اراد ان يسلي نفسه ليطرد عنها هذا التذكار . فطفق يعدُّ خطواته ويعدُّ المخازن التي يمرُّ بها . ولكن ذلك كله لم يجده نفعًا . لان امر خيانته لم يبرح من فكره ، فكان يزداد كراهية لنفسه عند كل خطوة يخطوها ، وتجسمت في مخيلتهِ الافكار والهواجس الى ان بلغت معظمها . وقد جفت حنجرته واحترقت الدموع في عينيه وكاد يسقط على الطريق متلاشيًا . .

ولكنه وهو في تلك الحالة رأى حانة فمال اليها وجلس الى مائدة هناك وطلب شرابًا .. ولم يمض الا القليل حتى كان محمولاً على اكتاف رجال الحانة الى منزله ، وهو لا يعي من شدة السكر . . .

هدية العيد



جلست حوّآء مسآءَ عيد الميلاد في منزلها وأخذت تعدُّ النقود التي معها ، فاذا هي ريالان فقط ، فألقتهما على مائدة صغيرة امامها واوغلت في تأملاتها

كان هذان الريالان كلَّ ما استطاعت حوّآء ان تقتصده من نفقات البيت في الاشهر الاخيرة ، فلم يتسنَّ لها ان توفر اكثر من ذلك : لان مرتَّب زوجها الشهري كان ثمانية جنيهات فقط ، وهي تكاد لا تكفي لسدّ نفقات المعيشة وقد ارتفعت الاسعار وأصبح كل شيء غاليًا

تنهَّدت حوّآء وألقت نظرة على ما حولها ، ثم عادت الى تأملاتها

كان المنزل الذي تسكنه هي وزوجها صغيراً ، وليس فيه من الاثاث الاَّ كل بسيط ، ولولا النظافة التي كانت تبدو في جميع جوانبه ، لكان في حالة حقيرة

غداً عيد الميلاد ، وليس مع حوّآء الاّ ريالان ، فماذا تستطيع ان تبتاع بهما من الهدايا التي اعتادت ان تهديها لزوجها كل سنة ؟

ثلاث سنوات مرّت على زواجها بجورج ، وقد انقضت هذه المدّة على احسن حال من الحب المتبادل والدعة والاقتناع بما قسمه الله . وكان الزوجان يتبادلان كل سنة الهدايا ، اقتداء بغيرهما من الازواج ، فهل في طاقة حوّآء ان تحجم هذه السنة عمّا ألفتهُ من هذه العادة ؟

تأمّلت حوّآء طويلاً في حالها . ثم أكبّت على المقعد الذي كانت جالسة عليه واستخرطت في البكاء ، لانها لم تجد عزاء لنفسها الاّ في البكاء

ولكنها لم تلبث ان وثبت على قدميها ، كمن أشرق عليه فكر جديد . فكفكفت عبراتها وتقدّمت الى مرآة كانت على احد جدران الغرفة ، فتفرّست في وجهها ، وكان شعرها الذهبي الجميل مسترسلاً على كتفيها ، وهو يكاد يصل الى قدميها ، فتنهدت واكتأبت

كان اعزّ الاشياء لحوّآء ولزوجها جورج — شعر حوّاء ، وساعة جورج

ان حوّآء كانت في غاية الرقّة والرونق والجمال ، غير ان

شعرها كان اجمل شيء فيها . ولو رأته ملكة سبا نفسها — وهي المشهورة بجمالها وغناها – لحسدتها عليه وتمنت ان يكون لها مثله ، ولو بفقدان عظمتها وغناها . . واما ساعة جورج فكانت من الذهب الخالص ، وقد ورثها عن ابيه ، وابوه عن جدّه ، وهذا عن ابيه . . ، حتى أصبحت في نظر جورج أثراً ثميناً لا يرضى بجميع كنوز سليمان الحكيم بدلاً منه

نظرت حوّآء الى شعرها ، ثم خرجت من المنزل مسرعة كأنها تريد ان تقضي امراً في نفسها وتخشى ان تغلبها عواطفها ، فتردّها عنه . وقد انحدرت من عينيها دمعتان محرقتان مسحتهما بمنديلها وواصلت سيرها ، حتى بلغت مخزناً لسيدة تتاجر بالشعر ، فدخلت وقد اسرع نبضان قلبها وصعد الدم الى رأسها وقالت لصاحبة المخزن –جئتُ أعرض عليكِ شعري ايتها السيدة ، فكم تدفعين ثمنه؟

فدنت صاحبة المخزن من حوّآء وأخذت تتفرّس في شعرها وتلمسه بيديها ثم قالت – ستة جنيهات لا غير

فاندفع من صدر حوّآء تنهد عميق وقالت – حسن . فقصيه واتقديني الثمن في الحال

وفي اقل من لمح البصر قصت التاجرة شعر حوّآء ودفعت اليها ثمنه ، وخرجت حوآء هائمة على وجهها ، حتى اذا بلغت سوق

الصاغة ابتاعت بكل ما لديها من المال سلسلة ذهبية ، ثم عادت الى منزلها وقد نسيت شعرها ، ولم تفكر الاَّ في الهدية التي ستطرف بها زوجها عندما يعود مساءً من عمله . ولكنها ما وقفت امام المرآة حتى هطلت دموعها وعظم عليها الأمر

شعرت حوّآء بأنها قد فقدت جمالَها الى الأبد ، وهي لا تزال في شرخ الشباب . . . انها ابتاعت لزوجها هديةً ، ولكنها دفعت ثمنها ما يفوق حياتها ثمنًا . . . فزفرت زفرةً محرقة ، وقامت الى منزلها تتشاغل بترتيبه ، الى أن آذنت الساعة السابعة مساءً ، فذُعرت ، لأن زوجها يعود عادةً في مثل هذا الوقت ، وقد خشيت أن يقابلها باللوم العنيف ، وتكون بعملها قد نغَّصت عيشَهُ الى الأبد

ثم نظرت الى السلسلة وكانت في علبة جميلة ، فحملتها بيدها ووقفت في أعلى درجة من درجات سُلَّم المنزل تنتظر زوجها

ولم يطل وقوفها حتى فُتح الباب ودخل جورج . وما كاد يصعد السلَّم ويرى زوجتَهُ حتى وقف مبهوتًا كأنّ غشاوة غطَّت عينيه

كان جورج يحب زوجتهُ الى درجة العبادة ، وقد وقف نفسه على خدمتها وتوفير أسباب راحتها ، وكانت هي في نظره أجمل نسآء العصر ، وكان اذا ذكر جمالها يذكر قبل كل شيء منه شعرها الذهبي

الجميل ، وها هو يراها الآن وقد فقدت تلك الحلية الباهرة . . . .

وقف جورج ، وقد فتح فاه ليتكلم . فلم يجد الى النطق سبيلاً

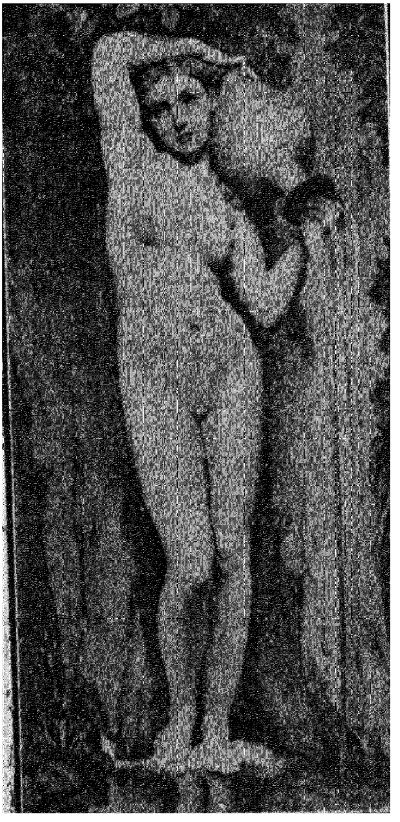
فتقدمت حوّآء وقالت بصوت يرتعش حزنًا — لا تنظر اليَّ يا جورج بهذا الذهول ! ولا يشقّ عليك ما فعلتُ ! فقد بعتُ شعري لأبتاع لك هدية العيد ، إذ لم أشأ ان أستقبل وإياك نهار الغد بلا هدية ، فلا تَلُمني أيها الحبيب ولا تغتظ ، فأنا أنا بشعري أو بدونه ، وعمَّا قليلٍ يطرُّ ويطول ، فأعود الى ما كنتُ عليه

وكأنَّ جورج قد عاد الى نفسه عندما سمع كلام زوجته ، فطوَّقها بذراعه وقبَّلها بلهفة ثم قال — انكِ لم تدركي ما اعتراني يا حوّآء ، فأنتِ في عينيَّ الحبيبة العزيزة الوحيدة في أيَّة صورة كنتِ ، ولكنكِ بعد ان تفتحي هذه العلبة تعلمين سبب ذهولي

ثم دفع اليها علبة من العاج كانت في يده . وما كادت حوّآء تطَّلع على ما فيها حتى وهنت قواها وكادت تقع مغشيًّا عليها

رأت حوّآء في العلبة ، وهي هدية زوجها لها ، خمسة أمشاط جميلة مرصعة بالحجارة الكريمة ، فتنهَّدَت من كبدٍ حرَّى وقالت وهي تضمُّ الأمشاط الى صدرها — ان شعري سينبت بعد مدة قصيرة ، فأزينهُ بهذه الحلية التي آثرتني بها الآن أيها الحبيب !

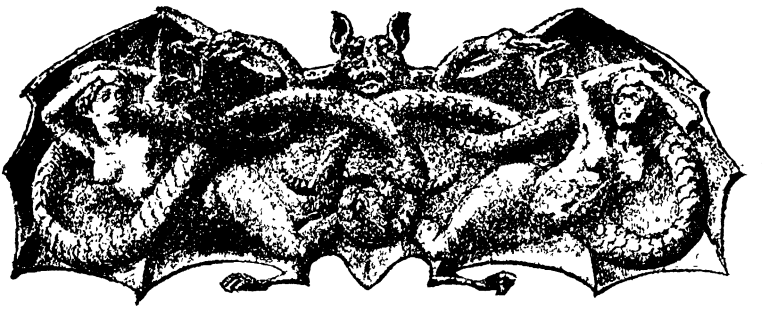
• وكأنها فطنت لهديتها فقدَّمتها الى زوجها وهي تقول — وهذه هي هديتي لك ! انهـا كهديتك جمالاً وحسنًا ، وقد طفتُ جميع مخازن الصاغة حتى انتقيتُ لك هذه السلسلة البديعة التي لا تليق الاَّ بساعتك !



فقهقه جورج ضاحكاً وقال ، وهو لا يملك عَبْرَته من الانهمال ، — لنخبىء هاتين الهديتين ياحوَّاء الى فرصـة أخرى ، فقـد بعتُ ساعتي ، كما بعتِ أنتِ شعركِ ، فتعالي أُقبلك وتقبليني أيتها المفدَّاة بالروح ، ولتكن هذه القبلات خير ما نستقبل به عيد هذا العام . . .

فأسندت حوَّاء رأسهـا الى صدر زوجها وقالت بصوت يأخذ بمجامع القلوب رقَّةً — ما أسعدني بك يا جورج ! . . .

جنون الحب [1]



كان النعمان سيّدًا رفيع القدر عظيم الشان ، من اكابر رجال الدولة العربية في الأندلس ومشاهير سراتهم . وكان له في مدينة قرطبة قصر شاهق البنيان متّسع الأركان ، تحيط به حديقة غنّاء ، فيها من كل فاكهة زوجان

وفي أحد الأيام جلس النعمان في حديقته ، في ظلّ دوحة غبيآء ، وأخذ يلهو بالتأمّل في أشجار الحديقة وأزهارها . وإنه لكذلك واذا بخادمٍ له يدعى مصطفى قد جآء فحيّاهُ ووقف متأدّبًا ينتظر أن يأذن لهُ سيده في الكلام

---

(١) بُنيت هذه الرواية على حادث حقيقي وقع في قرطبة عاصمة الدولة الاموية في الاندلس في أيام السلطان عبد الرحمن الثالث (الخليفة الناصر) الذي وَلِيَ المُلك سنة ٩١٢ م

فسألهُ النعمان — أين « زين الدين » ؟

فأجاب — أخبرني عمر، حاجب الخليفة، أنه رآه في سوق العبيد يحادث تاجراً من تجار المدينة، ثم ركب جواده وراح ينهب به الأرض إلى جهة باب جمجم

— وهل عرفتَ التاجر الذي كان يحادثه ؟

— نعم يا سيدي، فهو الشيخ أبو طاهر الذي باعك أمس « مو يانا » الحسناء

— وهل كلَّمْتهُ ؟

— كلاَّ، لأنه ذهب في الحال الى قصر الخليفة

فأطرَق النعمان قليلاً ثم قال — عسى أن لا يكون قد حدث له ما غمّهُ واضطرّهُ إلى هذا الرحيل الفجائي

فقال مصطفى — يُخَيَّل إليّ أن زين الدين قد توجه الى معسكر الوزير

— وهذا عجيب أيضًا، إذ كيف ينطلق إلى ميادين الوغى قبل أن يأتي لوداعي ؟

— لا بدَّ لسفره على هذه الصورة من أمرٍ نجهله، فهل تريد أن أذهب ثانية إلى أبي طاهر لأسأله عن ذلك ؟

— ستذهب بعد قليل . أما الآن فأخبرني هل قدَّمتَ الهدايا التي أمرتُكَ بتقديمها إلى مو يانا ؟

فبرقت أسرَّة مصطفى سروراً وقال — نعم ، وقد حظيتُ برؤيتها وعليها بعض تلك الأثواب الجميلة الجديدة التي نفحتَها بها ، وإني أُقسم بالله أني لم أرَ في حياتي جمالاً باهراً كجمالها . . إنك يا سيدي قد دفعت ثمنها أمس عشرة آلاف دينار ، فلو أردتَ أن تبيعها اليوم لوجدتَ من يشتريها بعشرين ألفاً

— صدقتَ . . ولكنني لن أبيعها بجميع كنوز العالَم . حتى ان الخليفة نفسه لو طلبها مني لأبيتُ عليه ذلك ، وآثرتُ الفرار بها الى عشيرة زين الدين ، لِأعيش وهذه الحبيبة بالرغد والصفاء . فقد رأيتُ فيها من بديع التكوين وجمال الطلعة وبهائها ما سلب رشدي وخلب فؤادي . . فقل لي ، هل هي راضية بالهدايا التي أطرفتُها بها ؟

— كلَّ الرضى . وقد قالت لي انها وان تزيَّنت بكل جميل ، فانها لا تفعل ذلك إلاَّ لتنال الحظوة في عينيك

فتنهَّدَ النعمان وقال — إن مو يانا فتَّانة ببهائها لا بردائها ، وأنا سعيد بها ولا أبغي سواها من جميع بنات حوَّاء

قال مصطفى — وما أعظم الفرق يا سيدي بين نسآئنا ونسآء

النصارى . فالمرأة عندنا تنقاد للرجل انقياداً أعمى ، واثنان من الخصيان كافيان لسياسة عشرين امرأة من نسآئنا ، بينما المرأة الواحدة من حسان النصرانيات تلعب كما تشآء بعشرين رجلاً

فابتسم النعمان وقال — أصبت . فاذهب الآن وهيّئ مائدة الشراب والفاكهة ، ثم ادعُ لي مويانا لأقضي واياها بعض الوقت في ظل هذه الشجرة

فانصرف مصطفى . ولكنه لم يبطىء ان عاد وعلى وجهه علائم الدهشة وقال — ان زين الدين يا سيدي قد عاد الآن راكبًا جواده الأبجر ، ولكن ليس عليه سرجهُ الثمين

وما كاد يفرغ من كلامه حتى أقبل زين الدين وعلى وجهه أمائر القلق والارتباك . فرحّب به النعمان قائلاً — أهلاً بالصديق العزيز ! أهلاً بزين الدين بن حميد !

فقال زين الدين بعد ما سلَّم — جئتك في طلب حاجة ، ولا أظنك تردُّني خائبًا

قال — كل حاجة لك عندي تُقضى في الحال ، فسلني ما أردتَ

قال — أعطني خمسة آلاف دينار ، لاني في أمسّ حاجة اليها الآن

قال — حباً وكرامةً يا ابن الأكارم !

وأخرج من جيبه مفتاحًا ناوله لمصطفى وقال ، جَهِّزْ ما طلب

ثم عاد فقال لصديقه — وهل كنت في معسكر الوزير ؟ الظاهر انك مللتَ الاقامة في قرطبة

قال — ذهبتُ الى المعسكر لقضآء أمرٍ معجَّل

قال — وما هو هذا الأمر ؟ إنك لم تعتَدْ أن تُخفي شيئًا عن صديقك النعمان

قال — ولا أُريد أن أُخفي شيئًا . . فقد ذهبتُ لأبيع جيادي وما تملكهُ يداي ، إلاّ الابجر

قال — وهل بعتَ سرج الأبجر أيضًا ؟

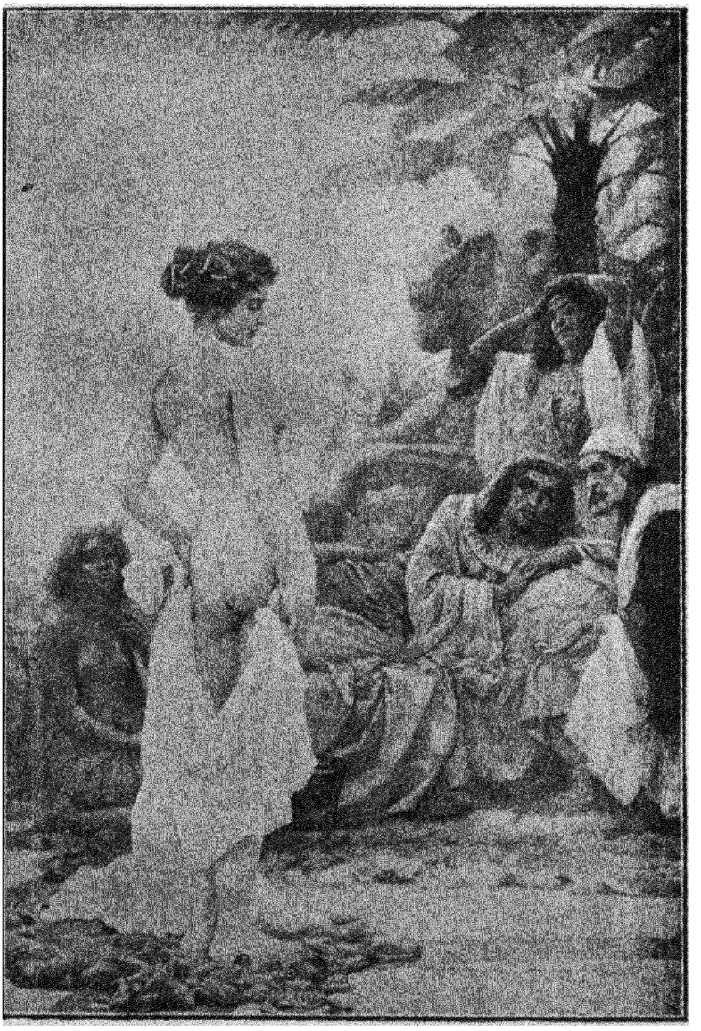
قال — نعم . فقد بعتُ كل شيء حتى حلية سيفي الذي حباني به الخليفة

قال — وبكم بعتَ الحلية ؟

قال — بألف وخمسمئة دينار

فذُعر النعمان وقال — وماذا دَهاك حتى بعتَ الحلية بهذا الثمن ، وهي تساوي عشرة آلاف دينار ؟

فقدحت عينا زين الدين شرار الغضب وقال — قد خدعني اليهودي ! اني والله لَأنتقمنَّ منه ومن جميع أبناء عشيرته شرَّ



(في سوق العبيد)

انتقام ، ولَأسحقنَّ خمسين جمجمة من جماجمهم شفآءً لغليلي

— ولـكن ما الذي ألجأك الى بيع الحلية ، وهي هدية لك من الخليفة ، نفحك بها دليلاً على ارتياحه اليك ، و إعجابه بشجاعتك

فتنهَّد زين الدين وقال — كنتُ بالأمس في سوق العبيد ، فرأيتُ أمَةً ليس في طاقتي أن أصف لك جمالها ، وقد كنت قبل ذلك أُحَمِّقُ كل مَن يشتري امرأةً بما يفوق الفرس ثمنًا . ولـكني ماوقع بصري على هذه الجارية حتى سُحرتُ بجمالها وهمتُ بحبها ، وقد نفد صبري ولم يبق فيَّ تحمُّل ، وشعرتُ بملء الارتياح الى استبدالها بالأبجر ، فهي حوريَّة من حور الجنَّة . وقد هبطت إلى الأرض لتفتن العالمين . وفي الحال سألتُ أبا طاهر الخبيث عن ثمنها فطلب تسعة آلاف دينار . فأسرعتُ الى المعسكر العام و بعتُ كل ما لديَّ ، إلاّ سلاحي والابجر ، بأربعة آلاف دينار ، وجئتُ الآن أستمنحك الباقي

فضحك النعمان وقال — لقد درستُ أخلاقك يا ابن البادية منذ زمان طويل ، فأنت تعمل أولاً ثم تفكّر . . تريد أن تشـتري هذه الجارية بكل ما في يدك من المال ، ثم تبقى صفر اليدين ، لا مال عندك لتنفق منه عليها وعلى نفسك

قال — أصبتَ ، فاني لم أُفَكّر في شيء من هذا . . وأنَّى لي ذلك ، وقد فتنت هذه الغانية عقلي وسلبت قلبي

— إذاً فأنت في حاجة الآن الى عشرة آلاف دينار ، لا الى خمسة

— أشكرك يا أخي ، لأنك لا تنفكُّ تَصِلُني بجميلك الذي لن أنساه

— ولكني مهما أفعل يا زين الدين ، ومهما أَبذل فاني لن أُوفي جزءًا مما لك عليَّ من الدَّين العظيم . . فهل نسيتَ ما خدمتني به يوم تعارفنا في البادية ونحن في طريق الحج ، وكنتُ قد أشرفتُ على الهلاك ظمأً ، فسقيتني ما كان لديك من الماء ، لم تُبقِ منه قطرةً لنفسك ؟

قال — ذلك لأننا نحن أبناء البادية أقدرُ على احتمال الظمإ والتعب من غيرنا . فقد رأيتُك مطروحًا على الرمال المحرقة وليس مَن يعتني بك ، فسقيتُك ما كان معي من الماء ، لأني لم اكن في حاجة اليه ، ولا فضل لي فيه . . وأيُّ مسلم لا يفعل ما فعلتهُ إذا رأى أخاه كما رأيتك أنا ؟

وما كاد يُتِمُّ كلامه حتى جاء مصطفى وقال — ان الخمسةَ آلاف دينارٍ قد جهزت في الأكياس

فقال النعمان لزين الدين — خذ هذه الآن ، وستأخذ خمسة الآلاف الأخرى بعد عودتك إليَّ

فنهض زين الدين شاكراً وودَّع صديقه ، ثم حمل المال على دابة من دوابّ النعمان ،وأخذ معه عبداً من عبيده وانصرف لشأنه. فقال النعمان في نفسه : لله مايفعله الحبُّ من العجائب ! إنَّ هذا البدوي قد جُنَّ في حبّه حتى أظلم عقلهُ وغُشّيَ على بصره

وانه لكذلك اذا بمصطفى قد أقبل وموبانا في أثره . فخفق قلب النعمان وطفح السرور على وجهه وقال للفتاة — أُدني مني يا ملكة الجمال ، وارفعي هذا النقاب عن وجهكِ ولاتخشي أن يراكِ أحدٌ غيري

فأماطت موبانا النقاب عن وجهٍ لم تقع العين على أبدع منه تكويناً ولا أتمّ جمالاً وقالت — هاءنذا بين يديك يا سيدي ، ولا سرور لي إلاّ بقربك

قال — لقد وقعتِ يا موبانا من قلبي موقعًا جليلاً . فتعالي اجلسي بجانبي أيتها الحسناء وأفضي إليّ بما في نفسكِ . فهل أنتِ مسرورة بالحلى والحلل التي أرسلتُ بها اليكِ ؟

قالت — قد جدتَ عليَّ يا سيدي بما لاتطمع فيه نفسي،لأني سعيدةٌ بحُبّكَ وعطفك ، وهذا حسبي

قال — اعلمي يا مو يانا اني غنيٌّ وثروتي لا تحصى . واني أضع كل ما تملكه يداي تحت قدميكِ ، فلا تبخلي على نفسكِ بشيء مما تتوقين اليه أو يخطر لكِ ببال

فنظرت مو يانا اليه بإدلال وقالت — لا يمكن ان أكون في حاجة إلى شيء بعد الذي ظهر من كرمك وفضلك . . غير اني أريد أن أسألك شيئًا لغيري ممَّن له علاقة بي . فهل تنيلني بغيتي ؟

قال — لا أشهى إليَّ من قضآء حوائجك ، فاذكري ما تبغين

قالت — إعلم يا سيدي اني وُلدتُ في إحدى مدن اسبانيه الشمالية ، من أبوين فاضلين غنيّين ، وكان لي أخ وثلاث أخوات وقد خسر والدي ثروته كلها في إحدى السنين ، وتوفيت والدتي من شدّة حزنها ، وقُتل أخي في بعض سفراته ، فاضطُرَّ والدي الى بيع ليعول بثمني نفسه وأخواتي الثلاث . فهل تسمح يا سيدي الكريم بقليل من النفقة أُرسل بهِ إلى والدي تخفيفًا لبلواه ؟

قال — لله درُّكِ ما أطيب قلبكِ واكثر قناعتكِ ! أنت تطلبين أن أبعث بشيء من النفقة إلى والدكِ وأخواتكِ ، وأما فسأستقدمهم إلى هنا ليعيشوا عندي في هذا القصر على أحسن ما ترومين

فشكرته مو يانا وطابت نفسها . وأخذا كلاهما بعد ذلك يتطارحان أحاديث الغرام ، والنعمان شاخص إلى محبوبته يشرب كلماتها شرباً

وانهما لفي ذلك واذا بزين الدين مقبل ، وفي يده خنجر وعلى وجهه أمائرُ الغيظ الشديد

فذُعرت مو يانا وسدلت النقاب على وجهها . وأجفل النعمان وقال بحدَّة — ماذا جرى يا زين الدين ؟ وكيف تدخل عليَّ بمثل هذه الصورة ، وأنا جالس إلى أمَتي في خلوة ؟

فصاح زين الدين وعيناه تتقدان بنار الانتقام — جئتُ أنتقم ممَّن أهانني

فذهل النعمان وقال–ويحك ! فما هذا الكلام ؟ وماذا اعتراك ؟

قال — أجل . إنك أهنتني وسخرتَ بي ، فاعطيتني مالك ، ولكنك سلبتني ما هو في نظري أعزُّ من المال والحياة . انك قد أخذتَ الأمة التي هو يتُها أنا ، وأخفيتَ ذلك عني متستراً بالصداقة والإخاء !

— ماذا تقول ؟

— أقول ان الأمَةَ التي ابتعتها أنت من أبي طاهر ، هي هي

الأمةُ التي راقت في عينيَّ ، والتي بذلتُ كل ماتملكه يداي ،وربما بذلتُ الأبجر ونفسي أيضًا ، في سبيلها

— لقد فقدتَ عقلك يا زين الدين ، وعدتَ لا تعي ما تقول ! اني اشتريتُ هذه الأمة ، وأنا لا أدري أنها مطمح أبصارك

— والآن ، وقد عرفتَ ذلك ، فهل تسمح لي بها ؟.. أتذكر يمينك التي أقسمتها لي يومَ أنقذتُ حياتك من الموت في بادية العرب ، أنك لا تردُّ لي طلبًا أيًّا كان ؟

— أذكر ذلك

— إذاً أعطني هذه المرأة !

— ولكن العواطف الشديدة التي تحملك على طلبها ، هي نفسها تحملني على الاحتفاظ بها ، لأني أحبُّها حبًّا يفوق كل وصف

— وأقسامك ؟ أفتحنث بها ؟

— خذ يا زين الدين بدلاً منها ما شئتَ من الجواري والجياد والمال . خذ كل ثروتي وأملاكي ، وتنازل لي عن هذه الحبيبة !

— أتعرض مثل ذلك عليَّ ، وأنا لا يستهويني شيء مما تقول؟ إني قد اشتريتُ الأبجر بجميع الأسلاب التي غنمتُها من قبيلة

الزينبيين ، فخذه مني ، وخذ خنجر عمرو سيد ابطال عشيرتنا ، وأعطني هذه المرأة !

— ارفق بعواطفي يا زين الدين ، وعدِّ عن هذا الطلب !

— ألم تُقسم لي بالكعبة ، و بمدافن الانبيآء ، و بسيفك ، أنك تقضي لي كل طلب ؟

— لو كنت يا زين الدين في مكاني ، فماذا كنتَ تفعل ؟

— أمتشق في الحال حسامي وأطيح رأس مزاحمي في محبو بتي عن بدنه

— ولكني لا أجترىء على قتل صديقي

— أما أنا فأجترىء .. خذ حسامك وهيَّا بنا للبراز ، إذ لا يغسل هذه الاهانة إلاّ الدم ، ولا يحلُّك من أقسامك إلا الدم !

— مهلاً يا زين الدين ! فقد وجدتُ وسيلةً تقضي بيننا ، وهي أن نجعل هذا الأمر في يد هذه الحسنآء ، فلها أن تصطفي منا أيًّا شاءت

فصَرَّ زين الدين بأسنانه وقال — تبًّا لهذا الرأي ما أسخفه ! وهل تظن أن مثلي يؤخذ بهذه الحيلة ويُحِلُّك من أقسامك ؟

فلم يلتفت النعمان اليه وقال لمو يانا — اختاري أنتِ واحداً منا سيّدًا لك !

فقالت — وهل لي أن أتردَّد في الاختيار بين سيدي الحبيب وهذا البدوي الشرس ؟

فالتفت النعمان الى زين الدين وقال — هل سمعتَ مقالها ؟ فبأي حقّ تريد أن تحرزها لنفسك ، وهي لا تحبك ؟

قال — إني سيء البخت من يوم مولدي . فقد قتلتُ والدتي وأنا في سن العاشرة . وفي سن الثانية عشرة قتلتُ أخي . والآن أردتُ أن أقتل صديقي والمحسن إليّ . . فالوداع أيها الصديق ! إني مسافر من هذه الساعة الى بلادي وقومي ، إذ لم يبقَ لي ما تطيب به نفسي عندكم ، واخشى في ساعة غيظي أن أنتقم منك ، لأني لا أقوى على كبح جماح عواطفي

قال — بل ابقَ عندي يا زين الدين ، فأزوجك أختي ونعيش معًا بالدعة والهناء

قال — لا قِبَلَ لي بذلك ، لأني لا أريد خيانتك . . بيدَ اني أسألك أن تسمح لأمَتِكَ باماطة نقابها عن وجهها ، لأتزوَّد منها النظرة الأخيرة وأخرج لشأني

فأشار النعمان إلى مويانا ، فكشفت عن وجهها ، ورأى زين الدين جمالها البارع ، فازداد افتتانًا بها ، وعادت علائم الغيظ الشديد فارتسمت على وجهه ، ولمع شررُ الانتقام في عينيه ، وقال بصوت أجشّ — وهل من العدل أن تبقى هذه الحورية في حوزتك ، وأنا اكاد أجنُّ في هواها ؟ . . خسئتَ يا هذا ! فلستُ بعائد من هنا بالفشل والخيبة !

فقال النعمان وقد علاه الكمد — أراك قد عدتَ إلى شراستك وجنونك !

ثم التفت الى مويانا وقال — انصرفي أنتِ إلى خدرك ودعينا وحدنا

فنهضت تريد الذهاب ، فاعترض زين الدين في سبيلها وقال ، وهو يزداد هياجًا واضطرابًا — إنكِ لا تنصرفين من هنا قبل أن تعلمي مَن هو سيّدُكِ . . . فهو صِلٌّ خائن غادر ، قد حنث بيمينه ، وأصبح عنوان العار ومثال الغدر

فقال النعمان وقد خنقه الغيظ — لم يبق لديّ شك في أنك تهذي يا زين الدين ، وقد فقدتَ عقلك

قال — قل ما تشاء . . ولكن هذه المرأة لي ، وسيأتي عندي

أحَبَّتْني أو أبغضَتْني ، لأن من يذلّل أشرس الخيول ، لا يصعب عليه أن يروّض مثل هذه العجلة الصغيرة

ثم التفت إلى مو يانا وقال — إتبعيني يا هذه ، و إلاَّ أغمدتُ هذا الخنجر في صدركِ !

فتراجعت مو يانا وقد ظهرت على وجهها علامات الرعب الشديد وكادت تسقط على الأرض مغشيًّا عليها

وكان النعمان قد هاج الدم في رأسه لدى سماعه هذا الكلام ، فقال — حسبك هـذيانًا يا زين الدين ، فقد أطلتَ جدالك على غير جدوى ، ولم يبقَ لي صبر على تحمُّل فظاظتك

ولكنه قبل أن يُتِمَّ كلامه هجم عليه زين الدين ، والزَبَد في شدقيه ، والخنجر في يده ، وقد همَّ بإغماده في صدره . . ورأى النعمان أنه مائت لا محالة إذا تهاون في الأمر ، فكاد يفقد رشده . ولم يبطىء ان استلَّ خنجراً كان في منطقته ، ووثب الى خصمه كالنمر الضاري ، وأخذ الاثنان في عراك شديد ، وقد طعنَ زين الدين خصمَهُ في ذراعه طعنات متوالية أسالت دمَهُ ، واذ ذاك طعنه النعمان في صدره طعنة ألقته صريعًا والدم يتدفق منه . . وفي الحال عاد النعمان إلى رشده ووقف مبهوتًا

وكان زين الدين لا تزال فيه بقيةٌ من الحياة ، فنظر إلى النعمان وقال بكلمات متقطعة تعترضها حشرجة الروح في تراقيه — لقد قتلتني . . . نعم قتلتَ بطل اليمن . . فاذهب واغتبط بهذه الجارية ، إذ لم يبقَ من يزاحمك فيها . . .

ثم فاضت روحه

فصاح النعمان من قلب جريح ، وقد عظم عليه الخطب و بلغ منه الحزن واليأس كل مبلغ ، فأكبَّ على زين الدين يقبله و يقول — الويل لي ، فقد قتلتُ صديقي . . نعم قتلتُ مَن أنقذني من الموت ، وكافأتهُ على الخير شرًّا . . .

وحانت منه التفاتة الى مو يانا ، وهي واقفة ترتعد ، فقال لها بصوت يتهدَّج من شدَّة الغضب — انظري أيتها الشقية ماذا فعلتُ ! فقد قتلتُ صديقي بسببكِ يا ابنة الأبالسة ! . .

ثم هجم عليها وكان الخنجر لا يزال في يده يقطر دمًا ، وطعنها في صدرها ، فسقطت الى جانب زين الدين تختبط بدمها . .

* * *

وقضى النعمان بعد ذلك غابر حياته حزين النفس ، كارهًا لجنس النساء أشد الكراهة . وكان كلما تذكر حادثة زين الدين ترتعد فرائصهُ من مجرَّد ذكر الحبّ

خصام الزوجين

كان فى إحدى المدن الكبيرة رجل من الموسرين يدعى ابراهيم . وكان قد تزوَّج في صباه فتاةً من بنات الأُسَر الشريفة تُسمى فدوى ، ورُزق منها ابنتين جادت عليهما الطبيعة بشيءٍ كثير من الجمال واللطف . وكان اسم الكبرى منهما (هند) والصغرى (دعد) ، وقد بلغت الأولى السنة التاسعةَ من العمر ، والثانيةُ السابعةَ

وجلست الأختان ذات يوم في غرفتهما الخاصة . وكان أمامهما على مائدة في تلك الغرفة بعض الكتب والأوراق وأدوات التصوير . وكانت والدتهما قد فرضت عليهما منذ الصباح أن تتشاغلا بالتصوير ، غير أنهما لم تشعرا بشيء من الميل إلى ذلك . فكانت دعد تأخذ القلم وتشخص ببصرها طويلاً ، ثم تطرحه جانبًا ، وتنهض فتتقدَّم نحو الباب فتفتحه قليلاً ثم تعود الى كرسيها ، وهي تحاذر أن تشعر والدتها بما

وأما هند فبعد أن جهدت نفسها صوَّرت

أخيراً جسم حيوان ، ولـكنها لم تعرف من أي نوع كان هـذا الحيوان ، وقد غلب على ظنهـا أنه قد يكون من حيوانات ما قبل الطوفان . . . ولذلك فبعد ان رسمته أخذت تفرك جبينها وعينيها ، لأنها لم تدرِ أين يجب أن ترسم ذنب هذا الحيوان . . وأين ترسم قرنيه . . .

وكان ذلك اليوم في نظر هاتين الطفلتـين غريبًا كله . فقـد جآء صباحًا رجل لم تعرفاه واجتمع بوالدتهما طويلاً . وكانت دعد قد أضجرها طولُ احتجاب والدتها عنها ، فدخلت الى غرفة الجلوس حيث كانت والدتها تحدث الرجل الغريب باهتمام ، ولـكنها لم تلبث ان خرجت باكية ، لأن والدتها صاحت بها ووبختها

ولما كانت الأختان جالستين الى مائدة الطعام صباحًا لاحظت هند أن والدتها في غير حالتهـا الطبيعية ، فقد رأت عينيها محمرَّتين ووجهها مضطربًا ، وانها لم تذق شيئًا من الطعام . وكانت اذا سألتها هنـد أو دعد شيئًا لا تجيبهما بكلمة ، وان أجابت فلا يكون كلامها الجواب المطلوب

ولما فرغ الجميع من الطعام قالت الام للمربّيَة — أُريد أن تبقى هند ودعد اليوم في المنزل ، فلا تخرجي بهما إلى النزهة

وكأنَّ ذلك لم يَرُقْ صغرى الأختين فقالت — ان الهواء جميل جدًّا اليوم يا أماه ! فلماذا لا تريدين أن نخرج ؟

فقطبت الوالدة جبينها وقالت — أسكتي ولا تعترضي

فسكتت دعد ولكنها همست في أذن أختها قائلة — إن أمنا اليوم غاضبةٌ ! . . فما عسى أن يكون سبب غضبها ؟

ثم أمسكت بيد أختهـا واستأنفت قائلة — انظري ما أجمل هذه الشمس ، وما ألطف هذا الهواء ! فلماذا لا تأذن لنا والدتنا في الخروج ؟

وكانت هند ترى رأي أختها ، ولـكنها أخلدت الى السكون ، وقد ملأت الافكارُ المضطربة رأسهـا الصغير ، وضغطت قلبها . فشعرت بأنها مريضة . وكانت وهي جالسة مع أختها في الغرفة تتوقَّع أن تسمعَ من وقتٍ الى آخر جرس المنزل . وكأنهـا عرفت مَن سيكون القادم ، فارتعشت وارتسم الخوف على وجهها . . . لم يقلْ لها أحدٌ شيئًا ولـكنها شعرت بأن أباها سيأتي اليومَ وتراه . .

قالوا لها قبلاً ان أباها سافر منـذ زمان الى بلاد بعيدة ، فلم تصدّقْ ، لأن قلبها كان يناجيها بأن أباها لم يبرح المدينة ، وأنها لا تلبث أن تراه

وعادت بمخيلتها الى حوادث اليوم الأخير من وجود أبيها في المنزل ، وقد هاج هائجـهُ وأخذ يدخل غرفة ويخرج من أخرى ويطلُّ من النوافذ على الشارع ، على أمل أن يرى والدتها قادمة . . وكان يحتدم ويفور غضبه فيخرج من المنزل فيغيب قليلاً ، ثم

لا يلبث أن يعود فيسأل الخدم عن سيدتهم و يعود الى الاضطراب والهياج . . وكأنه شعر بوجود هند وأختها دعد في المنزل ، وكانتا قد وقفتا في غرفتهما خائفتين مذعورتين . فدخل اليهما وأخذ يضمهما الى صدره و يقبلهما و يبكي . وكانت البنتان تبكيان أيضاً . ثم تركهما وخرج ، ولم يعد في ذلك المساء ولا في تلك الليلة

وعلمت هند في اليوم التالي أن والدتها أخذت من والدها رسالةً برقيةً ، وأنها ما كادت تطّلع عليها حتى صاحت صياحاً شديداً اهتزَّ له المنزل بأسره وأُغمي عليها . . . وفهمت هند من حديث الخدم أن أباها قد بارز رجلاً من خصومه وجُرح جُرحاً بالغاً كاد يقضي على حياته . . . وقد رأت والدتها بعد ان عادت الى رشدها أنها نهضت في الحال ، فارتدت ثيابها وخرجت مسرعة، فلم تشك في أنها ذهبت بهذه السرعة الى حيث كان والدها ، فباتت تنتظر عودتهما معاً . ولكن لم يعد في تلك الليلة إلاَّ الوالدة . وقد رأتها هند في صباح اليوم التالي مضطربة البال كثيرة البلبال ، فلم تجسر أن تسألها عن أبيها . ولما سألتها دعد قالت لها : « ان أباكِ سافر » ولم تزد

وقد صدَّقت دعد هذا الخبر في بدء الأمر ، ولكنَّ هند لم تصدّقهُ . وقد عرفت ان أباها مريضٌ وطريحُ الفراش من الجراح

التي أصابته ، فكانت تغتنم كل فرصة تخلو فيها بنفسها ، فتجثو على الأرض وتبتهل الى الله بحرارة ان يشفيه ، وكثيراً ما كانت دعد ترى شقيقتها جاثيةً تصلي وتبكي ، فتجثو هي أيضًا بازائها وتصليان كلتاهما معًا وتبكيان

ثم علمت هند ودعد أن أباهما قد شفي ولكنه لم يعد الى المنزل ، فذهلتا . وقد رأتاه مرة وهما تتنزهان مع مربيتهما ، فركضت دعد اليه وتعلقت به ، ومكثت هند مكانها وقد خنقتها العبرات ، وتقدَّم هو اليهما وقد بشَّ لهما ، ولكنه لم يأخذهما بين ذراعيه كما كانت عادته عند اللقاء ، وذلك لأنه كان لا يزال مريضًا ولا يستطيع تحريك احدى يديه بسبب الجراح التي أصابته فيها ، ولكنه قبلهما وتنهد وهزَّ رأسَه وقال – ألا تزالان تذكران أباكما ؟ – قال هذا ثم سار في طريقه ، وسارت هند ودعد والمربية في طريقهنَّ

وصارت هند من ذلك الحين تؤثر الانفراد والعزلة ، وقد قلَّ كلامها وضحكها وكثر تأمُّلها وتنهدها وبكاؤها . ولم تكن تذكر أباها في حديثها مع والدتها ، لأنها شعرت أن ذلك يؤلمها . ولما شرعت دعد تقصُّ على والدتها خبر مقابلتهما لوالدهما ، احتدمت هند وأخذت تقاطعها لتمنعها من تتمة الكلام

وفيما كانت الشقيقتان جالستين في غرفتهما وقد شُغلتا بالتصوير

شعرت هند باضطراب والدتها وقلقها وجزعها ، وشعرت في الوقت نفسه بأن أباها سيجيء الى المنزل ويقابل والدتها ، فكانت تتوقع قرب هبوب العاصفة ، ولا تعلم ما سيكون وراءها

* * *

لم تسمع هند جرس المنزل . ولكنها فوجئت بفتح باب الغرفة بعنف . واذا بوالدتها قد دخلت الغرفة وهي ترتعش وترتجف وقالت لها ولشقيقتها ـ لقد جآء أبوكما ، . . فاذهبا إلى غرفة الجلوس لمقابلته

وما سمعت الطفلتان هذا الكلام حتى ذعرتا . ونظرت دعد الى شقيقتها بوجل . وطرحت هند القلم من يدها ووقفت كالمأخوذة . . ثم جاءت المربية فأخذت البنتين بأيديهما وسارت بهما الى غرفة الجلوس

وكان ابراهيم واقفًا في وسط تلك الغرفة ، وهو أشبه بالضيف منه بصاحب المنزل . فلما سمع وطء أقدام ابنتيه تقدّم فاستقبلهما ببشاشة وقبلهما وهو ينظر الى دعد ويحاذر أن يلتقي نظره ونظر هند . ثم قال لهما — اني مسافر وقد جئتُ الآن لأراكما وأودعكما قبل سفري

فقالت دعد — وكيف تسافر ؟ والى أين ؟

قال — بهذا قضت الأحوال . . . وسأسافر الى بلاد بعيدة جدًّا

ولم تبالِ هند بما سمعت ، لأنها لم تصدق شيئًا ، ولكنها حنت رأسها وسكتت

وكانت فدوى بعد أن أعلنت لابنتيها وجوب ذهابهما لمقابلة الوالد ، قد لعبت بها الهواجس ، وتقسَّمتها الأفكار والمخاوف . . .

ان فدوى قد قطعت كل علاقة لها بابراهيم . وطلبت الطلاق منه رسميًّا ، وعهدت الى أحد المحامين أن يقوم عنها بذلك لدى المحاكم

وقد جآء هذا المحامي اليوم صباحًا وسأل فدوى وألحَّ عليها ، أن تأذن لابراهيم في مقابلة ابنتيه لتوديعهما . ورضيت هي بذلك على شرط أن لا تطول مدة هذه المقابلة ، وأن لا يحاول مقابلتها هي لأنها تأبى عليه ذلك

وذكرتْ فدوى يوم قابلت زوجها آخر مرَّة ، وكان قد سقط جريحًا على أثر المبارزة التي جرت بينه وبين خصمه ، ولم تكن هي تعرف السبب الباعث على هذه المبارزة الاَّ بعد أن هرعت الى المستشفى لترى زوجها وتعنى به ، فعرفت هناك مالم تكن تعرف ، ومالم تكن تتوقع

عرفت ان السبب هو فتاة من الممثلات المتهتكات ، كان ابراهيم قد ولع بها كما ولع بها غيرُهُ ، ووقعت المنافسة بين المحبَّين ، وخُتمت بهذه المبارزة التي كادت تكون القاضية على حياته

عرفت فدوى ذلك ، ولكنها لم تترك زوجها في المستشفى إلا بعد أن تحقَّقت زوال الخطر عن حياته ، فغادرته وعادت الى منزلها ، وهي لا ترى إلا أن تنفصل عنه انفصالاً تامًّا ، وقد خابت آمالها وتولاها اليأس الشديد

وقد تذكرت الآن كل حوادث حياتهما الزوجية منذ عشر سنوات . وعادت بأفكارها الى حياتها قبل أن اقترنت بابراهيم ، يوم كانت لا تزال في بيت ابويها وقد انصرفت إلى الدرس والمطالعة ، ومالت كلَّ الميل الى العلم والادب والفلسفة ، لايستهويها حبٌّ ولا غرام . وقد لبثت كذلك حتى السنة الرابعة والعشرين من حياتها . ثم تعرَّفت بابراهيم ، وهو أصغر منها بسنتين ، وكان من شبان العصر ، يحب التبذير والاسراف ، وقد بدَّد نصفَ ثروةِ والده في ذلك . فرأته فدوى في بعض المجتمعات فأعجبها بجماله وآدابهِ وصفاته ، ورضيت الاقتران به ، وهي انما فعلت ذلك إشفاقًا عليه ورغبةً في انقاذه مما كان فيه من الورطات والمآزق . . ولم يوافق والداها على هذا الزواج ، غير أن فدوى قاومتهما لأنها

كانت تجد لذةً في المقاومة ، وتغلَّبت عليهما أخيراً واقترنت بابراهيم كما أرادت . وقد أحبَّها ابراهيم بكل ما فيه من قوة ، وكانت هي أحنَّ عليه من ضلوعه ، فكانت له زوجةً أمينةً ومرشدةً مخلصة في وقت واحد ، كما كانت لاولادها امًّا مهذّبةً رؤوفة ، ولمنزلها مدبرةً حكيمةً مقتصدةً

الى أن جرى الحادث الاخير وهدم ابراهيم بيده ما بناه هو وزوجته في السنوات العشر ، وأساءَ الى نفسه كما أساءَ إلى زوجته وابنتيه اساءةً لا تُغتَفَر

وقد بكت فدوى كثيراً من جرّاءِ هذا الحادث . بكت نفسها ، لأنها أُهينت أعظم اهانة من زوجها وكوفئت منه شرَّ المكافأة . وبكت زوجَها لأنها خسرته الى الأبد . وبكت ابنتيها لِما سيكون لهذه الحادثة من الوقع السيّىء في نفسيهما وقلبيهما مدى الحياة

غير أن فدوى قد عُنيت بابراهيم يومَ كان فاقدَ الشعور على أثر المبارزة ، ولم يكن همُّها الاَّ أن يُشفى . ولما أخذ يتماثل الى الصحة هجرته ، وفي نفسها انها هجرته الى الابد . وقد حاول أن يقابلها بعد ذلك ، وكتب اليها رسائل كثيرة يستعطفها ويستغفرها ، ولكن بلا جدوى ، لأنها لم تجبْه بكلمة ، ولم تطلب الاَّ الطلاق ، الى أن رضي هو أخيراً بطلبها العادل ، كما رضي أن يهجر المدينة

التي تكون فيها فدوى وابنتاها الى الابد . ولم يبقَ لانفاذ هذه الشروط الا تسجيلها في المحكمة على يد وكيلي الزوجين

* * *

و بينما كانت فدوى غائصة في لجة الافكار ، وقد تجلّت في مخيّلتها الحوادث المارّ ذكرُها ، اذا بدعد الصغيرة قد دخلت عليها فجأةً و بيدها بطاقة . فلم تشك في أن ابراهيم يدعوها الى مقابلته ، فابتسمت بازدراء وهمّت أن تأخذ البطاقة من دعد وتمزّقها ، ثم عدلت عن هذا العزم لِما رأتهُ في عينيها من آثار الدموع ، فتناولت البطاقة وقرأت فيها ما يأتي بتوقيع ابراهيم : « لا بُدَّ من المقابلة لتقرير بعض الامور ، فأستحلفك بكل عزيز ومقدّس لديكِ أن لا تحرميني اياها ، وهي لن تأخذ من وقتِكِ الاَّ بضع دقائق »

قرأت فدوى هذه الاسطر وهي لا تدري ، أتقبل أم ترفض . . ثم خرجت من الغرفة وهي لا تدري أيضًا أتذهب لمقابلة ابراهيم أم لا . . ولكنها ما كادت تخرج حتى رأت هند واقفةً عند الباب وقد انتفخ وجهها واحمرّت عيناها من شدة البكاء . فتأثّرت لها كما تأثّرت لشقيقتها وشعرتْ بما يدفعها الى مقابلة والدها . ولم تبطىء أن بلغت غرفة الجلوس وقد قطبت حاجبيها ، فرأت ابراهيم واقفًا . فدخلت وجلست ، ثم قالت وهي لا تكاد تنظر اليه — لقد سألتني

بواسطة المحامي أن تقابل ابنتيك ، فأذنتُ لك في ذلك ، على شرط أن لا تُزعجهما وتُبكيهما ، وها انك قد اخللتَ بهذا الشرط ولم تقم بما وعدتَ

فقال ابراهيم — ولكني لم أذكر للطفلتين ما يستدعي تأثرهما وبكاءهما ، واذا كنتِ لا تريدين إلاَّ أن تري في ذلك إخلالاً فما أنا بذي القلب الصخريّ والنفس الجامدةِ لأقف مع ابنتيَّ هذا الموقف بلا مبالاة ومن غير تأثُّر ..

فنظرت فدوى اليه شزراً وقالت — والآن ، فما الذي تريد أن تقوله لي ؟ قلْ وأوجزْ !

قال — لا أُريد أَن أقول الاَّ اني أُحبكِ يا فدوى ، ولا يمكنكِ أن تنزعي هذا الحبّ من قلبي مهما تحاولي ذلك ومهما تستعيني بالقوانين والشرائع

فذُعرت فدوى ونهضت تريد الخروج وهي تقول — اذا كان لكَ ما تريد أن تقوله لي غير هذا فأرجو أن يكون ذلك على يد المحامي

فظهرت على وجه ابراهيم ابتسامة تهكم وقال — أخطأتِ يا سيدتي . فأنا لا أستطيع أن أقول للمحامي ما يجب أن أقوله لكِ . نعم لكِ يجب أن أقولَ كلَّ شيء أيتها القاسية الظالمة . فأنتِ لم

تحبّيني قط ، لأنكِ لا تستطيعين أن تُحبّي إلا نَفْسَكِ ! . .

وكانت فدوى قد عزمت على الخروج . ولكنها ما سمعت هذا الكلام حتى شعرت بما اضطربت له نفسُها واحمرَّت وجنتاها فقالت — لكَ أن تقول ما شئتَ وتتَّهمني بما شئتَ . ولكن لا تنسَ اني باقتراني بك قد آثرتُ سعادتك على سعادتي ووقفتُ نفسي على خدمتكَ والاخلاص لك والعناية بك و باولادكَ ومنزلكَ . وقد قمتُ بواجباتي هذه الى النهاية

قال — الى النهاية ؟ . . تقولين الى النهاية ؟ . . وهل هذا صحيح ؟ . . ألم تتركيني على فراش المرض ، تمزّقني الآلام النفسية والجسدية ، ولم تبالي ؟

قالت — ولكنّي لم أتركك الاَّ بعد أن تحققتُ زوالَ الخطرِ عنك . وماذا تنتظر مني غيرَ ذلك ؟ أأبقى بازائك وقد ظهر منك ما ظهر من هذه الخيانة الفظيعة ومن هذه المخاطرة بالشرف والحياة ؟ وهل يمكنني أن أُسامحكَ على مثل ذلك ؟

قال — تسامحيني ؟ وما هذه الكلمة العظيمة التي فُهتِ بها الآن ؟ فهل تعرفين أنتِ معنى المسامحة ؟ وهل سامحتِ أحداً في حياتكِ ؟ انه لأيسر لكِ أن تقتلي مَن يسيء اليكِ بشيء وتدوسيه بقدميكِ مِن أن تسامحيه أو تصفحي له ! . . اني لا أنكر ما لكِ

عليَّ من الايادي البيضآء منذ اقترنتُ بكِ ، فقد اعتنيتِ بي واهتممتِ بشؤوني أعظم اهتمام . وكأنكِ ندمتِ الآن ، فقمتِ تناصبيني العِدآء وتريدين أن تقطعي كلَّ صلة لكِ بي . وكل ذلك ، لأنك لم تحبيني

قالت — ولكنك عير مصيب ، لاني بذلتُ لك كلَّ شيء . ومن يستطيع أن يقف نفسه على خدمة غيره ، إن لم يكن محبًّا مخلصًا ؟

قال — اذاً فأنتِ قد أحببتِني أيضًا !

قالت — نعم !

قال — فاذا كنتِ صادقةً في حبّكِ كما تزعمين ، فقد آن وقت اقامة الدليل والبرهان على صحة ذلك . وها اني أقع على قدميكِ يا فدوى ، يا زوجتي الحبيبة ، وأسألكِ بحق الحب الذي اختلج به قلبكِ أن تصفحي لي ! أعيدي إليَّ بيتي وأُسرتي وابنتيَّ العزيزتين ، وزوجتي الحبيبة ! لا تنبذيني ! لا تقذفي بي الى هوَّة الشقآء ! أُبسطي اليَّ ذراعيكِ فأعود الى السعادة والهنآء ، وتعود حياتنا الزوجيَّة الى أهنأ مما كانت ، ويعود الابتسام الى طفلتينا !

قالت — ولكن لا يمكن أن يكون هذا ، وأنت تطلب

مستحيلاً الآن . فقد مضى ما مضى ، ولست أنت الآن الاَّ غريباً عني

فهزَّ ابراهيم رأسه وقال — أصبتِ . فقد كنتُ غريباً عنكِ كل هذه السنوات العشر . وما كلامكِ عن المحبة التي ادَّعيتها الاَّ من الخدع النسائية التي تموّهين بها . . أما أنا فقد أحببتكِ فعلاً ، وكنتُ أرجو أن أُوقظَ في نفسكِ هذا الحب ، فخاب رجائي

قالت — وعلاقتكَ بهذه الممثلة ؟ أفلم تكن تحبها أيضاً ؟

قال — صدّقيني اني لم أحب انثى سواكِ . . وليس لكِ أن تناقشيني على أعمالي مِن هذا القبيل ، إذ ليس موقفي الآن امامكِ إلا موقف جانٍ يطلب الصَّفح — سواء خُدع بحب سواكِ ، أو خُيّل اليه ذلك ، أو خاطر بحياته ، أو فعل غير ذلك مِن المآثم — فإما أن تصفحي لي ، أو تمضي على عزمكِ ، فينتهي بيننا كل أمر

قال هذا وبسط اليها يده . وكادت تقابله بالمثل فتمدّ يدَها وتضمّه الى صدرها ، ولكنها تجلَّدت وأبت أن تسترسل في عواطفها ، ولبثت واقفة تنظر اليه ولا تدري ما تقول

أما هو فلما رأى منها هذا الإعراض زفر زفرةً حارَّةً وقال — اذاً فالوداع يا فدوى ! الوداع الى الابد ! . .

ثم خرج من الغرفة وأخذ يهبط درج المنزل وهو يكاد يتعثر

بأذياله . وكانت هند ودعد قد وقفتا في طريقه ليأخذهما بين ذراعيه ويقبّلهما ، ولكنه لم ينتبه اليهما . ورأت فدوى ما فعلتهُ الطفلتان ، فلم تنتبه أيضًا ، لأنها كانت شاخصة كلها إلى ابراهيم كأنها تعدُّ خطواته . وخُيِّل اليهـا أن أمراً عجيباً يجب أن يظهر الآن فجأةً ، وانَّ عليها هي أن تقوم بهذا الأمر العجيب . . بيـدَ انها لم تدرِ كيف يكون ذلك ، وقد خانتها قواها ، وكادت تسقط الى الارض

وكانت عيناها لا تزالان مرافقتين لابراهيم ، وقد رأته قد بلغ الباب الخارجي ، فانتفضت بغتـةً وخرجت من غرفة الجلوس كالمجنونة ، وصاحت بأعلى صوتها : — عُدْ ! عُدْ يا ابراهيم ! . .

وعادت قواها فتلاشت . . غير ان ابراهيم كان قد وصل اليها قبل أن تسقط ، فأخذها بين ذراعيـه ، ودخل بها الى مخدعها ، وهو يغطّي وجهها بالقُبَلِ الحارَّة ويبكي ، ومن حوله هند ودعد تطفران سروراً وبهجةً . . .



حجر الفلاسفة



الحادثة التالية جرت منذ عهد بعيد ، في مدينة شيراز من أجناد ايران

وكان الناس في هذه البلاد طبقات ، كما هم في كل مكان . فكان منهم العُمَّال والنبلآء ، والعبيد والاحرار . وكانت كل طبقة تكره غيرها من الطبقات ، ويزدري كلٌّ فريقٍ مَن سواه

وانتشر الفقر والجوع فيها في بعض السنين ، فانحطَّت بسبب ذلك الآداب ، وباع الأخ اخته والأم ابنها والأب ابنته ، وتجرَّد الجمهور من الذمَّة والحيآء ، وسَرَت في المدن الرذيلة وتفاقم الشرّ

غير ان الشمس كانت لا تزال تشرق على تلك الربوع ، كما أشرقت في اليوم الاول من الخليقة ، يوم لم يكن لاحد عهدٌ بالشرّ

وكان على مسافة بعيدة من المدينة حديقةٌ غنّاء ، قام في وسطها قصر جميل شاهق البنيان متسع الاركان ، وكان في جملة قاطنيه ولدان صغيران ، كانت الشمس تشرق لهما كل نهار ، ولعلها بسببهما كانت تشرق على سائر الأكوان

وهما : صبيٌّ — ابن رجل من نبلاء الايرانيين واسع الثروة بسيط الجاه هو ربُّ القصر المذكور ، وبنتٌ — ابنةُ رجل من عبيد ذلك القصر الارقّاء

وكان الصغيران يقضيان ساعات كل نهار في اللعب واللهو ، دون أن ينتبه أحد من أهلهما الى الالفة التي كانت تنمو بينهما على مدى الأيام . فترعرعا كفرعين من أصل واحد ، اذا قطعتَ أحدهما ذبل الآخر ومات

هو كان يُريها أعشاش الاطيار على أفنان الاشجار ، ويعلّمها أن تصغي الى حفيف السنابل في الحقول وخرير ماء النهر الجاري ، — وهي كانت تحمله على التأمُّل في جمال الطبيعة ، وتعلّمه أن يشعر بها ويفتتن

وفي ليالي الشتاء الطويلة كان الصبي بعد أن يفرغ من دروسه على معلّميه يجيء الى صديقته ، فيسرد لها ما تعلّمه ، أو

يحكي لها ما يعرفه وما كان يسمعه من الحكايات والاقاصيص عن الاصقاع النائية ، حيث الشتآء متواصل والليل سرمدي ، وحيث نهاية الأرض و بدء الفضآء الواسع الذي لا نهاية له

كانت الفتاة تسمع من صديقها هذه الاخبار العجيبة بمنتهى اللذة والغبطة ، فتتعجب من أمر اولئك الناس سكان الأصقاع المتجمّدة وهم مرتدون بجلود الوحوش ، وتشعر انهم في أمسّ الحاجة الى الشمس . وكانت اذا تصوَّرت ذلك تسند رأسها الى صدر رفيقها وتقول له — هيَّا بنا نذهب الى اولئك الناس ، نحمل لهم الشمس !

كانت هذه الفتاة تعتقد انها وحبيبها قادران أن يأخذا الشمس الى اولئك الناس ، لأن الشمس كانت مشرقة في نفسيهما

ومرَّت السنون على ما ذكرنا ، وقد تمكنت الألفة بين الصغيرين ، ونَمَت في قلبيهما جراثيم المحبَّة الطاهرة ، فشبَّا على ذوق واحد ، وكانت عواطفهما ونفساهما واحدةً في جسمين

ولما رأى النبيل ان ابنـــه قد تجاوز سن الحداثة ، عزم على ارساله الى مدرسة عالية لاستيفآء دروسه فيها ، وما عتَّم أن أرسله الى المدينة

* * *

كانت نفس هذا الفتى صافية نقيَّة عندما هبط المدينـة . وما هي الاَّ بضعة أيام حتى تعرَّف بجمهور من الأصدقآء في المدرسة وخارجها ، فكان يقضي جانبًا من ساعات نهاره في الدرس والمطالعة، والجانب الآخر في معاشرة الناس واختبار أحوالهم

وكان آيةً في الجمال والظرف ومحاسن الأخلاق . لم تره امرأة أو فتاة إلاَّ شُغفت بعذوبة حديثه وفُتنت بجماله . أما هو فكان ينظر الى جميع النسآء والفتيات على السوآء ، إذ لم يكن في قلبه الاَّ صورة محبوبته التي نشأ معها منذ الصِّغَر

رأى هذا الفتى في المدينة اموراً كثيرة

رأى جمهوراً من الرجال — من ذوي العقول الثاقبة ، والجبابرة ، والخطبآء المصاقع ، — هائمين بالنسآء الى درجة الجنون. ولكنه من الجهة الاخرى سمع هؤلآء الرجال يرمون المرأة بكل ذميم وقبيح

رأى وسمع ذلك كله ، فأيقن أن المدينـة خالية من الصدق والحق ، وانها مفعمة بالرياء والكذب

فشعر بانقباض نفسه وحنَّ الى الرجوع الى منزله ، ليجتمع

برفيقة حداثتـــهِ ، لانها كانت في نظره أبدع صورة ، وأطهر قلبًا ، وأشرف نفسًا ، من جميع النسآء اللاتي رآهنَّ في المدينة . ورأى انه باقترانه بها سينـــال أقصى امنيَّة في الارض ، و ينجو بها من هذه الشرور والادناس كلّها

وما زال هذا الفكر يتجسَّم في رأسه ، حتى لم يبقَ الصبر في امكانه ، فبرح المدينة وعاد الى قصره ، وهو لا يدري ما خبأه له القَدَر

فاستقبله أبواه وذوو قرباهُ بمنتهى الارتياح والسرور ، ولكنه لم يرَ بين المهنئين أقربَ الناس اليه ؛ لم يرَ رفيقة صباه وحبيبة قلبه. ولما سأل عنها أجابوه بأن أباه قد باعها لسيّد سواه ، ولا أحد يعلم عنها شيئًا الآن

سمع الشاب ذلك ، وقد أصابه نوع من الذهول ، فلم يدرك شيئًا . ولما عاد اليه رشده وتذكر الحديث ، أظلمت الدنيا في وجهه وأنكر عمل أبيه وتولاَّه اليأس الشديد وتولَّد في نفسه حبُّ الانتقام. وصار من ذلك الحين يحيي لياليه في النحيب ، لا يأنس بمشاهدة أحد ولا يرغب في سماع شيء . وكان يزداد مقتًا لأبيه ونفاراً من جميع أرباب السيادة وطبقة الاشراف . وما زال كذلك حتى ذوت نضارته وهزل جسمه

وفي إحدى الليالي دخل مخدع أبيه ، فألفاه في سبات عميق ،

فدنا منه وفي يده مدية يريد أن يطعنه بها . . بيدَ انه لم يلبث أن ثاب اليه صوابه ، فخرج الى غرفته وأقفل عليه الباب

ومن ذلك الحين اعتزل الناسَ قاطبةً ، وأكبَّ على الكتب القديمة والحديثة يطالعها ويتفهَّم شؤون البشر وتاريخ العمران ، فرأى أن العبوديَّة هي شرُّ ما أنتجه الانسان لشقاءِ الانسان

وقرأ ذات يوم مقالا في بعض الأسفار القديمة عن « حجر الفلاسفة » — وقد راقه الموضوع ، وساقه الى البحث عن هذا الحجر العجيب وفائدته للبشر ، إلى أن أدرك أخيراً أنه « الحريَّة والمساواة والاخاء » — وأنَّ ذلك لا يتمُّ لامَّة الاَّ إذا ظفرت بهذا الحجر . .

نسي هذا الشاب العالَم بأسره ، ولكنه لم ينس رفيقة حداثته وزنبقة حياته . وكان كلما تذكَّرها ازداد اكتئاباً وضنىً ، وشعر بنار الانتقام تزداد اضطراماً في صدره

وقضى في قصر والده بضعة أسابيع يعاني أشدَّ الكمد والوحشة . ولما ضاقت في وجهه المسالك ، ولم يبق في طاقته احتمال الاقامة مع أبيه ، عمد الى السفر والجولان ، فخرج من ذلك القصر هائماً على وجهه . . .

* * *

بعد هذه الحادثة بار بعين سنة ، وقف شيخ على شاطىء نهر النيل يتأمل في مياهه الجارية

وكان هذا الشيخ عالِمًا كبيراً ، وقد حَنَت الايام ظهره ، وجعَّدت الهموم وجهه

وقد اتخذ لنفسه منزلاً صغيراً مشرفًا على النهر ، بعيداً عن مساكن الناس . وكان يقضي أيامه تارةً في منزله بين كتبه وأدواته، وطوراً على شاطىء النيل

وجلس هذا الشيخ في منزله في أحد الأيام ، وكان أمامه على منضدة صغيرة حجرٌ جميل يتألَّق نورُه كالشمس

هذا هو « حجر الفلاسفة » الذي أفنى هذا الشيخ ، أو ذلك الشاب ، أيامه في البحث عنه . هذا هو الحجر الذي يحرّر العبيد ويجعل جميع البشر اخوةً

كان الشيخ جالسًا أمام الحجر يتأمَّل في تألُّقه ، والدموع تنهمر من عينيه

انه قضى حياته كلها وهو يبحث عنه ، وقد جاب لاجل ذلك القفار وطاف في الأمصار ، حتى وجده أخيراً في أرض الفراعنة

بهذا الحجر ستزول شرور البشر وقسوتهم وبذاءتهم ، وتنتشر الحقيقة والمساواة في كل مكان

ولكن من أين يبتدىء هذا الانقلاب في الكون ؟

وعن أي منبر يُسْمَع صوت الحرية ؟ . . .

أطرق الشيخ مليًّا ، وقد تمثَّلت له صورة تلك الفتاة الجميلة التي كان موتها هو الدافع إلى هذا الاكتشاف . فوقف وصاح بملء فيه :

« أجل أيتها الحبيبة ! ان ضريحكِ سيكون أول منبر يُسمع منه صوت الحرية والمساواة والاخاء . . . انهم قد فرَّقوا بيننا ، ثم أذلُّوك وظلموكِ ، فقضيت شهيدة قساوة البشر وأحكامهم الجائرة ! . . . »

وقام من ساعته ، فحمل الحجر العجيب وانقلب راجعًا الى بلاده ، ليزور ضريح الحبيبة ، ثم يكشف للبشر ما قضى السنين الطوال لأجله

وكان في طريقه يمرُّ بالمدن الآهلة بالسكان ، فيرى الناس يبحثون عن الحقيقة ، ولكن من غير طرقها

وكان اذا حاول الكلام يتصدَّى له الجمهور بالتهكم والازدراء

ويتهدّدونه بالرجم ، فيواصل سيره واجمًا متحملاً الاهانة والجوع والبرد الى ان وهنت قواه

ولكنه كان يتحامل على نفسه ويسير الى الامام ، وهو عالمٌ بأنه يستطيع أن يغيّر وجه الكون في طرفة عين . — وهذا ما نشّطه وشدّد عزائمه

وما زال يصل السير بالسرى الى أن بلغ بلده ، فانطلق توًّا الى قصر والده ، فعلم أنه مات منذ ثلاثين سنة ، وقد أوصى له بجميع ثروته وأملاكه

وكان بعد أيام ان هذا الشيخ قد باع جميع أملاكه ، ووقف ثروته كلّها على إنشاء المدارس والملاجىء لاولاد الفقراء والبائسين

وأما « حجر الفلاسفة » الذي كان لديه فأرسله الى ملك البلاد مصحوبًا بكتاب يقول فيه :

« اذا أردتَ أيها الملك ان تصنع شيئًا لرعيّتك ، فزيّن بهذا الحجر تاجك ، وهو ينير أمامك سبيل المساواة والاخاء ، ويوطّد ملكك ، ويرشدك الى اصلاح كل شأن من شؤون العباد والبلاد » . .

* * *

واهتدى الشيخ بعد ذلك الى ضريح رفيقة حداثته ، فكان يزوره صباح مساء ، ويرحّم على هذه الزهرة الذابلة قبل أوانها

ولما شعر بدنوّ أجله ، أوصى أن يدفن في قبرها ، وأن ينقش على ضريحهما :

« قد فرّقتنا أحكامُ البشر ، فجمعتنا أحكام الطبيعة »







العلاج الشافي

حدثنا بعض الرواة الحديث التالي ، قال :

كان « بوسطر » من أشهر نُطُس الاطبآء في نيويورك . وكان يزوره في منزله كل يوم عشرات من المرضى ،فيعالج أدوآءهم بما أوتي من المهارة والحذق ، ويزيد بذلك إعجاب القوم به وثقتهم بكفايته

وجآء في أحد الايام الى منزله فتىً في عنفوان الشباب ، جميل الصورة لطيف الذات ، تظهر عليـه أمائر الغنى والتَّرف . فاستقبله حاجب المنزل وناوله رقعة لينتظر نوبته في الدخول على الطبيب . فنظر اليها الزائر باستخفاف وقال — أعطِ هذه لغيري ، وأما أنا فلا يسعني الانتظار ، لأني أريد مقابلة الطبيب حالاً

فابتسم الحاجب وقال — لا حيلة لي في ذلك يا سـيدي ، ولستُ أسمح لك بالدخول قبل مَن سبقك في المجيء من المرضى ، ولو كنتَ رئيس الجمهورية نفسه

فأخرج الزائر بضعة ريالات من جيبه ، ووضعها في يد الحاجب وقال — قلت لك اني أريد الدخول حالاً

فأبرقت أسرَّة الحاجب ، وبادر الى الباب ، ففتحه وقال بصوت سمعه سائر المرضى — تفضل اذاً ، لانك من أعز أصدقاء سيدي الطبيب

فدخل الزائر ردهة كبيرة ، كان الطبيب بوسطر جالساً في غرفة تحاذيها وقد شعر بقدومه ، فانتظر حتى اذا فرغ مما كان بين يديه من العمل ، استدعاه وسأله عن مرضه ، فقال — اذا استطعتَ يا حضرة الطبيب أن تبرئني مما بي ، دفعتُ اليك عشرة آلاف ريال

فقال بوسطر برزانة — ان واجباتي تقضي عليَّ بمساعدة جميع ذوي الاسقام ، لا فرق عندي بين غنيّهم وفقيرهم ، فاذكر لي مرضك

قال — اني لا أشعر بمرض

فدهش بوسطر ، وكاد يعتقد لأول وهلة ان الشاب مصابٌ في عقله . ولكنه تفرَّس في وجهه مليًّا ثم قال — أُذكر بغيتك من هذه الزيارة وأوجز في القول ، لان غيرك أيضاً ينتظرني

قال — إسمح لي إذاً ان أقصَّ عليك تاريخ مرضي

قال — ولكن لا تنسَ ان أربعة وسبعين مريضاً ينتظرونني خارجاً

قال — اسمح لي من وقتك بخمس دقائق فقط ، وأنا أنقدك عن كل دقيقة ألفي ريال

قال — تكلَّم

قال — أنا « جان فندال » . وكان لوالدي يوم وفاته ثروة تقدر بثلاثين مليون ريال ، ولم يكن له غيري من الأولاد ، فورثت هذه الثروة عنه ، وهي قد زادت الآن عما كانت عليه كثيراً

قال — اني لا أجهل اسم والدك ، فأهنئك وأرجو أن تزيد ثروةً وجاهًا . فاذكر لي الآن مرضك

قال — مهلاً أيها الطبيب فقد شرعت في وصفه ، فأرجو أن تصغي إليَّ . . فاعلم اني الآن في الثلاثين من عمري ، ولا ينقصني شيء من أسباب الرفاهية ، ومع ذلك أراني تعسًا شقيًّا ، وأرى الحياة عبئًا ثقيلاً عليّ ، وقد سئمتُ كل شيء فيها ، واستولت عليَّ السويداء فهي لا تفارقني نهاراً وليلاً ، ولذلك فاني أسألك أن تفرغ جهدك في معالجتي اذا كان ذلك مستطاعًا لديك ، أو أرشدني الى أسهل سبل الموت ، ولك فى الحالتين المكافأة التي أشرتُ اليها في مقدمة كلامي

قال — حسن ، فاذكر لي الوسائل التي استخدمتها لتسرية ما بك من الكرب

قال — لم تبقَ وسيلة يستطيعها البشر إلاَّ استخدمتها : كالسياحات ، والمسابقات في كل مضمار ، والملاهي على أنواعها ، والصيد والقنص ، والشراب ، ومغازلة الحسان ، وكل ما تصبو اليه النفس وترتاح اليه العين و يستعذبه الطبع

قال — وأي النسآء عاشرتَ ؟

قال — من جميع الطبقات والأصناف والامم والأعمار ومراتب الجمال

قال — أعَزَب أنت أم متزوج ؟

قال — لا أزال عزَبًا . وقد خطبتُ الآنسة جوزفين سليد إحدى حسان أميركا ، وهي تفوقني ثروةً ، لأن والدها الملقب بملك الزجاج من أشهر أصحاب الملايين في هذه البلاد . وقد أحبتني حبًا عظيماً ، فلم ترض سواي من مئات الخُطَّاب الأغنيآء الذين كانوا يحومون حولها . غير اني لم ألبث أن هجرتُها

قال — وما سبب ذلك ؟

قال — ليس لذلك من سبب . فقد كنتُ جالسًا معها ذات

يوم في قصرها ، وقد تولتني السآمة وكاد الضجر يقتلني ، ولم أهتدِ الى موضوع للحديث ، ولم يستطع جمالها الرائع أن يجتذب نظري ، ولا حديثها العذب ان يُسرّي غمي ، فنهضتُ وقلتُ لها — اني مسافر في الغد الى سيبيريا . . ثم تركتها جامدةً كالصنم وغادرتُ القصر في الحال . . وفي ثاني الأيام سافرتُ الى سيبيريا ، وأنا أعلل النفس بانقطاع كل علاقة لي بخطيبتي ، وكنت أتوقع أنها تتحول عني الى حب سواي ، وتقترن بأحد الأصدقآء الذين كانوا يختلفون الى قصرها . . بيدَ انها لم تفعل شيئًا من ذلك ، بل أقامت ترقب عودتي . ولا جرم أن صنيعها هذا كافٍ وحده لايقاظ عواطفي كلها نحوها ، ولأن أقف حياتي بأسرها على هواها . . ولكن لا قِبلَ لي بشيء من ذلك ، لاني لا أستطيع ان أحبها

قال — ولِمَ ذاك ؟

قال — لانها كاملة الصفات ، كريمة الخصال ، ولا عيب فيها

قال — ولكن ليست النسآء كلهنَّ كالآنسة جوزفين ، فاذا أنت لا تحب في المرأة هذه الصفات ، فيمكنك أن تجد غيرها

قال — ليس للحب سبيل الى قلبي مهما كانت صفات المرأة

قال — وهل عالجتَ جميع ضروب السباق ؟

قال — لم أدع ضرباً منها الا عالجته ، وجرّبت الشعور بالفقر المدقع أيضاً ، ولم أُشفَ . . .

قال — وكيف ذلك ؟

قال — بينما كنتُ في بعض مدن سيبيريا ، جاءتني رسالة برقية من نيويورك تنبئني بأن المصارف التي أودعتها ثروتي قد أفلستْ ، وأُصبت أنا من جرّاء ذلك بخسارة جميع أموالي دفعةً واحدةً . . غير أن ذلك لم يؤثر فيَّ شيئاً . . ولما عُدتُ الى وطني تحققت أن الخبر كان اكذوبةً ، لان ثروتي لم تنقص شيئاً ، بل بالعكس زادت في هذه المدة أضعافاً . . أما أنا فلم أفرح لهذه الزيادة، كما اني لم أحزن للخسارة

قال — ومن خدعك بتلك الرسالة ؟

قال — جوزفين نفسها . . وقد زعمت أنها الذريعة الناجعة لشفائي مما أنا فيه ، فلم تفلح . . . وها قد جئت الآن اليك يا حضرة الطبيب ، ألتمس منك أن تعالجني بكل ما أوتيتهُ من الحذق ، أو تميتني بأسهل أنواع الموت

قال — لا تخف فسيكون لك ما شئتَ

قال — انتَ اذاً تروم معالجتي ، وتبشرني خيراً !

قال — نعم

قال — اذا كان الأمر كما تقول ، فلك مني غير الأجرة المقدَّم ذكرها ، مكافأة أخرى لا تقلُّ عنها قيمةً

قال — تعال غداً اليَّ ، ومعك صكٌّ يتضمن رضاك بكل واسطة أروم استخدامها لمعالجتك ، وان كل ما أفعله لهذه الغاية مطابق لمشيئتك . وهذا الصكّ توقعه بحضور شاهدَين أدعوهما لذلك

قال — يظهر لي أنك غير واثق بصحة ما تريد استخدامه لمعالجتي من الذرائع ، فعزمت أن تقتلني قتلاً بطيئًا

قال — انت واهم يا سيدي . . ولكن مع ذلك أُكتب وصيتك الأخيرة ، لأنك كما أرى لا تخشى الموت

قال — اني لا أخشى شيئًا ولا أرهب أمراً الآن

قال — ولا تنسَ أن تُحضر معك أيضًا ورقة مالية بقيمة العشرة آلافَ ريال ، وهي الاجرة التي سأقبضها منك مقدمًا

فنهض جان وهو مستبشر ببلوغ المرام ، ثم ودَّع الطبيب وخرج لشأنه

* * *

وفي اليوم التالي جاء جان فندال الى منزل الطبيب بوسطر ، فوجده بانتظاره ، ومعه شاهدان وخادمان . وما كاد يطأ عتبة الباب حتى نهض الطبيب ، فاستقبله باشًّا وقال — هل هيأتَ ما أوصيتك به يا سيدي ؟

قال — نعم ، فهاك الصك والورقة المالية

قال — حسن . فاسمح لي أولاً أن أُعرّفك بالشاهدين : فهذا المستر سام ، وهذا المستر غام . والآن أسألك ان تذكر امامهما انك بتمام إرادتك ورشدك تفوّض أمر معالجتك إليَّ

فقال — أنا جان فندال ، البالغ سن الرشد ، أُعلن امام هذين الشاهدَين تمامَ رضاي بجميع الوسائل التي يروم الطبيب بوسطر ان يتوسل بها لمعالجتي

قال — إخلعْ اذاً ثيابك وتمدَّدْ على هذه المائدة امامنا

فلبَّى جان الأمر . وفي الحال انشقه بوسطر بنجًا دون ان يُشعره بذلك ، حتى اذا غاب عن الحسّ ، التفت الى الشاهدين والخادمين وقال — أُبتروا الآن رجله اليمنى عند الركبة ، وضعوها في ذلك الإناء المملوء كُحلاً (سبيرتو)

ولما قال ذلك خرج وقام الرجال الأربعة بالعمل

ولما افاق جان شعر بألم شديد في ركبته ، فأنَّ أنينًا مزعجًا ، ثم فتح عينيه ونظر ، فاذا إحدى رجليه مبتورة ، وأدرك للحال ان بوسطر قد أمر بقطعها . فكبر عليه الأمر ، وكاد يجنُّ غيظًا ، وأخذ يصيح صياحًا شديداً ، ويلعن الطبيب بوسطر ويقذفه بأفظع الشتائم ويتهدَّده بكل ويل . وكان بالقرب منه المستر سام ، أحدُ الشاهدين — فلطمه بيده لطمةً ألقتهُ الى الأرض وكادت تُطير رشده ، ثم صاح بأعلى صوته — أين ذهبتم برجلي أيها الملاعين ؟ !

فقال له أحدهم — لا تضطرب كثيراً يا سيدي ! فهذه رجلك اللطيفة في هذا الاناء الزجاجي

ولبث جان يومين كاملين يعجُّ عجيجًا هائلاً ، وهو كالمجنون ، ولا يجسر أحد أن يدنو منه . ولما كان اليوم الثالث شعر بخوَر شديد ، ورأى أنه لا فائدة له من الصخب والضجيج ، فأخلد الى السكينة وهو يأمل أن يبصر الطبيب ليسأله عما حمله على مثل هذه الفظاعة الغريبة ، بل الجناية الكبيرة

وكأنَّ بوسطر كان ينتظر منه مثل ذلك ، فلما علم بسكينته جاء لعيادته . غير أن جان استقبله ، ونار الغضب والانتقام تتقد في عينيه ، وصاح به — ماذا فعلتَ أيها الشيطان المتجسد ؟ وكيف بلغت منك الجرأة أن تستخفَّ بكل شريعة ، وتقدم على مثل هذا العمل

البربريّ ؟ ولـكن مهلاً ! فلأنتقمنّ منـك شرّ الانتقام ، فأسُلّ عينيك ، وأمزّق وجهك بأظافري

فقال له الطبيب برزانة — لا يمكنني أن أحدثك بشيء مادمت في هذه الحالة من الهياج ، فسأنصرف الآن عنك ، ولا آتيك إلاّ متى زال اضطرابك وهدأ روعك

قال ذلك وخرج ، وجان يزيد اضطرابًا واشتعالاً . . وقد شـعر بأنه أصبح الآن مقعداً ، لا يستطيع أن يخرج الى الحدائق الجميـلة ، أو يمتطي صهوات الخيول ، أو يخاصر الحسان . فأنّ أنينًا محرقًا . . وكان على منضـدة أمامه بعض صحف الأخبار ، فأخذ يطالع فيهـا أنبآء المسابقات والملاهي والألعاب التي كان له في جميعها القدح المعلّى ، ويتلهف على ماضي حياته . . ومكث في هذه الحالة أيامًا ، وقد استولت عليه السآمة ، وشعر بأشد الحنين الى الخروج من هذا السجن الى الفضآء الواسع . . ، فـكتب الى الطبيب بوسطر يسأله أن يعوده ، وهو يعده أن يقابله بملء السكون

وفي الحال جآء الطبيب . فابتـدره جان قائلاً ، وقد ظهر عليه الانكسار الشديد — وما كانت غايتك من بتر رجلي يا حضرة الطبيب ؟ فهل تزعم انك بذلك تجعل حياتي أهنأ وأسعد مما كانت؟

فقال بوسطر — اعلم يا صديقي العزيز ان الحياة لا تكون جميلة

وجذّابةً الاّ اذا شعر صاحبها ببعض الكوارث والعوَز

قال — ولكنك قد حرمتني الآن كل ما كنتُ أتوق اليه .. حرمتني الرقص وركوب الخيل ومباراة الاقران في كل سباق و . . .

فقاطعه بوسطر بقوله — هذه هي حكمة الوجود أيها الصديق : فان أشد ما تتوق اليه نفوسنا ، هو ما نشعر بافتقارنا اليه . . . غير اني أبشرك بأنك سترقص ، وتلعب ، وتخاصر من تشآء ، وتفعل ما تشآء

فظهر السرور في وجه جان ، وقد عاد اليه بعض الأمل وقال — وكيف يتسنى لي ذلك ، وأنا برجل واحدة ؟

قال — ستكون لك الاخرى أيضًا . فقد استدعيتُ أحد مشاهير الميكانيكيين ، واتفقت معه على أن يعمل لك رِجلاً صناعية لا تفرَقُ بشيء عن الطبيعية ولا يستطيع أحدٌ من البشر التمييز بينهما ، وسيكون ثمنها ثمانية آلاف وسبعمئة ريال

قال — افعل ما تشآء . . ولكن قل لي بربك ، هل علمت الآنسة جوزفين ببتر رِجلي ؟

قال — لا يعلم أحد في نيويورك كلها بالحادث ، سوى رجالي الأربعة الذين قاموا بالعمل ، ولكنك تستطيع أن تكون على ثقة

تامة بانهم لا يذكرون شيئًا من ذلك لأحد ، وأنا أعرَفُ الناس بشدة كتمانهم لكل ما يرونه أو يسمعونه هنا

قال — وسأكافئهم أنا أحسن مكافأة ، ولاسيما المستر سام الذي لطمتهُ تلك اللطمة . . وقل لي الآن ، متى يصبح في امكاني الخروج من هنا ؟

قال — بعد شهرين على الأقل ، نركب لك في أثنائهما الرِجل على أحسن ما تشتهي . . .

* * *

بعد نصف سنة من تاريخ هذه الحادثة نشرت جرائد نيو يورك الخبر التالي :

« اقترنت الآنسة جوزفين سليد ، ابنة ملك الزجاج في نيو يورك ، بالمستر جان فِندال المثري الشهير ، وكانت حفلة العرس من أبهى الحفلات وأجملها . . »

* * *

و بعد بضعة أشهر من تاريخ هذه الكتابة ، أقيمت مأدبة حافلة في أحد الأندية الكبيرة في نيو يورك ، وكان جان فندال وزوجته من المدعوّين . . وقد دارت رحى الرقص في تلك الحفلة كأمواج البحر الزاخر ، وكان جان من أشد الحضور تمتعًا بتلك اللذة ، فلم

يكن لتكلّ قدماه أو لتخور قواه ، وقد جَهدَ ثلاث سيدات وأربع أوانس من أشهر حسان المدينة برقصه معهنّ . . وأنه لكذلك واذا بقائل يقول له همسًا — مهلاً أيها الصديق ، فاني أخشى الآن أن تفقد رِجليك الاثنتين معًا !

فذُعر جان والتفت الى القائل مغتاظًا ، فرأى بجانبه الطبيب بوسطر ، فابتسم وصافحه بسرور

فقال له بوسطر بصوت خافت — أهنئك باقترانك بالآنسة جوزفين

فتنهد جان وقال — ياليتني لم أفعل ذلك ، فقد نغّصت حياتي بيدي

قال — عجبًا ، فهي تحبك كثيراً

قال — نعم . . ولكني قد أحببت سواها ، وأودُّ لو جُرّدتُ من ثروتي كلها ، لأكون حرًّا مطلقًا ، أطير حيث شئتُ ، وآوي الى حيث أردتُ

قال — ولكنك قد تخلصتَ تمامًا من السويداء التي انتابتك قبلاً . . فأحسن علاج لها ان يشعر المرء بشيء يضغط نفسه ، ويورثه بعض الهموم ، والزواج احسنُ علاج لذلك ، لأنه يعكّر

عليك كأس حياتك ، فلا تعاودك السويداء . . فكيف ترى الآن الملاهي والحسان ؟

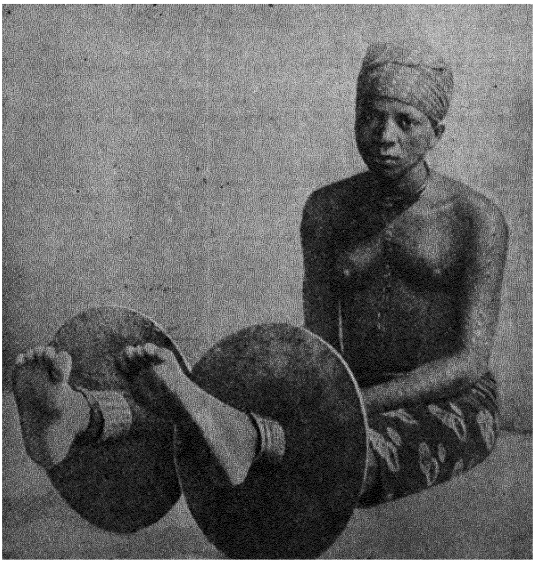
...

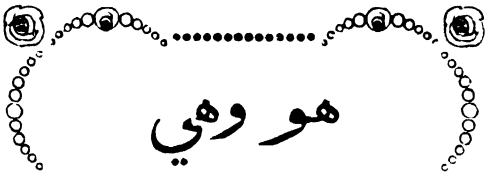
قال — ياليتني اتفرَّغ لها ولهنَّ

قال — قلتُ لك ان الزواج هو احسنُ علاج للسويداء ، ولكني لم احب ان اشير به عليك يوم جئتني تطلب دواءً لنفسك

قال — ولِمَ ذاك ؟

قال — لانه . . . اشدُّ من بَترِ الرِّجل . . . .





هو وهي

المنزل فخم . وفيه من الرياش البديع ، والاثاث الجميل ، والتحف النادرة ، ما لا يقع تحت حصر

وفي غرفة من غرفه الفسيحة جلس ذات مساء السيد فيليب وزوجته السيدة فريدة يتحادثان ويتذاكران

وكان فيليب شيخًا وقوراً مهيبًا ، وقد كلّل الشيب رأسه ، وجعّد الهمّ وجهه ، وكان له من العمر نحو الثمانين ولزوجته نحو السبعين

ولما جلس في كرسيّه مدّ يده الى مائدة امامه ، فتناول لفافة يريد أن يدخّن . فابتدرته السيدة فريدة بقولها — وكيف تريد أن تدخّن ، وقد منعك الطبيب ذلك ؟

فأجاب — انه لم يمنعني التدخين بتاتًا ، بل أذن لي فيه بعض الأحيان . وأنا الآن أشعر من نفسي بارتياح الى ذلك ، لأني قضيتُ نهاري اليوم في تمام الراحة والعافية ، فأرجو أن تسمحي لي بلفافة أُدخنها ، وأنتِ الى جانبي نتجاذب أطراف الحديث ، أو يمعن كلٌّ منا في تخيلاته وتأملاته

هي — أنت مولع منـذ زمان بهذه التخيلات ، وما هي في الحقيقة الاَّ مبعث الأسف والتلهُّف

هو — لم تصيبي في قولكِ . . لأن المرءَ لا يتأسَّف الاَّ إذا رام شيئًا ، وحال دون الوصول اليه حائل . . ومهما يكن الامر ، فلا يجدي الاسفُ نفعًا مَن كان في سِنّي الآن ، وقد نضب فيه مآءُ الحيـاة ، ولم يبق له من أمل سوى انتظار المنيَّة ، وانما تلذُّ له ذكرى ما مضى من أيام شبابه وأوقات هنائه

هي — والاحزان ؟ والاهتمامات ؟ والمكاره ؟

هو — يُرَى كل ذلك في افق الماضي البعيد ، ولكن في صورة مصغَّرة جدًّا ، حتى يكاد لا يُنظَر

هي — وهل هذا الذي تقوله حقيقة راهنة ؟ وجميع المشقات والاضطرابات التي يعانيها المرءُ شابًّا ورجلاً ، هل تفقد قوتها كلَّها في شيخوخته ؟

هو — أجل ، فان المرء يدرك سن الشيخوخة ، أي الحدّ النهائي للحياة ، وهو ينظر الى الورآء ، الى حياته السابقة ، الى ربيع الحيـاة ، ولكنه لا يُبصر شيئًا ، — كما اننا ننظر الى رماد هذه اللفافة ، نظراً مجرَّداً ، دون ان نتصوَّر وجود نارٍ قبل هذا

الرماد . . . لا جرم ان في كل حياة مكاره وحوادث مختلفة ، بيدَ انها تمسي كلُّها في سن الشيخوخة رماداً ، فلا ننظر اليها الاَّ وقد نسينا او تناسينا كل شيء

هي — فأنت اذاً موقن جدَّ الايقان ان جميع عواصف الحياة تصير في الشيخوخة الى رماد لا نار تحته ؟

هو — نعم

هي — وتنظر الى حوادث الماضي بخلوّ البال ؟

هو — نعم . وهذا ما يجعل الشيخوخة صالحة هادئة مطمئنة ، لا شيء يشوب صفآءها

هي — هَبْ حادثًا مهمًّا جرى قبلاً في بيتك ، لم تعلم به وقتئذٍ ، بل علمتَ به الآن في هذه السن ، — فماذا يكون تأثيره فيك ؟

هو — لا اهتزُّ له ، ولا انزعج

هي — واذا كان ذلك الحادث اساءةً لا يغتفرها دمُ الشباب ، وهو لو ظهر في حينه لكسر قلوبًا واجرى دماءً ، — فماذا يكون نظرك اليه الآن ؟

هو — كأنه لم يكن

هي — لعلك تقول ذلك لتأييد ما ذهبتَ اليه من هذه الآراء

هو — كلاَّ ثم كلاَّ . . وانما ذلك ما اتيقَّنه حقيقةً ، وهو نتيجة الثمانين سنة التي قضيتُها

هي — فلو ذكروا لك عني اموراً تشينني . . ، فهل تبقى ساكناً هادئاً ؟

فبهت فيليب وقال — وكيف ذلك ؟

هي — لو قالوا لك مثلاً اني لم اكن امينةً لك . . ، وأيَّدوا ذلك بما لا يحتمل الريب ، فأنت ، كما يجب ان يُفهَم من كلامك ، يجب ان لا تضطرب ولا تثور عواطفك

هو — أصبتِ

هي — وهل انت واثق كل الوثوق بعدم تهيُّج نفسك لشيء ، مهما كان وقعه شديداً ؟

هو — نعم

هي — فأنا اذاً مسرورة جدًّا

هو — ولماذا ؟

هي — لأني أستطيع اخيراً ان اكون صريحة في القول . . ، فأُطلعك على سرٍّ خفيّ طالما حملتُ وَقْرَهُ هذه السنين كلها . . ، وقد حان لي أن أطرحه عن عاتقي ، لانه بهظني جدًّا وأعدمني كل راحة

هو — وأي سرٍّ تعنين ؟

هي — ان ذلك من اسرار الماضي . . ، فقد خنتُك وكذبتُ عليك وسخرتُ بك ، ولم اكن زوجةً أمينةً كما كنتَ تدعوني . .

فأجفل فيليب لدى سماعه ذلك وجحظت عيناه ، ثم وثب عن كرسيّه كمن لدغته أفعى . . . ولكنه لم يلبث أن قهقه ضاحكاً ضحكة عالية وقال — اني لا أُصدّق هذا الكلام ، بل أَعدُّهُ من باب المزاح والمجون . . فما أمهركِ أيتها المرأة بضروب الحِيَل ! !

هي — أنت واهم يا عزيزي ! لان الذي قلتُهُ لك هو الحق الصراح

هو — لا . لا . لستُ أُصدّق مثل هذا الكلام

هي — أُقسم بحياة ولدنا العزيز ، ان كلامي لا يحتمل التأويل

فنظر فيليب في وجهها ، فرأى دلائل الصدق بادية عليه ، فارتعش وامتقع لونه ، وقال بصوت أبحّ — فأنتِ اذاً قد خنتِني وهزأتِ بي ! . . غير اني لا أزال مرتابًا

هي — لا ترتَبْ ولا تضطرب . . ، والحقيقة يجب أن تُقال ، ولو أدمتْ القلوب وكسرت النفوس

وكان السيد فيليب يزداد ارتعاشاً وتهيُّجًا ، ولكنه كان يحاول التجلُّد ، فقال — أنا لا أضطرب . . ولكني في حيرة . . وقد التبس عليَّ الامر ، وأُريد أن أعلم ، كيف حدثت هذه الخيانة ، ومتى ؟

هي — حينما كنتَ تتعاطى تجارة المنسوجات الوطنية

هو — وكم استمرَّت خيانتكِ ؟ ومَن كان حبيبُكِ أو عشيقكِ ؟

هي — سبع عشرة سنة . . . وأما الحبيب الذي اتخذتهُ تلك المدة خليلاً فهو صديقك وجارُك ادمون

فانقلبت سحنة فيليب لدى سماعه هذا الكلام ، وقال بصوت يخنقهُ الحزن — ادمون ؟ . . هذا الرجل الذي اتخذتهُ أحسن صديق ، وطالما ساعدتهُ وأحسنتُ اليه ، وكنتُ أُعوّل في اكثر شؤوني عليه ؟ . . مع هذا الرجل الخائن الغادر كنتِ تضحكين عليَّ ، وتُظهرين الامانة والاخلاص ؟ . . ولا شك ان ادمون لو بقي حيًّا ، لكنتِ لا تزالين الى الآن تحبينه وتهيمين به ، وأنتِ في هذه السنّ ، وهذه الشيبة ! !

هي — لا تقل هكذا ! . . فقد مضى ما مضى ، وبُحتُ لك بسرّ حُبّي وغرامي . . فعليك أن تعفو وتسامحني

فزفر فيليب زفرة حارَّة وقال — يا لكِ من خائنة غادرة ! . . فقد كنتُ أمينًا لكِ ، ثَملاً براح حبك ، هائمًا برائع جمالكِ وآدابكِ . . ، واما أنتِ ، فبدلاً من أن تُخلصي لي الودّ وتكرّسي قلبكِ لحبّي ، ملتِ الى سواي ، وغدرتِ بي هذا الغدر الوخيم . . ، فتبًّا لكِ ، تبًّا لكِ ! !

هي — لو علمتُ بأن صراحتي تجرحك وتقلقك ، لَما بُحتُ لك بشيء ، ولكن . . .

هو - اخرسي ايتها الغبيَّة ! . . لان كلامكِ لا يقلقني فقط ، بل يقطّع قلبي تقطيعًا ! . . فقد قضيتُ حياتي الى هذه الشيخوخة مسروراً بكِ ، سعيداً بقربكِ ، فكانت مكافأتي منكِ انكِ دُستِ بقدميكِ عواطفي وامانيَّ ، ومثّلتِ عليَّ دوراً جهنميًّا ! . . فآه منكِ ايتها اللعينة ! . . .

ولما قال هذا سقط عن الكرسي بدون حراك

فارتجفت فريدة ، وبادرت اليه تعالجه بالمنبّهات ، وقد شقَّ عليها الامر كثيراً ، فقالت في نفسها : ماذا عملتُ ؟ أما كان

الاجدر بي أن يبقى هذا السرّ في صدري ؟ . . ان هذه الحقيقة ثقيلة ، وقد تقتل الزوج ، ولو شيخًا مسنًّا كزوجي . . . نعم اني أردتُ ان اعترف له بجريمتي ، ليسامحني ويخفّف وطأتها عني ، لأنحدر الى حفرتي بسلام ، ولكن لا . . لا . . فيجب أن أُقنعه الآن ، بأن ذلك كله كذب وبهتان . . والاَّ فانه يموت كمداً وجزعًا . . .

واطمأنت السيدة فريدة حينما خطر لها هذا الخاطر . وكان زوجها قد عاد الى رشده ، ففتح عينيه ، وهو لا يزال محتبس الصوت ، والدموع تنهمر بغزارة من مقلتيه

فدنت منه وقالت — وهل صدَّقتَ كل ما أنبأتك به ؟ . . ان ذلك غير صحيح

فاستوى فيليب على كرسيه وقال بلهفة — ماذا تريدين أن تقولي بهذا الكلام ؟

هي — أُريد أن أقول اني لم أخنك قط ، وقد قضيت عمري كلّه امينةً لك ، أحبك وأهواك ، ولا أميل الى سواك

هو — ولكنكِ أقسمتِ !

هي — لم أفعل ذلك إلاَّ لأنتقم منك ! . . فقد قلتَ انك

مستعد أن تسمع عني كل أمر دون أن تقلق أو تضطرب ، مع انك كنتَ تغار عليَّ حتى من خطرات النسيم . . فماذا كانت النتيجة ؟ . . وعلى كل فاني ارجو أن تسامحني وتنسى كلماتي ، فقد أزعجتُك على غير قصد

هو — ومَن يعلم هل أنتِ صادقة الآن ؟

هي — لا تظنَّ بي سوءًا يا عزيزي ، بل ثق بكلامي ، واقرأ ذلك في عينيَّ كما كنتَ تفعل سابقًا ، حينما كنت تسبر غور قلبي من مجرَّد نظرك اليَّ ، فلا يمكن أن يتغيَّر ذلك فيَّ وانا في سنّ الشيخوخة . . وهل يخطر في بالك اني أستطيع أن أُحبَّ ادمون ، وقد كان أحطَّ منك بعقله وذكائه وجماله ؟ . . وانت تعلم اني لم اخرج لتشييع جنازته بعد موته ، — وهذا دليل كبير على عدم ميلي اليه . . والخلاصة اني لم أتحوَّل عن الامانة لك ، وقد كانت حياتي كلها وقفًا على خدمتك ومحبتك

وكان فيليب يصغي اليها بكل حواسّه ، وقد عاوده نشاطُهُ ، وبدت على وجهه امائر الاقتناع ، فقام اليها يعانقها وقال — اني أُصدّقكِ يا عزيزتي . . وأُريد ان اصدّقكِ !

هي — وأرجو ان تسامحني لازعاجي اياك بمثل هذا الكلام . .

وها انك لا تزال ترتعش ، وأنا اضطرب جزعًا . . أفلا تريد أن تتناول شيئًا من الشراب المسكّن ؟

ففاضت عينا فيليب بدموع الفرح وقال — كلاَّ . . فاني في احسن حال الآن ، وقد عادت اليَّ الحياة . . كنتُ كرجل تعرَّض لاشدّ الاخطار ، وما عتَّم ان نجا فجأة من كل خطر

هي — ومع هذا فاني أرى ان تنام قليلاً لتستريح

هو — لا . لا . . بل ابقي بجانبي ، واقتربي اليَّ ، فاني اريد ان اراكِ ، واحادثكِ ، وألمسكِ

هي — وهل نبذتَ هذا الفكر من رأسك ؟

هو — نعم . وبتُّ اضحك من نفسي ، لأني كنتُ السبب في حملكِ على مثل هذا الانتقام ، بل هذه المداعبة التي كادت تخطف انفاسي . . . والحقيقة التي علمتُها الآن ، هي ان الرجل — مهما شاخ وطعن في السن — لا يستطيع ان يسمع عن زوجته شيئًا من قبيل الخيانة والغدر . .

ثم غلب عليه النعاس والضعف فنام

ونهضت السيدة فريدة من جانبه ، وهي تتمتم قائلةً — لا أستطيع ان اعترف له بخيانتي ، لا في هذا العالَم ، ولا في العالَم الآتي . . .

المقابلة المخيفة

كان لاون جالساً ذات يوم في منزله ، والقلق بادٍ في وجهه ، وهو من وقت الى آخر ينهض ، فيسير في غرفته ذهاباً واياباً ، ثم يعود فيجلس ويمعن في الخيال

قرعت الساعة الخامسة مساء . فتنبَّه لاون من غفلته وقال في نفسه : هذا موعد حضورها ، فستأتي الآن ، وتضمّني الى صدرها ، وأضمّها الى قلبي ، ونتطارح أشهى أحاديث الحب والهوى .

ولما قال ذلك ، شعر بدوار في رأسه ، وخُيّل اليه انه بازاء الحبيبة ، يستنشق أريجها الطيب ، ويتمتَّع بعذوبة مناغاتها ورقة مغازلتها

كان لاون شاباً جميل الصورة ، في الثلاثين من عمره . وقد « أحبَّ » في زمانه كثيراً . وكان يشعر بقوة سلطانه على قلوب النساء ، فيزدهي تيهاً بنفسه واعجاباً بجماله . بيدَ انه كان سريع التقلُّب في حُبّه ، كثير التنقُّل من محبوبة الى اخرى ، الاَّ ماري التي كان يرقب مجيئها اليوم ، فقد قيَّدت بصره ، وملكت حواسَّه ، وغلبت على قوة جنانه

وكانت ماري هذه متزوّجة ، وزوجها صديق لاون ورفيقه في العمل . فقد كانا من مؤلّفي الروايات التمثيلية ، يشتغلان معًا ، وينشران رواياتهما باسميهما معًا ، وقد آنسا من إقبال الجمهور ما وطّد صلة الصداقة والولآء فيما بينهما ، وزادهما رغبةً في الدأب والاجتهاد

ومع هذا فان لاون قد أَحبَّ زوجة صديقه وقريبه ، دون ان يزعجه تبكيت الضمير . وكان يرى من محبة ماري له ما يزيده تعلُّقًا بهواها ، وإعراضًا عن كل زاجر داخلي . ولعلَّ ماري أَحبَّتْهُ لأن زوجها شارل كان يكبره بعشر سنوات ، وقد وخطه الشيب . ولكنه كان لا يزال قويّ البنية جميل الصورة ، وكان فوق ذلك طيّب القلب دمث الاخلاق

* * *

وأقام لاون في غرفتهِ ينتظر قدوم الحبيبة ، وكان قد أَعدَّ منذ الصباح كل ما كانت تميل اليه من الحلوى والفاكهة والشراب والازهار

وانه لكذلك اذ قُرِع جرس المنزل ، فهبَّ من مكانه وهرول الى الباب ففتحه ، واذا امامه رسول من قِبَل الحبيبة ، ناوله رقعة وانصرف . وكان في الرقعة الكلام التالي :

« ان زوجي يروم مقابلتك في هذه الساعة ، وقد بذلتُ الجهد لأثنيه عن عزمه فلم أُفلح . . فصبراً ايها الحبيب ما ؟ ماري »

قرأ لاون ذلك فاظلمت الدنيا في وجهه ، وعاد الى غرفته كئيباً مضطرباً وهو يقول في نفسه : وماذا يريد شارل مني في مثل هذه الساعة ، ونحن انما تواعدنا ان نلتقي غداً ؟ . . تباً له من سارق ولصّ ، يريد ان يسلبني الان احسن ساعات حياتي . . .

وما كاد يفرغ من تأملاته حتى قُرع الجرس ثانيةً ، فذُعر وقام بخطوات متثاقلة ففتح الباب ، واذا بصديقه شارل ، فحيّا كلٌّ منهما الآخر ، ببرودة وجفاء ، ثم دخلا الى المكتب

فقال لاون وهو يحاذر ان يلتقي نظره ونظر صديقه — لم اكن لأتوقع قدومك عليَّ اليوم ، فهل من امر مهم حملك على ذلك؟

فهزَّ شارل رأسه وقال ، وهو كمن يحاول التجلُّد وتسكين اضطرابه الداخلي ، — نعم . . وهو الفصل الاخير من روايتنا ، فقد خطر لي خاطر أحببتُ ان اكاشفك به حالاً ، لترى رأيك فيه قبل تدوينه

فاستغرب لاون هذه اللهجة وقال بصوت خافت — حسن ، فهات ما عندك

قال — وصلنا في الفصول السابقة الى توثُّق الحب بين بطل الرواية ومحبوبته . . وقد خطر لي الآن ان أُظهره مجرمًا ، وأَجعل الذنب كله عليه لا عليها . .

لم تقع هذه الكلمات على مسمع لاون حتى ذهل وامتُقع ، ولم يكن من قبل قد رأى صديقه بهذه الهيئة ، او سمع منه مثل هذا الكلام . فلعله يكون قد اطلع على ما بينه و بين ماري من العلائق، وجاء ليناقشه الحساب . . . غير ان ماري لم تُشعره بهذا الخطر ؟

واستأنف شارل كلامه قائلاً — ويجب ان يُعلَم في هذه الرواية او هذه المأساة ان لهذه المحبوبة زوجًا شريفًا رحب الصدر طويل الاناة ، وانه صديق لحبيب زوجتــه ، وقد وثق بامانته كل الثقة . . .

فقاطعه لاون بقوله — وكم تريد ان تجعل عمر هذا الزوج ؟

قال — نحو اربعين سنةً ، اي من سنّي

قال — والحبيب ؟

قال — نحو الثلاثين ، اي من سنّك

فارتعش لاون وعلا وجههُ الاصفرار

فقال شارل عابسًا — ويجب ان يُدرك هذا الحبيب ا
الواجب الادبي عليه لصديقه هو اكرامهُ والاخلاص له
لا خداعه بمثل هذه الدناءة التي لا يُقدم عليها الاَّ اللصوص والسَّفا
الاوباش . . . وهذا المبدأ اريد ان أُفصّله تفصيلاً وافيًا في الرواية
وأجعل للزوج المخدوع ملء الحق في معاملة هـذا النذل الخائن
يليق بأمثاله

فازداد لاون ارتعاشًا ووجم في مكانه لا يجسر أن يرفع طرْ
الى صديقه ، وقد رأى نفسه بازائه صغيراً حقيراً جدًّا . . ثم خطر ا
أن يمتحنه ، ليرى إذا كان كلامه موجهًا اليه رأسًا ، أو هو موضو
الرواية التي يريد وضعها ، فقال بصوت متقطع — وكيف تريد أ
تكون خاتمة هذه الرواية المحزنة ؟

فقال شارل بخشونة — نعم انهـا محزنة جدًّا ، وأنا أريد أ
يُقتَل هذا الخائن ويمحى اسمهُ عن وجه الأرض . . أريد أن يمو
كما يموت المجرمون واللصوص الادنياء

فقال لاون بصوت متلجلج — ألا ترى أن يفسـح له ليبي
سبب جرمه ؟

قال — وأي سبب يؤدي الى هذا الغدر الشنيع ؟

قال — أنت روائيّ ، وقد درست عواطف البشر وأهوآءهم ودلال النسآء . . .

فقطب شارل وقاطعه قائلاً — لا تسترسل في مثل هذه الاعذار . . . فعلى هذا الرجل أو هذا الصديق أن يكبح جماح أهوآئه ، ولا يعامل قريبَهُ بغير ما يريد هو أن يعامله قريبُهُ به ، ولا يلتفت إلى ما تسميه دلالاً . . . وليست هذه المرأة إلاّ آية العفة والاستقامة ، ولكنها أُخذت بظواهر هذا الخبيث ، ولم تنجُ من حبائل مكره وغدره . . وعليه فقد صار من الواجب الانتقام منه فقط . . وأنا أرى أن أحسن وسيلة للانتقام ، هي الفتك به في منزله الخاص ، فما رأيك ؟

فتجلد لاون وقال — ليس ذلك بجديد في عالَم الروايات

قال — وفي عالَم الحقيقة أيضًا ، اذ ليست الرواية الا مظهراً من مظاهر الحياة . . . وما هو رأيك في نوع السلاح ؟ وأيهما تفضل ، المسدّس أم الخنجر ؟

فطارت نفس لاون شعاعًا ، وقال — المسدس اكثر استعمالاً في مثل هذه الاحوال

قال — فهل عندك مسدسان ؟

فذُعر لاون وأصبح وجهه بلون الاموات وقال — ولِمَ ذاك؟

قال — لأني أودُّ تمثيل هذا الفصل قبل اظهاره على المسرح

قال — لا مسدسات عندي

قال — لا بأس اذاً من الخناجر . وقد أحضرت لهذه الغاية خنجراً حادًّا

وفي الحال أخرج من جيبه خنجراً ثم استأنف كلامه قائلاً — هذا من أحسن الخناجر ، لأن طعنةً منه تكفي لقتلِ الخائن وإخماد أنفاسه الى الأبد . . .

سمع لاون ذلك وهو يكاد يفقد عقله . ولكنه تحامل على نفسه وقال — ألا ترى لذلك مخرجاً آخر ، كأن تجعل الزوج يجهل هذه الخيانة ، وحينئذٍ فالحبيب يعود الى رشده ويدرك مقدار خطإِه فيندم على ما فرط منه ويُصلح سيرته

قال — وهمتَ أيها الصديق . . لان الزوج عالم بالأمر ، وهو يطلب الانتقام لا سواه

فقال لاون وهو لا يرفع نظره عن الخنجر ، وقد ارتعدت مفاصله واصطكت ركبتاه وتيقن انه هالك لا محالة — لكن . . .

قال — قل ، ماذا تريد أن تقول ؟

قال — أريد أن تظهر كرم أخلاق الزوج وشهامة نفسه ، بازآء دناءة الحبيب وعظم خيانتـه ، بدون هذه الخاتمة المحزنة ، وفي ذلك أحسن مؤدّب وأقوى رادع ، بل انَّ في ذلك انتقامًا أشـد من الطعن بالخنجر او القتل بالمسدس

فأطرق شارل مفكراً كمن يحارب أفكاره فيما يصمم عليه . . ، ثم رفع رأسه وأرسل الى لاون نظراً أحدَّ من الخنجر وقال — وأنت ماذا اعتراك أيها الصديق ؟ انك لَشـديد الاصفرار كأنك من عالَم الأموات ، فهل تشكو شيئًا ؟

فارتبك لاون وقال — ذلك لأني أرِقتُ الليلة البارحة ، فلم أذق طعم الكرى

قال — خذ اذاً قدحًا من الكونياك ، لأني صرتُ أخشى عليك الاغماء

فتنفس لاون الصعداء وقال — أرجو أن تناولني قدحًا من هذه الخزانة ، لأني لا أقوى على النهوض

فقام شارل وفتح الخزانة ، فرأى فيهـا صحاف الحلوى وزجاجات الشراب ، فتبسم وقال — الآن أدركت علة اضطرابك واصفرار وجهك . . فانت لم تكن تتوقع قدومي عليك في مثل هذه الساعة ولم يكن لك ارتياح لوضع الروايات ، لاشتغالك عنها بهذه المعدات .

فسأذهب عنك ، وأنا أرجو ان اراك غداً لوضع تتمة الرواية . .

قال ذلك وخرج ، ولاون جامدٌ في مكانه ، لايدري أفي يقظة هو أم في منام . .

ولما عاد ألى رشده قام فكتب رسالتين ، احداهما باسم شارل ، والاخرى باسم ماري . وقد قال في الاولى : « قد قُطعت منذ هذه الساعة كل رابطة فيما بيننا ، فلا اريد بعد الآن ان اكتب روايات تمثيلية » . وقال في الثانيـة : « صرتُ ارى العيش بقربكِ وقراً ثقيلاً على عاتقي ، فسأهجر هذه الربوع الى الأبد ، واسافر من الغد الى اميركا ، واجتهد في نسيان ما مضى . . »

* * *

ولما كان شارل وزوجتـهُ على مائدة الطعام في اليوم التالي ، وكان كلٌّ منهما قد قرأ رسالته ، قال شارل — علمتُ اليوم بأن صديقنا لاون قد سافر الى اميركا

فقالت ماري — ولا شك انه سيتزوج بحال وصوله

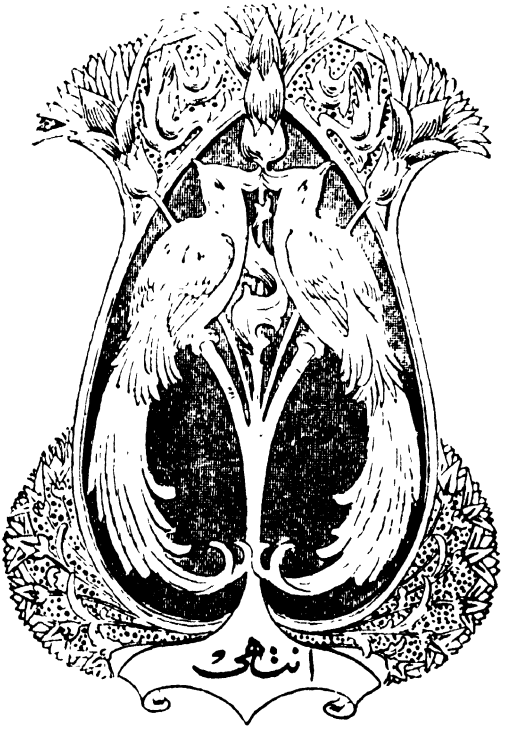
قال — اذاً فهو احمق

قالت — انك غير لطيف اليوم ياشارل !

قال — عفواً يا سيدتي ! . . اني احب لاون ، ولـكن الزواج مخاطرة ونصيب ، وليس لكل رجل ان يجد جوهرة كريمة نظيرك . .

فهرس

صفحة		صفحة	
٩	المقدمة	١٧٢	الجائزة
١٧	أين الحقيقة	١٨٦	السعادة
٢٧	نحن وهم	١٩٠	بلا سبب
٣٥	أيتها الشمس	١٩٨	حجر الالماس
٤١	الثور المقدس	٢٠٨	المذنب الصغير
٥٠	الفيلسوف	٢١٥	زوجة نادرة المثال
٦١	إلهة الجمال	٢٢٣	المومیا
٦٨	الرسائل	١٣٦	آخر تذكار
٧٩	الصدى	٣٤١	المال
٨٧	الحديث ذو شجون	٢٥٢	هدية العيد
٩٩	اللص	٢٥٨	جنون الحب
١٠٦	القناع	٢٧٥	خصام الزوجين
١١٣	مؤتمر الحيوانات	٢٩٠	حجر الفلاسفة
١٢٦	هند الصغيرة	٣٠٠	العلاج الشافي
١٣٥	الأب	٣١٣	هو وهي
١٥١	الزوج المخدوع	٣٢٤	المقابلة المخيفة
١٥٩	محاورة بين الآلهة		


انتهى

سلسلة المطبوعات العصرية

كتاب

رسائل غرام

جديدة

بقلم

سليم عبد الأحد

مزين بصور عديدة

ثمنه عشرة قروش صاغ والبريد ثلاثة قروش

الحضارة المصرية

تأليف

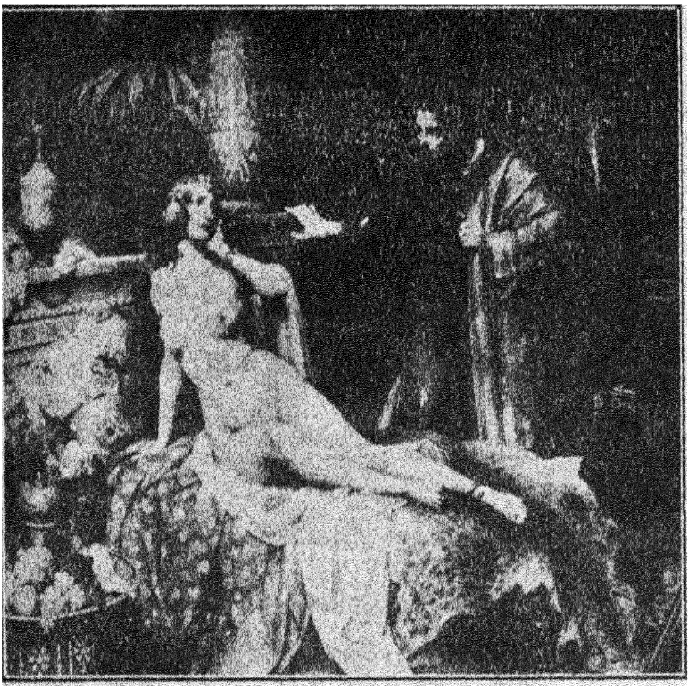
غوستاف لوبون

وتعريب

الاستاذ محمد صادق رستم

اذا كنت من المهتمين بالتاريخ، خصوصاً تاريخ « الحضارة المصرية القديمة » فاشتر هذا الكتاب الآن، وثق انك ستجده من اثمن ما كتب في موضوعه. وقد حليناه بكثير من الرسوم اللازمة لفهم الكتاب، مأخوذ عن الاصل الفرنسي.

ثمنهُ عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة. ويطلب من جميع المكاتب في مصر وسوريا وفلسطين والعراق او من ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر — وبريدياً بعنوان صندوق البريد رقم ٩٥٤ بمصر



تايْيِسْ

حواري

(قصة مزينة بالصور)

تأليف شيخ كتاب العصر

أناتول فرانس

ترجمة الاستاذ الأديب النابه

احمد الصاوي محمد

تاييس – صورة صادقة لمصر القديمة بعلومها وفنونها وفلسفتها وآدابها، وقصورها وحقولها ، وصحـاريها ووديانها ، وملاعبها وأديارها ، وعادات أهليها .

تاييس – معجزة رائعة لا مثيل لها في الأدب العصري ، والفن القصصي . كان ظهورها فوزاً مدهشاً لعظمة الفكر الانساني

تاييس – قصة حب تملك عليك نفسك ، فتظل تقرأ حتى تنسى نفسك . وتحملك دعابات أناتول فرانس اللذيذة المشهورة الى عالم كله ضحك ومسرات ، ثم تجعلك تبكي وتحزن لآلام رجل راح ضحية الدنيا الغرور بعد ان عذبه فكره عذاباً فظيعاً

إقرأ تاييس – تجد الحكمة والمعرفة والردود الصائبة على الاسئلة التي تخـالج نفوس الشباب الفتية الحائرة ، وقلوب أهـل الفطنة والذكاء المستيقظة .

ما الحب ؟ ما الـكره ؟ ما الرضى ؟ ما الغضب ؟ ما الحـكمة ؟ ما الضـلالة ؟ ما المعرفة ؟ ما الجهالة ؟ ما الفلسفة ؟ ما الغباوة ؟ ما الوطن ؟ ما الخيانة ؟ ما الشر ؟ ما الدين ؟ ما الـكفر ؟ ما الجنة ؟ ما النار ؟ ما الشهوة ؟ ما العفة ؟ ما التلذذ ؟ ما التقشف ؟ ما الحرية ؟ ما العبودية ؟ما العشق الحـلال والعشق الحرام ؟ ما فلسفة الفضيلة والرذيلة ؟ ما حكاية الارض والسماء ؟ ؟

تقرأ في الفصل الثاني « المأدبة » وهي وحدها كتاب جامـع

فُصّلت آياته للناس . فيه رأي الحكيم ، والفيلسوف ، والكاهن ، والشاعر ، والموظف ، والعاهر . . .

إقرأ تاييس — تاييس تحل لك الغاز الوجود ! تاييس تبوح لك بأسرار الغرام ! إقرأ قصة تاييس الفاجرة ! تاييس الطاهرة ! تاييس البغيّ ؟ تاييس القديسة !

تاييس

كتاب الحب . كتاب الحياة

ثمن النسخة عشرة قروش صاغ والبريد ثلاثة

يطلب من جميع المكاتب او من ملتزم طبعه ونشره

الياس انطون الياس

صاحب المطبعة العصرية — بشارع علوي — بمصر

صندوق البريد رقم ٩٥٤ مصر

القصص العصرية

مجموعة ممتعة تشمل ثمانين قصة أدبية غراميـة مختلفة المغزى والاسلوب ومحلاة بكثير من الصور الرمزية ومترجمة بعبارة فصيحة قريبة المتناول لطيفة الاسلوب على طريقة أهل الغرب فى كتابة هذه القصص المستظرفة التى يتوخى بها امتاع الذهن بلدة السيرة المحكية وايصال الفائدة المقصودة الى العقل من طريق تلك اللذة باسلوب انشائي خاص تجتمع فيه السهولة والسلالة الحاذقة الوصف الى رشاقة المحادثة وظرفها ، الى حكمة سامية أو عظة كافة عن الشر داعية الى الخير ، كما قال نابغة الشعر والنثر خليـل بك مطران فى المقدمة التى كتبها لها

وتقع هذه المجموعة فى ما يقارب الخمس مئة صفحة وثمن النسخة عشرة قروش صاغ فقط . وتطلب من جميع المكاتب أو من ملتزم نشرها – الياس انطون الياس – صاحب المطبعة العصرية — بمصر (صندوق البريد ٩٥٤ بمصر)

الغربال

مجموعة مقالات نقدية ، بقلم حضرة الكاتب العصري الكبير ، الاستاذ

ميخائيل نعيمة

مستشار جمعية الرابطة القلمية بالولايات المتحدة الامريكانية

وهو كتاب قيم حلل فيه كاتبه مذهب رجال الادب العصري ، والاساليب التي يجب ان يسير عليها الكتاب والشعراء ليجاروا روح التطور الحديث ، فيجب على كل اديب مطالعته .

﴿ ثمنه عشرة قروش مصرية واجرة البريد مسجلا لداخل القطر ثلاثة قروش صاغ وللخارج خمسة ﴾

كتاب

المرأة وفلسفة التناسليات

تأليف

الدكتور فخري

طبيب الجلد والامراض التناسلية

اذا أردت أن تفهم « من هي المرأة ؟ » وتاريخ معاملتها عند الشعوب القديمة . وكيف تعيش المرأة ، وكيف تفكر ، وما تأثير طبيعة جسمها وعقليتها ونفسيتها على حياتها التناسلية وعلى حياتها الأدبية والاجتماعية . واذا أردت أن تعرف معنى جمال المرأة وكيف يتأثر بالعناية الصحية أو بالزينة الصناعية . واذا أردت أن تفهم حقيقة موقفها كفتاة ، وكأم ، وكواحدة حرة طليقة لا تخضع لأنظمة الزواج

اذا أردت أن تعرف كل شيء عن المرأة بصراحة فنية ودقة علمية

فما عليك الا أن تقرأ كتاب « المرأة وفلسفة التناسليات »

يقع هذا الكتاب في نحو ٦٥٠ صفحة ، ومحلى باكثر من ٥٠ صورة تمثل حياة المرأة في مختلف الأقطار والعصور (وثمنه عشرون قرشاً فقط)

ويطلب من جميع المكاتب او من ملتزم طبعه ونشره

الياس انطون الياس

صاحب المطبعة العصرية

بشارع علوي ، رقم ٥ بمصر

(صندوق البريد رقم ٩٥٤ مصر)

القاموس العصري

انكليزي وعربي - مصور

تأليف

الياس انطون الياس

ان جميع المعاجم الانكليزية عربية التي تقدمت « القاموس العصري » لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من الشرقيين بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين ، ولذلك تجدهم يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا امامها من البيانات ما يُفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية مجائها في حالاتها المتنوعة ، وجمعها ومفردها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منه مطلقاً للطالب الشرقي . واول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو القاموس العصري

ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هذا المعجم . واننا ننصح لكل من لم يطلع عليه للآن ، مكتفياً بما عنده من القواميس

العتيقة ، أن يبادر الى أقرب مكتبة و يفحصه فيرى بنفسه الفائدة العظيمة التي ينالها من اقتنائه

وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري ، وذلك بخطاب تاريخه ١٣ مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧٧

والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الاولى . ثمنه سبعون قرشاً والبريد خمسة بداخل القطر المصري وعشرة للخارج .

القاموس العصري

عربي — انكليزي

مُصَوَّر

تأليف

الياس انطون الياس

هو معجم لم يُنسج على منواله حتى الآن ، ويمتاز بأسلوبه البسيط الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبع في كل

القواميس الافرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربيـة أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمهيداً لذكر الترجمة الانجليزية . إذ بدون ذلك لا يتسنى للطالب أن يتحقق من صحـة المقابل الانكليزي للمعنى الخاص الذي يطلبه

إطلع عليه فتعلم أن اقتناءه ألزم لك من أي كتاب آخر ما دمت من المشتغلين باللغة الانكليزية —

عدد صفحاته ٧٠٠ من القطع الكبير ويحوي نحو ٥٢,٠٠٠ كلمة عربية وما يقابلها من الترجمة الانكليزية . وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في جميع فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري . وثمنه مائة قرش والبريد خمسة قروش لداخل القطر المصري وعشرة للخارج

قاموس عربي وانكليزي

للغة المصرية الدارجة

تأليف

سفراط سيرو بك

قد جمع هذا القاموس كل شاردة وواردة من مفردات وجمل واصطلاحات اللغـة المصرية الدارجـة في الكلام والكتابة .

ولا نغالي اذا قلنا انه لازم لكل مشتغل باللغة الانكليزية من أبناء مصر خاصة والشرق عامة لما يحويه من الكلمات التي لا يمكن وجودها في غيره من المعاجم العربية انكليزية — ثمنه ماية قرش صاغ والبريد خمسة قروش صاغ لداخل القطر وعشرة للخارج ويطلب فى جميع المكاتب ومن ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر



قاموس الجيب

انكليزي وعربي

Accessorial اشتراكيّ اضافيّ مُلحَقيّ	Call to —. حاسَبَ ناقشَ الحساب
Accessory اضافيّ . مُلحَق . مُساعد	Of no —. قليل الأهمية طفيليّ
Accident عارِض . عَرَض . صُدْفة	Take into —. راعى حَسَبَ حساب
Accidental عَرَضيّ ● ثانوي طارئ	Accountability مَسئوليّة مُطالَبة
Acclaim تصفيق الاستحسان || هَلَّل	Accountable مسئول مُطالَب محاسَب
Acclamation تهليل . هتاف الاستحسان	Accountant إحاسبجي كاتب حسابات
Acclamatory مُهَلِّل ● هتافي استحساني	Accoutre سَلَّحَ ● جَهَّزَ بالسلاح
Acclimatize عوَّدَ على مناخ القطر	Accoutrements اسلحة ● ملابس الجند
Acclivity طلعة مَصعد . مُرتَقى عقبة	Accredit عزَّزَ . عَزَّ
Accommodate أعدَّ ● لاءم ● وفَّرَ بـ	Accretion إزدياد نمو تكاثر
Accommodation ملاءمة ● تسوية	Accrual تجمُّع تراكم ● ازدياد نموّ
Accompaniment مُصاحبة مُرافقة	Accrue نما ● ازدياد كثر راد
Accompany رافقَ . سارَ مع ● جاري	Accubation اضطجاع ● ولادة
Accomplice شريك في الذنب أو الخديعة	Accumulate جَمَّعَ ● جَمَعَ ركم
Accomplish اجرَ اكمل أتمَّ أنهى	Accumulation احتماع تجمُّع ازدياد
Accomplished كامِل تامّ ● مُهذَّب	Accumulator جامِع ● آلة لتجميع الكهربائية
Accord قبول ● اتفاق . مُطابقة	Accuracy صَحَّة . اتقان . دِقة
Accord وفق سوّى ● طابق	Accurate مضبوط . مُتقِن . دَقيق
Accordance وفق موافقة مطابقة	Accurse لعَنَ . شتمَ حرَمَ . دعا على
According to حسب طِبقاً بما على	Accursed ملعون محروم عليه
Accordion آلة موسيقيّة كالارغن	Accusant مُشتَكٍ مُقدِّم الشكوى
Accost دنا . اقترب من ● بادأ بالكلام	Accusation تهمة شكوى شكاية
Accostable سهل الوصول أو الاقتراب	Accuse اتَّهَمَ . ادّعى على شكا
Accouchement ولادة . مِخاض	Accused مُتَّهَم مُدَّعى عليه (جنائياً)
Accoucheur طبيب مولِّد . قابِلة	Accustom عَوَّدَ . مرَّنَ . دَرَّبَ على
Accoucheuse مُولِّدة . [داية] . قابلة	Accustomed مُتَعَوِّد مُتمَرِّن مُتَدَرِّب
Account محاسَبة ● بيان . تقرير ● أهمية	Acerbity حموضة ● مطاطة . شكاسة
Account حَسَبَ ● عَلَلَ . بيَّنَ السبب	Acetify خَمَّرَ حَلَّلَ

ثمنه عشرون قرشاً والبريد ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج . وفي شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ سيظهر صنوه العربي انكليزي وسيكون ثمنه خمسة وعشرون قرشاً فقط

الهدية السنية
لطلاب
اللغة الانكليزية

تأليف الياس انطون الياس

يكفي للتنويه بفائدة هذا الكتاب أن نذكر انه طبع للمرة الخامسة في بحر عشر سنوات . وكل من بدأ دراسة اللغة الانكليزية بواسطته استفاد جداً من سهولة اسلوبه ، خصوصاً لأن الطريقة الحديثة التي ابتكرناها للفظ الكلمات الانكليزية بأحرف عربية هي الطريقة التي لا يمكن ايجاد أسهل وأصح منها

اشتر نسخة منه ، وجرب أن تتعلم اللغة الانكليزية من دون احتياج الى الاستعانة بمعلم . ثمنه خمسة عشر قرشاً والبريد (مسجلاً) ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج

التحفة المصرية
لطلاب
اللغة الانكليزية

تأليف الياس انطون الياس

أعيد طبع هذا الكتاب للمرة الرابعة في مدة وجيزة ، وهو مجموعة كبيرة جداً من المفردات والجمل والخطابات الاكثر استعمالاً ، خصوصاً المفردات والجمل المختصة بالمعاملات التجارية والادارية والقضائية ، وبالاختصار كل ما يكثر استعماله في الاعمال العمومية . لا يستغنى عنه أي طالب للغة الانكليزية ، فاسأل من تقدمك في درس اللغة الانكليزية عن هذا الكتاب فيخبرك بعظيم فائدته . ثمنه ١٢ قرشاً والبريد ثلاثة

كتاب

الأمراض التناسلية

وعلاجها وطرق الوقاية منها

تأليف

الدكتور فخرى

طبيب الجلد والامراض التناسلية

في سنة واحدة أوشكت الطبعة الأولى من هـذا الكتاب أن تنفد . أحسن كتاب ظهر باللغة العربية حاويًا كل المعلومات اللازمة للطبيب ولأفراد الشعب عامة عن هـذه الأمراض وكيفية التعرض للعدوى بها وطرق معالجتها وأحسن ما يتبع عمليًا لمنع العدوى بها . كتاب حيوي للشبان والشابات يفهمهم الاخطار التي يتعرضون لها من أول التقبيل الى . . . . . ويفهمهم واجبهم الأدبى والصحي لتحاشي هذه الاخطار

يقع هذا الكتاب في ٣٢٣ صفحة بالقطع الكبير و به اكثر من ٦٠ صورة تمثل المرض في الاعضاء التناسلية عند الذكور والاناث (وثمنه ثلاثون قرشاً)

(يطلب من المطبعة العصرية ، بشارع علوي بمصر ، او من حضرة مؤلفه بعيادته بشارع عباس نمرة ٨١ بمصر)

كتاب
منتخبات الترجمة

لطلبة التعليم الثانوي

عمل (محمد رفعت) مساعد امين المكتبة بديوان جلالة الملك

يمتاز هذا الكتاب على كل ما سبقه من نوعه ، لاجل تعليم الترجمة ، باشياء كثيرة اهمها طريقته المبتكرة في شرح عبارات القطع المنتخبة ومفرداتها الصعبة أمام كل صفحة باسلوب اصطلاحي يفيد الطالب في الترجمة واللغة الانجليزية معاً . ثم تنوع قطعه من حيث الصعوبة بحيث يلائم مقدرة كل تلميذ في القسم الثانوي وغيره

ثمنه عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة قروش ،
ويباع في جميع المكاتب

التربية الاجتماعية

تأليف

علي فكري

أمين دار الكتب المصرية

ظهر هذا الكتاب حديثاً وقد جمع من الحقوق والواجبات والآداب الاجتماعية ما يعرف به المرء ماله وما عليه ليعيش في راحة بال واسعد حال محبوباً من اخوانه منظوراً اليه بعين الاحترام : وهو اول كتاب في موضوعه

يقع في ٢١٢ صفحة وثمنه عشرة قروش مصرية ، واجرة البريد (مسجلا) ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج

يطلب من جميع المكاتب او من ملتزم طبعه ونشره

(الياس انطون الياس) صاحب المطبعة العصرية

بشارع علوي رقم ٥ — بمصر

علم الاجتماع

بقلم فروري

حياة الهيئة الاجتماعية وتطورها

هلمَّ بنا ندخل في بوابة علم الاجتماع ونكشف اسرار الهيئة الاجتماعية، الاسرار العجيبة الغريبة

ترى امماً عظيمةً راقية متمدِّنةً حيوية ، تضرب في طول الكرة الارضية وعرضها ، وترى شعوباً متأخرة خاملة خامدة الحركة ، وترى جماعات همجية متوحشة منحطة جداً — اذا كانت هذه الجماعات كلها ابناء آدم وحواء ، فما سرّ تفاوتها في الرقيّ ؟ ففي « علم الاجتماع » تعلم كيف تكوَّنت الجماعات والشعوب والأمم ، وكيف تنوعت وتفاوتت في رقيها

ترى جمهوراً متهيجاً متحمساً متهوّساً ، ثم ترى جماعات هادئة عاملة ، ثم ترى ناساً في مجالسهم يتناقشون ويقترعون ويقررون

اموراً . ثم ترى هيئات نظامية من جمعيات وشركات وحكومات الخ ، فما هو سر التهوس والتناقش والنظام ؟ . ثم ترى ازياءً تتعاقب ، وعادات تتوالى ، وتقاليـدَ تُتَوارَث ، ورأياً عاماً يسود ، وقوانين تتقرَّر . فكيف تنشأ الازياء والعادات والتقاليد والقوانين ؟

في « علم الاجتماع » ترى العواطف والعقول تتصادم فتثير الجماعات ثم تسكنها ، وتتمخض الثورات الفكرية عن الانظمة والهيئات

ترى امماً ترقى واخرى تنحط ، وامماً تنمو وتعظم وامماً تتلاشى وتنقرض ، وامماً تستعمر وتستعبد وامماً تُستَرَق وتعمـل لغيرها . ثم ترى عقولاً تخترع وعقولاً توسّع العرفان والعلم وعقولاً تصنع وتعمل . ثم ترى قوات الطبيعة تتساقط تحت قدمي الانسان الواحدة تحت الاخرى وهو يسخرها لخدمته ، فيستطيع بها أن ينشر أفكاره في لحظات حول الكرة الأرضية ، وينتقل من مكان الى مكان بأسرع ما يمكن ويغير طبيعة الاقليم بحيث تسهل المعيشة له في كل اقليم بين هجير خط الاستواء وزمهرير القطب . فمـا هي القوات الاجتماعية التي تقلب سطح الكرة الأرضية رأساً على عقب ؟

« علم الاجتماع » يبين لك ان الشهوة الجسدية ، والحب ، والذوق الجميل ، والعواطف ، فعلت كل ذلك وفي وسعها أن تقول للجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل

« فعلم الاجتماع » هو علم التكوُّن والنشوء ، وعلم العواطف المسيطرة على الهيئة الاجتماعية ، وعلم العقل المدرّب للعواطف ، وعلم الحب والجمال اللذين يرتفعان بالمدنية الى فوق

« علم الاجتماع » هو البوابة التي تدخل منها إلى عالم أسرار الهيئة الاجتماعية حيث تنكشف لك وترى العجب العجاب . هذا هو العلم الذي بسطه الاستاذ نقولا الحداد الكاتب الاجتماعي المعروف في هذا الكتاب الذي نحن في صدده بسطاً يدع كل قارىء يفهمه بكل سهولة

فهذا الكتاب الذي يصدر في آخر صيف سنة ١٩٢٤ هو الكتاب الوحيد في موضوعه باللغة العربية والمستوفي كل ما يخطر لك ببال من هذا القبيل . أفلا تشعر أنه يجب أن تطالعه وأن يكون في مكتبتك لكي تعود اليه كلما رمت أن تعرف منزلتك في الجماعة ومنزلة قومك في الامة ومنزلة أمتك في المجتمع الانساني ؟ وما هي وسائل الارتقاء لك ولقومك ولامتك ؟

ثمنه ٢٠ قرشاً ، ويُباع في جميع المكاتب

أو يطلب من ملتزم طبعه ونشره

الياس انطون الياس ، صاحب المطبعة العصرية

بشارع علوي — بمصر